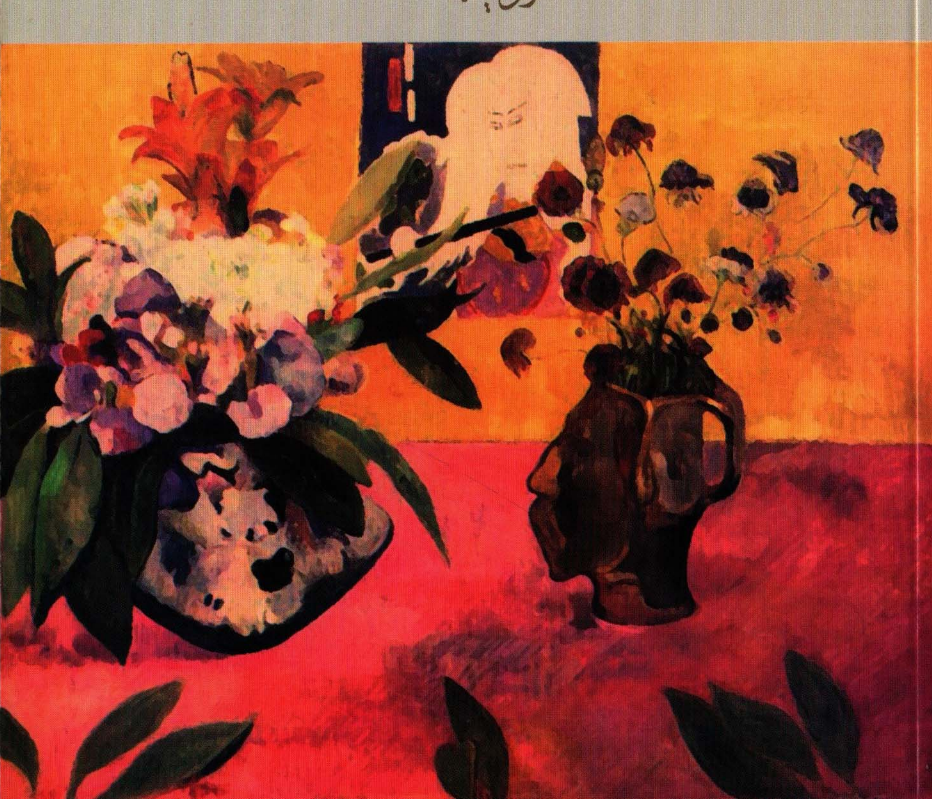
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

ربيعة جلطي

نادي الصنوبر

رواية



نادي
الصنوبر

نادي الصنوبر

رواية

ربيعة جلطي



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-614-01-0553-9

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

إهداء

إلى عثمان بالي ، زرياب الطوارق .. جرفتك مياه وادي جانيت ذات طوفان..فارتفعت نجما.. تطل من عليائك على الصحراء .

باب واقعة الوسيم

بدون سابق إنذار، تفتح «الحاجة عذرا» باب شقتنا، فتصل إلى سمعي وسمع البنات حشرجة شتلة المفاتيح التي ترافقها دوما، وكأنها سجان يقظ.. والحق أنها سجان طيب لا وجود له في الواقع، تأتينا بالشاي والحلوى والحكايات والضحكات النادرة في حياتنا، فنقهقه حتى تكاد صدرونا تنشق وتنير، وتنثر شيئا من الفرح النادر في يومياتنا. وتعلمنا الكثير، وبصوتها المرتفع تنادي:

- واش يا بنات نتاع الزمان.. رقدتو بعدا؟؟ آيا نوضو نوضو..

ضاجة مثل الرعد، تدخل «الحاجة عذرا» الصالة بألبستها الفضفاضة ذات الألوان المتعددة، يغلب عليها الأسود الليلي البرّاق، أطرافها تطير في كل مكان حتى كأنها تجرجر وراءها الأشياء، إلا أن القماش الهفهاف العريض يمر مثل الماء مداعبا وسائلا فوق كل شيء دون أذى، ومن كثرة ما ترفع مناديلها حول كتفيها، تمتلئ الأمكنة بروائح المزيج من طيوب صحراوية، لا تشبه في شيء العطور الفرنسية المغشوشة التي نتنافس على شرائها من سوق الطرباندو، كلما سمحت إمكانياتنا بذلك.

تلج الصالة وبين يديها سينية كبيرة نحاسية، تحتضنها بعناية فائقة وكأنما هي طفل تخاف عليه، عليها علب من صفيح مزركشة بألوان ورسومات غاية في الدقة، علبة الشاي، وعلبة السكر، وربطة كبيرة من النعناع، وحزمة صغيرة من نبات «الشهيبة»، ومجمر تطقطق جمراته الحمراء الناطقة، وصحن من البلح.

تجلس على الأرض في الوسط تماما، غير آبهة، وكأنها متأكدة أننا سنخرج من غرفنا المطفأة الخرساء للتو.. وكالعادة تبدأ في تحضير الشاي على طريقتها الخاصة، تضع كمشة من الشاي الأخضر في البرّاد (الإبريق) القابع في الوسط رافعا أنفه بشموخ، تشلله بقليل من الماء المغلي، تتركه قليلا ثم تشلله مرات أخرى، مطوحة ذراعها كله تلوح بالبرّاد (الأبريق) في الهواء، حتى تكاد تسمع حشرجة حبيبات الشاي بداخله، وتعيد الماء ليغلي فوق المجمر.. للماء المغلي الفوار سحر لدى «الحاجة عذرا»، أشعر أن بعينيها لذة قصوى وفرحا عارما. لا تفتأ تنظر إلى الماء المغلي وهو يئن فوق النار.. تضع قطع السكر الكثير ثم تنتظر قليلا قبل أن تقلبه في كأس كبيرة عدة مرات، لتعيده إلى البرّاد وتملأه أخيرا حتى التمام بالماء المغلي. تفكك ربطة النعناع المنظف ذي الأوراق الحرشاء بتوأدة وحب واعتناء، وكلما حركته فاضت منه رائحته المهدئة، ثم تضعها جانبا وكأنها تريد أن تنعش رائحتها المكان قبل أن تدسها أخيرا في برّاد الشاي ذي اللون الفضي، وتضيف في الأخير نبتة «الشهيبة» ذات الرائحة النفاذة المنعشة. ترمي بين الحين والأخر نظرة إلينا ونحن جالسات حولها على الأرائك البنية في ثياب نومنا، بعيون متعبة ووجوه شاحبة واجمة منكسرة، تبتسم وهي تقلب السواك بين أسنانها الناصعة.. أفكر أحيانا أن الحاجة عذرا من خلال ابتسامتها المبهمة تلك، تقرأ ما بدواخلنا، وتعرف ما قمنا به خلال

النهار دون حتى أن نخبرها بشيء من ذلك.

منذ أن أقمت في بيت الحاجة عذرا، وأنا لا أزداد إلا رهبة من هذه المرأة المدهشة الضخمة، ذات الوجه ذي الجمال النادر بملامحه المنسجمة في تناسق غريب، الآتية من الجنوب البعيد الحار، في صوتها حشرجة وكأن بقايا الرمل لا يبرح حنجرتها القوية، يتململ مع كل جملة تنطقها.

لا أدري لماذا آخذ كل ما تقوله على مأخذ الجد، على الرغم أنها لا تتكلم إلا وهي هازئة ساخرة، فلا تعرف هل أن ما ترويه قد حدث فعلا، أم أنها تطعّمه بخيالها الخصب الواسع وسع الصحراء التي جاءت منها. يبدو لي أحيانا أن الحاجة عذرا عبارة عن خيام متراصة من أسرار ملونة متينة الأوتاد.

في الحقيقة «الحاجة عذرا» لا يأسرها شرب الشاي كثيرا، مع العلم أنها لا تستغني عن سحره أبدا، بقدر ما تعشق طقوس إعداده، وتوزيع كؤوسه، والتمتع برؤية راشفيه وببهجة المتمتعين بلذته، ولذة الحكاية التي ترافقه مثل حلوى محشوة بالتمر الناضج.

تأخذ الكأس الصغير المذهبة أطرافه بعد أن توزع علينا مثله، لا تملأ الحاجة عذرا الكؤوس إلا للنصف أو بالكاد، إلا أن الكؤوس الشفافة الهشة الرقيقة تلك، تتدافع رغوة فضية على رؤوسها حتى تكاد تفيض.

تضحك الحاجة عذرا وهي تتأمل الكأس، ثم وكأنها فجأة تغيب بعيدا وتنطق بكامل لا وعيها:

- وأنا صغيرة، كان جدي سيدي محمد بن امبارك يرفع «البرّاد» عاليا جدا، ثم يهوي بسرعة بالسائل على الكأس، كي تشتد الرغوة فيه وتزداد وتتناسل.. وكان يبالغ في شدة حركته تلك حين يملأ كأسي من

دون الحاضرين، ليمتلئ بالرغوة الفضية فيقول لي بزهو:

- آه يا عذرا.. ستصبحين ذات مال كثير حين تكبرين.. انظري الدراهم الكثيرة... يقول ذلك وهو يشير إلى فقاعات الرغوة الفضية المتلاطمة وهي تفيض على شفاه الكأس وقد امتلأ حتى التمام.

.. لم تكذب تنبؤات جدي سيدي محمد بن امبارك.. الحمد لله الآن لدي أملاك ومال كثير يكفيني وأكثر.

ثم تتنهد حتى نكاد نلمح النار تندلع في صدرها، ثم لا تلبث ترمش عينيها وتبتسم وكأنها تعتذر.

يظل الكأس الصغير بيدها، تتأمله بحنان، وتشرب بين الكلام والكلام جرعات صغيرة، هي لا تريد شرب الشاي لوحدها.

هو احتفال بالحياة كلما جاءت الحاجة عذرا لتحضّر لجلسة الشاي، تجعلنا روائح العطور نسافر بعيدا كلما انزلقت ككل جلسة شاي في الحديث عن المراتع البعيدة العزيزة لطفولتها وشبابها، ولعل ذلك يذكرها بطقوس إعداده وتناوله، وخاصة انتظاره.. انتظار جماعي لاحتفال بمتعة جماعية. الحق يقال إنه جو تصنعه الحاجة عذرا بمنتهى الدقة والبراعة، تستحضر جغرافيتها الصحراوية التي تحن إليها تستقدمها من الذاكرة، وتعيشها بجزئياتها الصغيرة من أصوات ووجوه وألوان.. إنها بيننا، تأسرنا بأحاديثها، وتعمل أن يظل انتباهنا مستيقظا لسماعها، لكنها بعيدة جدا ونحن مجرد كمبارس.

المستأجرون لشقتها شركاء لها في إيقاظ الذاكرة، وهمز المخيال المليء بعوالم أخرى تختلف في كل شيء عن هذه المدينة الباردة.

إنها لا تشركهم جنونها الدفين بالشاي أو «التاي» كما تنطقه وطقوس جلساته الطويلة فحسب، بل تخلق طقسا قطعة من العالم

الصحراوي الذي تحن إليه بعد أن افتقدته منذ زمن وبدورنا تزيدنا جلسات الشاي دهشة بعد أخرى.. إنه إدمان الشاي وما له.

- قعدة التاي مقدسة يا بنات!

نجلس في البدء حولها صامتات، بأثوابنا المسائية تتهدل حول أجسامنا النحيلة المتعبة، والنمل يتكاثر في أسفل الأقدام من كثرة السعي في هذه المدينة الغولة التي نتشارك جميعنا في غربتنا فيها، كل واحدة في داخل رأسها دخان اليوم الطويل في البحث عن المبتغى، يتصاعد في التواءات قليلا قليلا مثل أفعى راقصة.

لا يبدو أن «الحاجة عذرا» تنتظر منا شيئا، لست أدري إن كانت تشفق على حالنا، أو تتسلى برؤيتنا عابسات يائسات، وقد بدت أحسن حال منا بحضورها الكاسح وفتنتها، فلا قدرة على منافستها، على الرغم من شبابنا وقدر الجمال لكل واحدة منا.

سعادتها القصوى، حين تبدأ بصب الشاي في الكؤوس الصغيرة مذهبة الأعناق، وقد رفعت الإبريق الفضي شامخ الأنف عاليا عاليا جدا، حتى تخاله معلقا في السقف، فيسيل الشاي الأصفر المتلألئ المتراقص في الهواء، وكأنه شعاع أو شهاب يهوي نحو حتفه. لا تخطئ الحاجة عذرا مرماه أبدا، ولا تتسرب أيه نقطة منه خارج الكأس الصغير.

لتلك الحركة بهجة تدخلها إلى نفسي، فيتفتت مزاجي العكر فجأة وأبتسم. ومثلي تشق الابتسامة وجهي نسيمة وباية العابستين إلى نصفين.

تمتد جلسة الشاي طويلا، وعلى دفعات ومراحل، بمنهجية فائقة الدقة، تملؤها الحاجة عذرا بأخبار نساء ورجال أهل الصحراء، عشقهم وزواجهم، وطلاقهم، وولاداتهم، ورقصاتهم، واحتفالهم بمواسم

النجوم، ورحلاتهم، وعاداتهم، وسهراتهم تحت سماء لا مثيل لصفائها ولشساعتها وقربها، ووصف ليومياتهم في دقائقها، حديثهم الأساسي عن الماء وتوزيعه بالقسط عن طريق نظام «الفوغرات»، الطريقة المتفردة والفريدة في العالم لتوزيع هذه المادة العزيزة بالعدل على ناس الصحراء، وتحدثنا عن الفرح السائد في البيوت..

لست أدري لماذا لا تسترسل الحاجة عذرا إلا في الحكايات السعيدة، كل شيء تتحدث عنه يملؤه عبق الفرح، كل ما استرسلت في حديثها بصوتها الجهوري الهادئ تميزه بحة وكأن الحروف تخرج من أنفها، إلا وتلاشت غيوم الكآبة عن قلبي، خاصة حكايات الحب والخيانات، وحيل النساء، وأخبارهن، وأسرارهن الغريبة، التي لا يعرف منها الرجال شعرة واحدة، مهما أوتوا من دهاء أو ذكاء. كثيرا ما تختم جلساتنا المؤنسة، فتعزف على آلة الإمزاد ذات الوتر الوحيد، يخرج آهات متواصلة، تضع الآلة في حجرها ثم تمرر القوس الصغير، وبصوتها المتهدج نصف النائم، نصف الغائب، تغني..

في البدء، لم أستسغ هذا النوع من الموسيقى والغناء، أنا التي تربت أذني على أغاني الصخب والصياح، ولكن مع ترددها وسماعها، أضحيت أشعر بحركة لذيذة في صدري، ورجفة حين يئن هذا الوتر الوحيد في حجرها.. مزيج من الرهبة والنشوة والاعجاب، ثم وقعت في غرام هذه الآلة الغريبة.

ذهبت ذات يوم عند بائع الأدوات الموسيقية في أكبر شارع في المدينة، محل ضخم وفاخر يحتوي على عدد كبير من الآلات الموسيقية الجميلة، فقلت له بثقة:

- أريد آلة الإمزاد من فضلك..!

لم يتردد أن يتفرس في وجهي عن قرب ثم ضحك مني هازئا

هازا رأسه الضخمة يمنة ويسرة:

- واش هذا.. عمري ما سمعت به!؟؟

لكنني على الرغم من وجهي الذي احمر من المفاجأة وربما الغضب.. كررت أمام وجهه:

- الإمزاد.. الإمزاد.. الإمزاد نتاع الطوارق!

ثم خرجت وأنا ألوح بذراعي من قلة الحيلة.

فطنتْ الحاجة عذرا إلى أن أحاديثها التي تشدنا إليها أكثر، هي تلك التي تتناول سير الرجال وعلاقتهم بالنساء، وما يدور في كواليس النساء خاصة من تدابير عفاريتية للحيل.. فتسترسل سخية فيها، مفصلة، مؤكدة، محللة، معلقة.. لم تكن الحاجة عذرا لطيفة مع الرجال على الرغم من إعجابها الكبير بهم، واهتمامها بأخبارهم الصغيرة والكبيرة.. وحين تبدأ بوصف أحد منهم فإنها تفتت جسده بالقول والمعنى إلى تفاصيل لا تدركها غير عارفة بأمورهم الدقيقة، وكانت تسميهم «الذْكُورَا».

- أنا اللي نعرفهم الذْكُورَا هاذوك.. أنا اللي نفهمهم وهي طايرة..!

في آخر كل سهرة، تتعالى ضحكاتنا حتى لتكاد تشق سقف الغرفة.. ليس هذا فحسب، بل نكاد نشعر وكأن يومنا الهالك لم يذهب سدى، وقد اجترحنا منه ما يكفي من الانتصار على الرتابة والفشل، وأشياء أخرى، في هدف كل واحدة منا.

في بداية الأمر، لم نكن نستسيغ الدخول المفاجئ للحاجة عذرا إلى الشقة، كنا نشعر أنه يكفي أننا ثلاثتنا في البيت، فبالكاد نتحمل بعضنا البعض، فلا يجب أن تضيف حضورها اليومي الثقيل، لكن

والحق يقال، وبعد فترة صرنا نحبذ مجيئها، وعلى شوق ننتظره لكسر رتابة المساء بل النهار كله، ثم إنها لا تتدخل أبدا في حياتنا الخاصة، ولم تسأل إحدانا مرة عما تفعله في الخارج طوال النهار.. يبدو أن الحاجة عذرا لا يهمها الإطلاع على أخبارنا، بل يهمها أن نستمع إليها لا غير، إنها تحتاج إلى من ينصت إلى حكاية حياتها الغريبة الغنية بالأحداث، التي لا تكرر سردها، ولم يحدث أن سمعنا قولا لها مرتين، حتى إننا، أحيانا، نشك في حقيقة بعض التفاصيل العجيبة في قصصها، إلا أن طريقتها المتقنة في الحبكة، والتدقيق، والتأثيث بذكر الأسماء والأماكن والتفاصيل والأحداث والتواريخ، تجعلنا نتنفس الصعداء، ونحن نكاد أن نصير متأكدات على أنها لا تضحك على ذقوننا.. بالكاد..

يا إلهي.. ما هذا الجيش كله الذي عرفته «الحاجة عذرا» من الناس وخاصة من الرجال، وهل كل تلك القصص الغريبة في علاقاتها مع «الذْكُورَا» كما تسميهم، ولا تدخر جهدا في التفنن حين قصها علينا حقيقية..؟ وهل هي أيضا مثل أحوالنا قصدت هذه المدينة بحثا أو هروبا أو انتقاما من أحدهم..؟

على كل حال للتفاصيل في حكاياتها عن الذْكُورَا أشياء تولد فينا الرغبة في التصديق أنها فعلا حقيقية.

«الحاجة عذرا» ابنة الطوارق، جاءت إلى هذه المدينة الساحلية الرطبة ذات صيف، آتية من أقصى الجنوب رفقة خليجي وسيم، حضر وبالصدفة حفلة طلاقها، ونتيجة لعلاقاته القوية بذوي النفوذ في البلد، أسكنها حيا راقيا لا يصل إليه العاديون.

- والله سآخذكن يابنات ذات يوم لزيارة سكني بنادي الصنوبر!..

أخبرتنا أنه بعد أن تم طلاقها من آخر أزواجها، بسبب عدم إنجابها له، شعرت أنه بدأ يتلكأ ويبدي الامتعاض من محنته، فلم تتردد في الانفصال عنه، وتبعا لعادة الطوارق في الاحتفال بالمطلقة، لم تخرج عن العادة العتيقة، فأقامت حفلة جميلة صاخبة، حضرها كبار القوم وصغارهم، ولم تستثن في دعوتها أحدا. وفي الحفلة التاريخية تلك، صادف وجود رجال من بلد خليجي في المنطقة، يقيمون عادة لفترة محددة بغرض ممارسة هواياتهم التي هي صيد الغزلان، والظباء، وحيوانات الصحراء الشاسعة الغنية بكل شيء من ثروات باطنية وظاهرية حية يزخر بها البلد..

وكأنها تلعن وجودهم هناك لا تتردد الحاجة عذرا في تبيان اشمئزازها، فتفضي بأنهم يقومون باستغلال كل شيء دون حرج، وكأنهم في بلدهم، أو أنهم اشتروه بأموالهم الطائلة. ثم أخبرتنا هامسة وكأنها تفضي بشيء خطير:

- إنهم أصدقاء «الحاكم الأوحد» وخيرُهُم سابق عليه، يقال إنهم استقبلوه في ديارهم قبل ركوبه كرسي الرئاسة، واليوم يريد أن يجازيهم ويرد جميلهم بجميل أكبر، فجعل تحت تصرفهم الصحراء والهضاب العليا، ملعبا لهم يحطون بطائراتهم الخاصة، وسياراتهم الرباعية الدفع، الضخمة الفخمة، وأسلحتهم للصيد وصقورهم على أكتافهم.

- لماذا لا يجازيهم من جيبه.. والله العظيم زْمَر..

تصف الحاجة عذرا وهي القديرة على الوصف حفلتها، كانت لا تنسى، ولا مثيل لها بين حفلات الطلاق في تاريخ النساء الطارقيات. فقد نصبت خيمة كبيرة من وبر الجمال الحر، بحضور جميع سكان المنطقة، ولم تتوان عن دعوة هؤلاء الخليجيين، الذين كانوا يجوبون المكان بحرية، بعدما جذبهم صوت الموسيقى والرقص والزغاريد،

جاؤوا لغرض الاكتشاف والتطفل، خاصة وأنهم استغربوا، وتضاحكوا كيف لمطلقة أن تقيم حفلة فرح بطلاقها.

- شلون يصير هاذ. هاهاها..؟

بلغت سمعها تلك الجملة.. تقول الحاجة عذرا وهي رافعة حاجبيها، تدحرج عينيها يمنة ويسرة وعلى وجهها ابتسامة ساهمة، إن فكرة جهنمية جابت ذهنها فجأة، فأقسمت اليمين أن تصيدهم، فكما جاؤوا ليصيدوا، فذنبهم على جنبهم، بدورها سترمي بشباكها الخاصة وليذهب إلى الجحيم مضيفهم، وهم ما هم عليه من الثراء والبذخ الذي ما انفكوا يظهرونه ويتمظهرون به، وكأن بهم ستستسلم لهم الرمال وغزالات الصحراء بكل أنواعها.

- تعالوا سأورّي لكم!

نعم.. حفلة طلاقي لم تشهد مثلها سماء الصحراء من قبل.. كان الغناء يصل عنان السماء المفتوحة على الغيب والغياب، والرقص في أوج جنونه، ورائحة البخور والحناء تتسرب إلى أبعد خلية في أجسام الحاضرين..

حَطِّيْت عيني على واحد منهم.. كان أوسمهم وأجملهم وجها وجسدا، عيني العارفة عرَّتْه في طرفة رمش.. علمت في ما بعد أن أباه تزوج أمه من بلاد تدعى السويد، بعد أن التقى بها في شاطئ مخصص للعراة هناك، فأسقطَتْه من علياء شمسه إلى ثلجها.. ثم تزوجها وأخذها إلى بلده.

- الحق يقال كان آسرا، تتداخل سمرته النحاسية بما يشبه حليب النوق الرائب، وشفتاه تلمعان من بعيد مثل تمرة براقة وسط عرجون معلق في أعالي نخلة.

وتسترسل الحاجة عذرا في ضحكة جهورية، وهي تلوح بذراعيها في الهواء، قبل أن تصفق يدا في يد، بينما جسمها الضخم يموج في مكانه.

بحساسيتها الطارقية العليمة، اختارت «الحاجة عذرا» الوقت المناسب واللحظة القاتلة بعد أن سخن الحفل.

في ذروة لحظاته النارية، ترجلت من جلستها الملوكية، فارتفعت الزغاريد.. وكيف لا.. أليست هي عروس الحفل؟!،

توسطت الجميلة عذرا المحتفى بها الحضور، فوسعوا لها ساحة الرقص، باعدوا بينهم حتى فرغت الحلبة لها وحدها، وانطلقت في رقصة يمامة برية زرقاء، يشع ثوبها الأزرق اللماع كأن المرايا تسكنه، أسقطت منديلها الأسود الفاحم من على شعرها المحنى، اشتدت الموسيقى سرعتُها، فازداد توحشها الجميل.. كانت ترقص بكل شيء يستطيع أن يتحرك في جسمها، من شعرها المحنى، إلى حاجبيها إلى أخمص قدميها.. تدوس الأرض بالكاد.. حتى التراب كأنه استفاق تحت خطواتها، كان يشمها ويتعرف على أجزائه الواقفة منه فيها، يتناثر ويمد ذراته شفاها راغبة في لثمها، متسربا من بين الحُصُرِ والزرابي الحمراء المبسوطة.

كانت ترفرف بأطراف أصابعها في رقصتها الطارقية المدهشة، وكأنها تسبح بحمد خالقها.. ثم اقتربت من صيدها.. اقتربت منه كثيرا.. لم تلمسه، بل أرسلت بحرارة جسمها المتعرق حوله، كانت روائح الحلي من الأحجار العطرية، والعطور القوية الملتصقة بالجسد، تتحلل إلى ذرات تحت حرارة الطقس وطقس الرقص.. تملأ عينيه، وفمه، وخياشيمه، ورئتيه، وبطنه، وكيانه، ولتبلغ حتى أعمق جزء فيه.. لم تلامسه.. إقتربت منه أكثر، ورفعت ذراعيها قريبا جدا منه دون أن

تنظر إليه، ثم أرسلت من بين أهدابها برقا حادا قاصما.

- ضيقتُ أهداب العين مني هكذا.. مثل قوس على السهم، ورميته فأصبته!

دارت حوله مثل زوبعة وكأنها تطوقه بنارها.. كاد أن يغمى عليه.. لم تلامسه أبدا.. اقتربت، حتى خيل له أنهما يتداخلان.. كأنها تسمع تنهده وأنينه.. لم يعد الحاضرون الكثر حاضرين.. غياب هم جميعهم.. لم يعد يرى أحدا غير هذه الطارقية ترقص بحفلة طلاقها.. بدا الغريب الثري القادم من شبه الجزيرة أو الخليج متشنجا، كل ما فيه أضحى مشدودا على آخره.. مد يده المرتجفة دون إرادة منه.. إلا أنها ابتعدت راقصة، ثم جلست بهدوء في مكانها العالي وسط الزغاريد، وقد تأكدت أن المهمة قد انتهت، وأنها أخذت لبه وضعته تحت الوسادة.. هكذا! ثم ألقت إليه نظرة تؤكد انتصارها عليه. كان الوسيم يقف مشدوها مهزوما، وحيدا، مفردا، ذراعاه منسدلتان، وحبات عرق تتمرغ على السمرة النحاسية لجبينه وصدغيه.. شفتاه اللتان تشبهان تمرة يانعة على شفة السقوط، اشتد بريقهما، وكان على وجهه تعبير كمن أضاع للتو شيئا ثمينا كان ملكه قبل لحظات.. مخبئا بين جوانحه كان.

وفي الغد.. وكما كانت تنتظر، بعث الوسيم إليها بمرسول، وبهدايا ثمينة، لكن إجابتها كانت قاطعة.

باب المعسول

كلما مسّ الليل فاكهة صارت عنبا (ربيعة)

مَطَوَّلْ دالليل كي طْوال.. وانا فالبيت غير وحدي،
غزْلي مبني على خبال.. ماصبْت شْلاك كي نْسَدّي.

ضعيف أنا أمام هذه الأغنية لأحمد وهبي.. وكلما هجمت على ذاكرتي على حين غرة، تسكنها، وتظل بها أياما ترن، وتتلوى، ترفعني وتطهرني أنا العاشق المهموم الضائع أنا الوحيد المنتظِرُ..

وحدي في هذا البيت أتقلب على الجمر، أبني سيناريوهات صغيرة مقتضبة حول مجيء عذرا.. أحيانا يبلغ بي الجنون والتلف فأتخيلها تبتسم لي تقترب تلفني حرارتها ثم تحضنني فيغيب رأسي في ردائها الطارقي الواسع السخي، ثم لا أدري كيف تنتهي القصة التي لا اريد لها سوى نهاية مفتوحة على أمل امتلاكها. فأستيقظ على وحدتي وعلى انتظاري عذرا الطارقية، مثلما كان ينتظر الشاعر المتيم مصطفى بن ابراهيم محبوبته زهرة التركية، أليس هذا عزاء جميل لعاشق مثلي؟؟

مطول دالليل كي طوال يا عذرا فيك خاب سعدي

أنا عاشق مسهد، ذو صبابة، قليل الحظ، متعثره. إلا أنني أدرك

جدا تشخيص دائي، ولي معرفة بأنجع دواء لشفائي.. إنه على يديها، يديها المحناتين وحدهما..

نعم أتأكد الآن وكأنني أنظر في عمق مرآة نفسي.. لامهرب ولا مفر.. هي مصدر تعبي، فدون أدنى شك ستكون هي ينبوع راحتي التي فقدتها منذ أن رأيتها. منذ أن سكن أحشائي هذا الشعور الغريب المزيج من الضياع والحزن والبهجة والانتصار والانكسار.. إحساسك وكأنك كرة خيط ملونة يلهو بها قط صغير.. أو كأنك تحرك حبل أعصابك لتقفز عليه معشوقتك اللاهية، متوجعا متلذذا، ترسم على وجهك ابتسامة يانعة، فلا تعلم هل عليك أن ترفع أعلام انتصارك، أم تواسي جيشك الجرارالمنكسر.. فسحقا للحب.. كم هو معقد وكم هو متعب!

مطول دالليل كي طوال ماصبْت شلاك كي نسَدّي

ولكن لماذا لا تلتفت إلي.. أإلى هذا الحد أنا مخلوق صغير مجهري بالنسبة لها.. ألا تراني؟

كل النساء اللواتي مررت بهن، وعرفتهن، صرحن أو لمحن أنني رجل جذاب واعترفن بوسامتي ودماثتي ووصل بإحداهن أن باحت واعترفت بـ «شوفة» عيني التي تفتت الحجر... ووو.

لكن هذه الـ «عذرا» لا تراني.. يبدو أنها لا تحسب لي حسابا، تمر دون حتى أن تقع عيناها علي، وكأنني أضع طاقية إخفاء.. أإلى هذا الحد تتمادى الطارقيات في شموخهن.. على أية حال ومهما كان فإن شيئا عميقا بداخلي يجعلني شبه متأكد أنها تدري ما بي، وتدرك ناري وانصهاري وجنوني وضعفي الذي يعثِّرُخطوي، ويلعثم لساني كلما قدمت لتتفقد فيللتها.. ليس من به مثلها يقظة يفوته هذا الزلزال الذي يحدث كلما مرت.

لـم ألتـق فـي حياتي امرأة مثل الحاجـة عذرا هذه.. ليتني التقيت بها قبل سنوات خلت، إلا أن الرياح عادة تجري بما لا تشتهي السفن ولا القوارب، وسفني دائماً غارقة والحمد لله.

ليتهـا توسـطت طريقـي قبلا، فلربما كانـت غيرت قدري وحياتي الفارغة الجرداء إلا من الشوك -أرضي، والشوك- فضائي. حياتي التي توزعتهـا مقاعـد الجامعات والمكتبات، ثـم المقاهي الرخيصة وغيرها من الزوايا المشبوهة وغير المشبوهة..

ثم جدران الشوارع.. الحيطان.. الحيطان.. الحيطان.. أستند إليها أرى الحيـاة تمـر أمامـي هائجـة مائجة، تعج بسـيارات الأغنياء الجدد الفخمة، يخرجون مرافقهم من النافذة ويضعون سـماعات التلفون في آذانهم ويفتحون سـقوف سـياراتهم الباذخة وينظرون من عل إلى بقية المارة والمركبات البسيطة، وكأن وجودهم زائد يعيق الحركة. بصري، أنهـره فـلا يسـمعني، ودون إذن منـي أراه ينزلق مثل كلب اليف خلف النساء الجميلات، يمررن علي فأسرق بعض التفاصيل المبهرة أستانس بها وأخبؤها لليل البهيم الموحش الذي ينتظرني.. ليلي الحزين الذي يبحث عادة في جيبه عن قطعة نهار ليمسح بها دموعه.. هي تفاصيل أملأ فراغها وتملأ فراغي.

- أنـا مفتـون بهـا ياديـن الزعـاف.. ولا تشـبه فتنتـي بهـا ما كان يحدث لي من قبل.

حين أعود بذاكرتي يهولني عدد النساء اللواتي أثثن قدري.. بعد أن ذقـت أول انكسـار مهـول، تعلمـت مـن خلاله أن لا شـيء سـهل، وقطعت من خلاله حبل سرتي مع الرومانسية ومآربها.

ليس ذنبي.. كنت أتمنى أن أتزوج «لطيفَة» حبي الأول الذي فتح علي جنون عشقها نيرانه، بينما أنا على أبواب تخرجي من الجامعة..

نعم كنت رومانسيا غريرا.. لفظتني أبواب الجامعة فواجهتني أبواب الحياة المغلقة، فلا عمل ولا سكن ولا قدرة على زواج ولا أمل..

كانت لطيفة بيضاء ممتلئة شهية وخجولة، وكثيرة التشكي، وتحلم بحياة مترفة. كانت متشبعة الخيال بصور شخصيات المسلسلات العربية وعلى الرغم من أنها كانت تشبهني لمطربها المفضل راغب علامة إلا أن خيبتي كانت كبيرة حين خطبها رجل ثري أكبر منها بعشريتين، فلم تتردد في ترك الجامعة والقبول به خوفا من العنوسة التي تسحب ظلها بمرارة على بيتهم، بحيث تجاوزت أختاها الأكبر منها سن الزواج..

كان حظي أغبرا، لم تتحمل لطيفة حتى عناء اللقاء بي ولو للمرة الأخيرة عند صديقتها كما كانت تفعل لتخبرني بالأمر.. فجأة لم أعد أرها، بدأت تعتذرعن اللقاء ثم تتلكأ ثم لم تعد ترد، حتى علمت من صديقتها الخبراليقين، وذات يوم عمت الزغاريد والطبول في العمارة التي تسكن بها، كانوا يزفون لطيفة إلى الثري المحظوظ، لم أتحمل المهزلة آنئذ، ذهبت لأزف نفسي وحزني تلك الليلة إلى «حانة الوفاء»، وسكرت لأول مرة، وصرخت في الحانة كثيرا حتى ابتلت أثوابي. ولعنت النساء جميعا، ووجميع من يثق فيهن، وانهمرت السباب من فمي عليهن جميعا. نعتهن بالخيانة وقلة العقل والغدر، وأقذر الصفات. كانت حانة الوفاء غاصة بالرواد يوم عطلة آخر الأسبوع، إلا أن أحدا لم يلتفت إلي، تركوني أهذي وأرغي وأزبد. كنت أمر على جميع الطاولات متمايلا وأضرب عليها بقبضتي حتى تتراقص الكؤوس وتتساقط الزجاجات الفارغة. حز في نفسي أن يكونوا غافلين عني وعن همي. من حين لآخر يلقي رواد الحانة نظرة إلي، ثم لايلبثون أن ينسوني في هياجي، يلتفتون إلي من لحظة إلى أخرى

وكأنهم يطمئنون أنني ما زلت على قيد الحياة وعلى قيد الصراخ، ثم يعودون إلى انشغالهم بلعبة الورق، وآخرون في حوارات يغطي عليها صوت أغاني الشيخة الرميتي الذي لا ينقطع.

حين كدت أن أمزق حبالي الصوتية، اقترب مني رجل مسن، يضع قبعة مكسيكية، وقد تسللت خصلات هزيلة من شعره الأبيض الطويلة تطل من تحتها تنسدل على كتفيه وكأنه من بقايا الهنود الحمر الذين لم تفلح فيه آلة التطهير الأمريكية فنفذ منها بأعجوبة..

كان يجلس وحده خلف طاولة صغيرة منعزلة، لعله صاحب الحانة، أو أقدم رائد لها، كأنما رق لحالي، كنت أراه يتهادى، أو ربما أنا الذي كنت أشارف على السقوط.

ربت على كتفي ثم أجلسني بهدوء في مكاني وأنا لا أزال أرغي.

جلس أمامي، كان يبدو لي اثنين أو ثلاثة أو جماعة ثم لايلبث أن يصير واحدا مفردا، ثم أراه جماعة وهكذا، مثل مروحة تفتح وتغلق.. لا أعلم كيف انتبهت فجأة في لحظة صفاء عابرة لم تدم طويلا، ولا أعرف كيف تغلغلت جملته في ذاكرة رأسي المدوخة:

- اقعد اقعد يا صاحبي.. دَرْكْ تَكبَرْ وتنساها.. وَجَّدْ روحك للي جاي.. راه صعيب وواعر.

لست أدري كيف أفرغت ما في عيني من دموع ومافي صدري من نشيج كما أفرغت ما في معدتي. طلب لي فنجان قهوة ثقيلة، ثم جلس يقص حكايات غدر النساء له، وخياناتهن وغرائب وقعت له. لست أذكر منها شيئا سوى يديه تديران القبعة على الطاولة، وعينيه اللتين كانتا تفيضان من حين لآخر.

اللعنة على بنات حواء ما أقساهن وأظلمهن..

توالت النساء في حياتي وكلي حذر وتوجس.. لم أربط علاقة أطول من زمن سريرين على الأكثر.. ولم أثق في وعد، ولم آخذ جدهن ولا هزلهن محمل الجد.. إلى أن وقعتُ هذه الواقعة.

الآن يا الرب العالي تغير الأمر.. كنت مريّح والله.. أستغفرك ياربي ولكن لماذا أرسلتها في سبيلي؟؟ أو على الأقل خليها تعرف ما يحدث لي.

نعم نعم متأكد أنا أنها تعرف.. نظرتها تلك من تحت رموشها الطويلة مثل نمرة متوثبة خلف قضبان. تدفع الأرض بقوة قوائمها الأربع.. بارزة المخالب.. جاهزة للانقضاض.. لا.. أنا متأكد أنها لا تخطىء.. نعم هي الطارقية بدمائها الحارة قادرة أن تلتقط حركة مثل البرق، لحرباء تقفز فجأة لتختبئ في الرمل.. الشمس القريبة التي تربّت تحتها، أضاءت بما يكفي نباهتها لتدرك مالا تدركه الأخريات..

من البله أن لا تدرك جنوني بها.. ربما هي تحاول تجاهلي لسبب ما أو لغاية في نفسها.. ثم كم أتوق لمعرفة كيف ستبدو لها فكرة اهتمامي بها.. كيف ستستقبلها.. هل ستفرح، أم سيستولي عليها الخوف والارتباك، أم يا ترى سوف لن يتحرك شيء فيها وتعتبر الأمر وكأنه لم يحدث.

كم سيكون ذلك مؤلما لي، أنا الذي أقضي من الليالي الصعبة الموحشة التي ليست كليالي الناس.. موحشة وسوداء ورطبة.. وحيدا إلا من قرد الرغبة، يستيقظ بي هذا اللئيم، لا يظهر لي إلا ليلا. وحش برأسين أطلقت عليه اسم كوكو، لا هم له سوى أن يسخر مني، أصبحت أحسب لوجوده الحساب العسير بحيث أراقب كل حركاتي وسكناتي، فكلما اقتربت يدي من حجري أحولها بسرعة نحو صدغي وأغير بذلك المكان الذي بي رغبة لحكه.

أحرك ذراعي في الهواء بعصبية لأطرده، إلا أنه يتبعني ويظل يصيح باسمي:

- مسعود يا مسعود.

يضايقني ويطاردني، ولكنني لا أسكت له، أرد عليه أحيانا وأعيره وأذكره أنه ليس أحسن حظا مني بشكله الغريب، وكأنه نتاج تزاوج قردة ببغاء، إنه يتعبني بتهكمه اللئيم، يرقص حولي ببلادة ويوقف شعر رأسي إلى الأعلى وحيثما استدرت يخرج لسانه الأسود الغريب في وجهي هازئا مني وهو يكرر بصوت مقعر زاعقا:

- عذرة العذارى ومسعود يا خسارة..

يقولها فترددها أصداء أركان الفيللا، وحين يتأكد أن أعصابي قد خارت وأنه أغاظني بشدة حين أقوم غاضبا مهددا لأتمكن من أي شيء أهش به عليه، يهرب مرددا:

- عذرة العذارى ومسعود يا خسارة..

ثم يختفي مختبئا لست أدري بأية زاوية من زوايا الفيللا الموحشة الفارغة..

الحقيقة أنني أستأنس بوجود «كوكو»، أنا الذي خلقته، وربيته وأصخت له السمع كي يكسر جليد الوحدة، وطوق الغربة الحديدي. أشعر بالمكان فارغا موحشا. نعم سيضحى موحشا لولا كوكو قرد الرغبة.. إنه بألعابه الصبيانية تلك ومحاولته إثارة غضبي وإزعاجي ودورانه حولي زاعقا كالعادة بصوته البشع، يخفف عني الشعور بالوحدة والعزلة القاتلة واللاجدوى.

- عذرة العذارى ومسعود يا خسارة..

- عندك الحق يا كوكو..

صعب أن تشعر بأنك لا فائدة منك ترجى.. قد تسوقك الحالة

نحو حبل معلق في سقف غرفة ومقعد هش القوائم يقبع تحته.. قد تنظر إليهما من تحت إلى فوق وتقول إن الفكرة ليست سيئة تماماً.

- آآآآه ه ه.. يكثر خيرك يا كوكو<

من رماني إلى العالم الموازي بهذه الفيلا التي تبدو لي أكثر وحشة كل يوم، على الرغم مما بها من أثاث فاخر، علمت أنه من لدن الدولة الكريمة، ملأت كل البنايات الفاخرة هنا بهذا الأثاث، مثل ما فعلت على ما يبدو مع جميع الفيلات الجاهزة الأنيقة المترامية على أطراف شجر الصنوبر وعلى الشاطئ المحروس، لا يدخله من هب ودب من الشعب. قطعة من الخيال، فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا لسان ذاق. جنة نادي الصنوبر بعيدة عن ضجيج العاصمة وهوائها الملوث، تسكن بها وتأويها الناس «اللي تستاهل»، الشخصيات السياسية والهامة والمحظوظة والمقربة والـ..، كي تستريح وتسكن إلى الهدوء ولذة البذخ، وتنام وتحلم في منأى عن الدهماء والغاشي. وإلا كيف يمكنها أن تحكم وأن تنجز الأعمال التاريخية والمشاريع الكبرى الخالدة. كيف لها أن تفكر في هدوء وسكينة كيف تضمن مستقبل الأجيال والبلاد والعباد، وتكتب تاريخ المجد الذي يليق بها بأحرف من نور ونار وزبرجد، من ذهب وفضة..

السياسة والحكم والتفكير أمور يحسبونها سهلة وماهي بسهلة. فلا بد أن يكافأ عليها من يمارسها.

ثم إنها تتطلب الهدوء المطلق، كي ينطلق المخ الكبير، نعم المخ الكبير الذي يستخدم كل خلاياه، وليس مثل هؤلاء العاديين الذين لا يستخدمون سوى ملغرامات من أدمغتهم طول حياتهم ثم يردونها إلى خالقها بعد موتهم معلبة كما استلموها منه، لم يمسسها فكر. إنهم لا

يفكرون سوى في الدقيق والزيت والسكر. شتان بينهم وبين الدماغ العملاق الذي يتدبر شؤون السيادة، وينتج الأفكار الكبيرة، ويصنع المعجزات، ويقف بالمرصاد والتحدي لكل اعتداء داخلي، أو خطر خارجي.. يحسبون الأمر سهلا وما هو بسهل. الحكم ليس لعباً إنه تعب، إنه تكليف وليس تشريفاً.. الحاكم مسكين متعب وقلق أطراف النهار وآناء الليل، يحمل على اكتافه صخرة سيزيف، وصخرة سيزيف هذه ليست سوى الشعب وهمومه وتطلعاته المستقبلية الباهرة في الكرامة والمجد والرخاء والوحدة والعدالة والتنمية، والتربية والعلم والصحة والسياحة والدين والمعرفة. إلى آخره وإلى آخره..

أليس من حقهم بعد هذا كله أن يأخذوا حقهم من الراحة، تعبهم ليس من أجل أنفسهم، ليس من أجل مصلحتهم الخاصة، بل من أجل الشعب النائم في العسل.. إنه نكران الذات.. ويا له من نكران الذات.

- اسكت يا مسعود.. يكفي يكفي.

كل هذا فهمناه يا كوكو، فنحن نستمع إليه على رأس كل ساعة في الإذاعات، ونشاهده كل نشرة أخبار على الشاشات الرسمية ولقد اقتنعنا.. نعم اقتنعنا وآمنا.

- صابي اقتنعنا إنهم يجهدون أنفسهم من أجل الصالح العام... ولكنني حرت جوابا على سؤال يؤرقني.. آه يا كوكو سؤال واحد يؤرقني!!

- والحاجة عذرا واش جابها لهنا وواش دخلها؟؟

- عذرة العذارى ومسعود يا خسارة..

قالها ساخرا ثم اختفى هاربا قبل أن ألحق به مهددا متوعدا.

أنا رجل مؤدب، أعرف الأصول وأعرف ما يجب وما لا يجب،

وأعترف أنه لولا الحاجة عذرا التي وظفتني حارسا لفيلّتها هذه، لما وجدت عملا آخر، ولمكثت في مدينتي أسند الحيطان.. أليس من حسن حظي أن أحرس فيللا الحاجة عذرا على أن أحرس الشارع بلا مقابل..

نعم رغبتي المجنونة أن أمتلكها أن أحبها لم تؤثر قيد أنملة في احترامي لها، إلى درجة أنني، حين جاءت في المرة الأخيرة رفقة ثلاث فتيات، ارتبكت لرؤيتها على الرغم من أنها أخبرتني مسبقا بموعد مجيئها، قصد أن أرتب كل شيء وأطمئن إلى أن الفيللا لا تتطلب مرور الخادمة للتنظيف مرة أخرى.

كانت عذرا تتقدمهن عند الوصول. واحدة من الفتيات الثلاث لم تحد بنظرها عني، وكأنها قد أدركت فتنتي واكتشفت ما بي واخترقت صندوق سري..

وما كادت تعبر الحاجة عذرا من الباب الكبير، حتى شعرتُ بتلاكم الكلمات على طرف لساني، ولمحت كوكو ينثني من الضحك وهو ينظر إليّ شامتا يومئ وبلا صوت:

- عذرة العذارى ومسعود ياخسارة.

كلما مرت بي داخلة أو خارجة من باب فيللتها، أنحني لها وأبتسم بقلق، لا أترك كلاما طيبا إلا وسبقت نفسي به إليها.. أسمعها الكلام المنتقى باحترام، المنمق الذي أرتبه مسبقا في سري جملة جملة، ووقعا وقعا.

حالما تختفي الحاجة عذرا عن عيني، أعض على يدي ندما. وقد تنبهت إلى أنني أسبقت جملة على أخرى، وأنني نسيت واحدة ربما كانت أهمها جميعا. لكنها تمر بسرعة دون التفاتة وكأنني فزاعة

جميلة من تبن.

مـرات أخلـو إلـى نفسـي وأنا مسـتلق على فراشـي، وقد طردت كوكـو وأغلقـت البـاب، أكاد أرجـع إلى رشـدي وأوبخ نفسـي بكلام قاس حزين:

- أنت عساس يا مسعود ولازم تبقى عساس.

كيـف لهـا أن تنظـر أو تنتبـه إليك، وتشـعر بحالـك، وتفكر فيك وأنـت الحـارس المسـكين لفيلتها بنادي الصنوبـر، وما أدراك ما نادي الصنوبر.

أجلس منتحيا عند المدخل، أرقب ضيوفها بعين مليئة بالأسـئلة المحيـرة والغيـرة وشـيء مـن الحسـد، وهي التي تسـتقبل كبـار القوم وأشدهم بأسا وغنى وسلطة وجاها..

تمنيـت ولـو مـرة وأنا ألمحهم من النوافذ مرتاحين على الأرائك الجلدية البنية حول مائدة الزجاج المستديرة الغارقة قوائمها في صوف البسـاط، أن أجلس إليهم أسـمع حواراتهم وهم يلوحون بأيديهم في الهـواء، وسـأحاول أن أضحـك كمـا يضحكـون وعلى مـا يضحكون، وأناقـش فـي ما يناقشـون. سيسـتفيدون منـي حتما.. أنا أيضـاً لدي ما أقوله، ولي آراء قد يستفيدون منها في فهم الأمة وكشف المستور من غمة الشـعب المقهور. ألسـت رجلا متعلما ولدي شـهادات عليا، ثم إنني أستطيع أن أتحدث في الأدب والتاريخ كما يجب على متخصص مثلـي قضـى عمـره على مقاعد الدراسـة حتى طابـت مؤخرته وأصابه الإمسـاك المزمن، ثم لم يرحم نفسـه بل زادتها ألما مقاعد المكتبات وقاعات البحث سنوات أخرى بعد التخرج إلى أن سئم ومل.

لا ألبث أن أستغفر الله وأرجع إلى رشدي وأتمتم:

- عليك يا مسعود أن تعرف قدرك.. رحم الله امرءا عرف قدره.

ثم هل يهمهم فعلا الحديث عن التاريخ والأدب.؟

والله لا أظن ذلك.. فأنا أراهم ليلا من مكاني في الحديقة، يجلسون في الصالة المضاءة، المفتوحة نوافذها، يقهقهون بأريحية مطلقة وكأنهم يتبادلون النكت، أما تاريخنا الذي أعرف، فلا يبدو عليه الهزء، إنه جاد ومليء بأشياء غاية في الحكمة وفي الحزن والألم.. ثم مالهم ومال الهم والغم والصداع.. بلّع فمك يا مسعود؟

- لن يصغي إليك أحد يا مسعود لن يصغي إليك أحد، زعق كوكو ساخرا.

أستدير متوجها حيث السيارات الفخمة الرابضة، أقيم الحراسة، أتأمل فخامتها وأناقتها واحدة واحدة، بينما تصلني أصوات الساهرين السعداء من أهل جنة الصنوبر، ضحكات وقهقهات تخترق شرفات المطاعم الراقية والفنادق الفخمة، والبنايات ذات الطابع الفرنسي الكلاسيكي الأنيقة، أصوات فيها رنة سعادة تميزها دون خطإ أو تردد، أصوات تشبه رنة اصطدام أساور الذهب، أصوات تسكن أعماقها اللامبالاة بكل شيء سوى البحث عن ما يسلي، أصوات تخرج من صدور مطمئنة محروسة بالعسس، مسيجة بالأسوار العالية، صدور لا غم ولا هم ولا كدر يعكر صفوها، ولا شيء يذكرها بما خلف أسوار هذه المدينة المحروسة داخل "المحروسة" الكبيرة المليئة بالأسى والأحلام المنتكسة والتذمر.

أطرد الفكرة الشيطانية يعذبني إصرارها، تراودني حتى أكاد أقتنع أن من حقي، بل إنني أولى من هؤلاء بالجلوس إلى الحاجة عذرا، والنظر إلى وجهها وربما أخذت يدها بين يدي وأحدثها عن أشياء كثيرة، وأحس مسبقا أنها ستفهمني وسيدور بيننا حديث دافئ النبرة له معنى.

لا ألبث أن أفتح كوة أمل أمامي، كي لا أفقد صبري وإصراري في مواجهة قدري حتى منتهاه. وأتمتم لكوكو الذي حط هذه المرة على كتفي ربما إشفاقا علي:

- اطمئن يا كوكو، مكانتي مهمة عندها وإلا لما أتت بي هنا إلى هذا العالم الوهمي العجيب، ألا ترى انها اختارتني دون غيري من بين الكثيرين الذين تسحقهم البطالة.. واتمنتني على أملاكها وحدي دون شريك لي، أنا مسعود خريج الجامعة بشهادة عليا في الأدب العربي وآلاف مثلي يجوبون سنوات الفراغ.

أنت لا تدري ياكوكو ما الصدمة وما ارتداداتها حين تعود بخفي حنين، تلفظك أحشاء إدارة، كنت تأمل أن تجد فيها مبتغاك، وظيفة ولو صغيرة تحفظ بها وفيها ماء وجهك أمام أختك وأمك ومعارفك.

بقيت دهرا أبحث عن عمل، كنت أطمح في أول الأمر الحصول على كرسي أستاذ مساعد في الجامعة، وبعد تبخر الأمل وطول الانتظار والبحث، أضحيت طامعا في أي عمل مهما كان، فكاد يصيبني الجنون، فلم أترك مكانا لم أبحث فيه عن عمل، وجربت حظي التعس حتى في مطاعم السمك الشعبية الممتدة على «شاطئ بوسفر» وشواطئ الأندلسيات على الشريط المتوسط، عارضا عليهم خدمتي كنادل آو غاسل صحون وكانت جميع محاولاتي يائسة دون جدوى إلى أن ساقني حظي الذي أضاء فجأة بهذا العمل.

تدفع لي الحاجة عذرا كل شهر ما يكفي لعيش كريم، أبعث منه قسطا لأمي وأختي.

الحاجة عذرا كريمة كرم أهل الصحراء.. انتشلتني من فراغ رهيب قاتل تتوالى الأيام فيه دون طعم ولا حدث ولا لون ولا رائحة، أجوب الشوارع وأتفادى العودة إلى البيت، كي لا أزعج بحضوري الذكوري

الثقيل ضيفات أمي وأختي اللواتي حالما أطرق الباب حتى تنخفض أصواتهن العالية ذات النبرة الشاكية الباكية، إلا أنها أحاديث تبدو ممتعة لهن. أدخل وأنا أدرك بعمق أنهن يستثقلن وجودي في شقتنا الصغيرة الضيقة التي ندفع كراءها منذ الاستقلال. المالك الشرعي لها هو القاضي قدور، يملك العمارة كلها من خمسة طوابق، اشتراها بثمن رمزي زهيد من صاحبتها «مادام كاترين» الفرنسية، التي كانت معروفة بمواقفها الانسانية والثورية المشرفة، عرفت بوقوفها إلى جانب الحركة الوطنية والدعوة إلى الجزائر المستقلة، إلا أن الأحداث الدموية في الأيام الأولى من الاستقلال جعلتها تضطر إلى المغادرة السريعة.

لا تمل أمي من التذكير بأن «مدام كاترين» التي ولدت بالحي نفسه، كانت تساند ثورة التحرير، وتؤمن بالجزائر المستقلة، وتعتبر نفسها جزائرية. كانت تعامل سكان العمارة بطريقة فيها الكثير من العائلية والإنسانية، ترفض مثلا أن تستلم الأجرة من أسرة إذا ما مرض عائلها، فلم تكن مثلا تأخذ أجرة البيت من أبي حين يكون مريضا، وتعفي منها من يولد له طفل، أو يستجد حدث ما في أسرته، مع العلم أن ثمن الإيجار كان زهيدا جداً..

لا تخفي أمي كراهيتها واشمئزازها من تصرف مالك العمارة الجديد القاضي قدور.

- الجيعان والى فاق.. يصيب روحو في الزقاق! تقول أمي.

بعد مدة قصيرة من مغادرة مدام كاترين، جمع المالك الجديد سكان العمارة:

- اللي ما يقدرش يدفع.. يحط المفتاح ويروح فحالو يدوّر على سُكنى بعيدة.

سنوات عديدة مرت كنت أكبر، وكان الحقد يكبر بين جوانحي،

ويتخثر تجاه هذا الرجل الذي طالما أبكى أمي. سمعت أبي وأنا صغير، بعد أن أرسل إلينا المالك القاضي قدور، صاحب العمارة إنذارا بالطرد إن نحن لم نذعن لأمر الزيادة في الكراء، كل ذلك على أوراق رسمية فخمة عليها أختام حمراء كثيرة، يبدو أنها من المحكمة التي هو فيها أو على رأسها.. كانت الأوراق ترتعد بين يدي والدي الغاضب الشاعر بالغبن والظلم:

- هذا الحمار شهاداته الجامعية مزورة.. ثم إنه إذا زاد في غيه فوالله سأوليها فوق رأسه لواحد، عندو النجوم فوق الكتاف والشلاغم فوق الشفاف... نتغذى بيه قبل ما يتعشى بيا..

ضحكت أمي من خلال دموعها، كان أبي يتفصد عرقا من الغضب، وعلمت من تفسير أمي أنه كان يقصد لو أن المالك المتجبر يضطرنا للرحيل، فإنه قبل أن يطردنا من الشقة، فإن أبي يهدد بتسليم مفاتيحها لأحد الجنرالات دون تمييز، سيكون أقوى منه، ليطأ ببوطه فوق ورقة القانون التي يلعبها، ويلوح بها في وجوه سكان العمارة، الذين لا حول لهم ولا قوة.. وإذا ما استلم أي الجنرال الشقة فلن يستطيع القاضي فعل أي شيء سوى أن يغني طويلا أو ينوح، ولن يقبض سوى الريح، وعليه فإن القضاء الذي يدير عجلته لإذلال من لا قوة لهم، سيدور عليه، سيدوره الجنرال حول عنقه مثل حبل من مسد وإلى الجحيم أيها العدل.. لكن أبي لم يفعل شيئا، مات مبكرا بسكتة قلبية.. تقول أمي إن الحاجة والظلم تغلبا على قلبه الرقيق المسكين.

كبرت في هذا الجو المشحون، ولم يتغير سلوك صاحب العمارة القاضي قدور، وكلما أرسل لنا رسالة تهديد أوإنذار بقطع الماء، تهرع أمي المسكينة للتوسط بإحدى قريباته..

خلال عدة سنوات طرد القاضي أغلب جيراننا من السكان

القدامى، الذين أعرفهم منذ ولدت، كانوا في العمارة من زمن مدام كاترين مالكتها الفرنسية.. كنت أتألم وأنا أشاهد أمي باكية تودع جارتها القسنطينية لالة «ملّوكة»، التي كانت قريبة منها جداً، ثم جارتها لالة «خوخة» القبائلية.. ودعتهن واحدة واحدة، ولكن العجوز يمة زهرة التي كان باب شقتها يقابل باب شقتنا مباشرة، هي من تركت جرحها غائرا ما زال لحد الآن يوجعني كلما حركته..

كم تعلقت بـ «يمة زهور» هكذا كنت أناديها، حتى ظننتها جدتي أو فردا من أفراد عائلتي. لا شيء يثنيها حين أرغب أن تأخذني إلى الحديقة العمومية، وتتجول بي على جبهة البحر في المساء. كل الأطفال الذين في سني آنذاك كانوا يحبونها حبا جما وينادونها جميعا بـ «يمّة زهور».

نزحت يمة زهور أثناء الثورة إلى المدينة بعد أن فقدت أحبتها وما لها، أرضها وبيتها وبقراتها، تعيش وحيدة بعد أن استشهد زوجها وولداها في حرب التحرير. منذ الاستقلال تعيش بمنحة زوجة الشهيد البسيطة لا تصلها بشكل منتظم، إلا أن يمة زهور لا تشتكي أبدا صبورة كما يليق بامرأة حكيمة مثلها..

ذاك الصباح، استفقت على صوت أمي الباكي وهي تنظر من النافذة، وتردد:

- ولد الحرام ولد الحرام.

من عادة صاحب العمارة القاضي قدور أن يأتي كل جمعة، وأيام العطل والأعياد، يقف نافخا صدره في الطرف المقابل من الرصيف، يتأمل عمارته الشاهقة، يأتي وكأنه يذكرنا نحن سكانها أنه سيدنا، وولي نعمة سكننا، وأنه لولاه لبتنا في الشارع، وأنه القادر أن يفعل بنا ما يشاء. يتخيل لي أننا نبدو له مثل فئران تغزو عمارته، وأنه ينظر إلينا

باشمئزاز..

اليوم ليس جمعة ولا يوم عيد ولا عطلة.. غريب.. لماذا جاء.. ليس من عادته.. والأغرب من ذلك أن أشخاصا غريبين يرافقونه، ويبدو أنهم من المحكمة أيضاً، ويوجد أربعة رجال أمن حوله ببذلهم الزرقاء الأنيقة، وبينما كان يحدثهم باسما وهو يمدد عنقه إلى أعلى وعلامات الانتصار بادية على وجهه، كان هناك رجال منهمكون في إخراج حاجيات يّمة زهور، الغائبة عن شقتها ذاك اليوم.

بعد أن فتحوها بالقوة، بكسر القفل تحت نظر السيد اللوسي (المحضر القضائي). أخرجوا حوائج يمة زهور القديمة وأوانيها وأشياءها العزيزة عليها، على الرغم أنها ليست ذات بال ولا ثمن. لم أكن أتخيل أن توضع تلك الحوائج خارج مكانها، لا معنى لها خارج مكانها الذي أراها فيه منذ ولدت، كنت أظن أنها جزء من مكانها ومكانها جزء لا يتفرق عنها.

كانوا شدادا يضعون كل ما يحملونه أو يجرجرونه من حوائج يمة زهور على قارعة الطريق.

بعد أن أفرغوا الشقة من آخر ملعقة بها، وضعوا حذاءها القديم، فوق الكومة التي بدت رثة، ذاك الحذاء الذي كانت تنتعله بدل حذاء الخارج حالما تدخل شقتها، كي تظل الأرضية نظيفة.

أحكموا إغلاق باب الشقة بسلسلة حديدية أحدث صداها قرقعة مزعجة في العمارة، سلسلة ضخمة عليها أقفال، حركوا السلسلة بقوة ليتأكدوا أنها لا تلين أبدا، نظروا إليها وكأنهم يتأكدون من إتقان عملهم ثم مدوا أيديهم لبعضهم مصافحين، وقد بدا على الجميع الراحة من إتقان مهمتهم، قبل أن يركب القاضي ومن معه سياراتهم، ويصفقوا أبوابها بقوة عجيبة، أرهبت قلبي الصغير، ثم غابوا.. غابوا عن الأعين.

يبدو أننا أنا وأمي، لم نكن وحدنا نتابع ما يحدث من شقتنا من ثقوب المفاتيح والانفراجات بين لوحات خشب النوافذ، بقية السكان لم يكونوا غافلين وغير مكترثين لما يحدث، أيقنت أنهم مثلنا، مافتئوا كبارا وصغارا يتتبعون ما يجري بمنتهى الاهتمام وربما الخوف والفزع، ولكن اليقين بالمزيد من الكراهية.. فكيف يمكنك أن تحب من تخاف منه.

حالما هدأ الزقاق، خرجت برفقة أمي، واندفع بقية الجيران من خلف مخابئهم وأماكنهم الاستراتيجية لمتابعة ماحدث.. تجمعنا نحن الأولاد على صمت وقلق، كانت أسئلة منغصة بقلوبنا ينعكس ظلها في عيوننا الحزينة المندهشة عما يفعله الكبار ويقدمون عليه، من أشياء غريبة وقاسية. أحطنا عن قرب بكومة حاجيات يمة زهور، استغربت: كيف تمكنوا أن يلموا كل بيتها في هذه الكومة الصغيرة، وأنا الذي كنت أحسب أن يمة زهور أهم إنسان أعرفه، ليس في العمارة فحسب، بل في الزقاق كله، في المدينة كلها، بل في عالمي بأسره. يمة زهور التي يحترمها الجميع، كبارا وصغارا يقدرونها إلى درجة التقديس، هي الحكيمة التي تصالح بين الجيران بهدوء وتنصحهم وتسعى دائماً في الخير ولا يقع كلامها الأرض كما تقول أمي.

لم ترجع يمة زهور إلا عند المساء..

وبينما هي تقترب من الباب الخارجي للعمارة، تعرفت على أشيائها، وكأنها أدركت بسرعة ما حدث.. وقفت يمة زهور صامتة لحظة، بينما كنت مختبئا أبكي بصوت مخنوق، اقترب منها الجميع بلا قوة ولا حول، لم يجدوا ما يقولونه لمواساتها:

- الله ياخذ الحق يا يمة زهور!

- الله يجيبها لو يا يمة زهور!

- الله يكون في عونك وعونا منو!

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

اجتمع السكان حول يمة زهور التي لم ترمش لها عين، ولم تنبس ببنت شفة، ولم تحرك عضوا من جسدها الهرم النحيف المتعب المتهالك.

كانت أمي أولى المستقبلات لها، متحشرجة النفَس متقطعته، دامعة العينين، دموع العاجز أمام قدر الأقوى وقوته وجبروته. حضنتها بقوة ودعتها للدخول عندنا، لكن يمة زهور فكت الأذرع المحيطة بعناقها بصمت، وهي لا تزال تنظر إلى كومة حوائجها، ثم أخرجت مفتاح الشقة بهدوء من كمها، ووضعته فوق الكومة الرثة المائلة مثل قبر جندي مجهول، فوق حذائها القديم النظيف.

لم أر دموعا في عيني يمة زهور، لكنهما كانتا تبرقان مثل نجمتين بعيدتين في الظلام، خرج صوتها متهدجا بحسرة.

و دون ذل رفعت رأسها نحو السماء ثم قالت بثبات وكأنها تتوجه بالخطاب لأشخاص معينين.. كأنها كانت تحدث زوجها وابنيها الشهداء:

- شوفتو يا الشهداء واش راه يصرا؟.. إيوا نقول كم السماح وما تلومونيش.. وتحيا الجزاير.

رفضت يمة زهور اقتراح الجيران وإصراركل واحد لإيوائها في شقته، اعتذرت بشموخ ثم عانقت جاراتها واحدة واحدة مودعة بحرارة وصمت ملغوم، وقبلتنا نحن الأولاد، وحين اقتربت مني مسحت على رأسي وضمتني إلى حضنها الدافئ كالعادة، فسمعت لأول مرة دقات قلبها النافرة وكأنها طبول قوية، حتى تخيل لي أن الناس جميعهم

يسمعونها مثلي، قبلتني على جبيني ثم قالت لي:

- ان شاء الله يا مسعود وليدي تقرا مليح، وتكبر وتولي قاضي انتاع الصح.. قاضي نتاع العدل..

ابتعدت يمة زهور في هدوء جهة جبهة البحر.. كدت أن ألتحق بها أن أتشبث كالعادة بأطراف ثوبها.. لكن كل شيء تجمد حولي لم أعد أسمع شيئا، فراغ رهيب في رأسي الصغير، وكأنني اصبت لحظتها بالصمم.

توجهت نحو جبهة البحر التي تحبها، ولطالما أخذتني في نزهات تحت نخيلها الذي يطل على البحر من أعالي قاماته الممتدة في الهواء، نسير وسط الناس والعشاق وبائعي الورد والفواكه المجففة والمشروبات الباردة والساخنة.. نتمشى بين الناس وكأن الجميع يبحث عن شيء، يتمشى الناس على طول الجبهة وممراتها ذهابا وإيابا بينما البحر يبدو هناك تحت المرتفعات، هادئا أوهائجا لا يهم..

ابتعدت يمة زهور حتى اختفت عن أنظار العيون الدامعة.. كنت أرى خطواتها الثابتة تعلو شيئا فشيئا وكأنها تتجه نحو السماء.. نحو فضاء مجهول.

دخلت رفقة أمي شقتنا، وفعل ذلك جميع الجيران وفي القلوب غصة.

ها أنا كبرت يا يمة زهور ولم أصبح قاضيا عادلا، لكنني أذكّرك في سمائك حيث أنت، كم أوجعتني باختفائك، بل كم أوجعتنا جميعا مساء ذاك اليوم نفسه، حين قررت الرحيل المباغت.

هل أنا واهم.. هل اختفيت فلم يعثر لك على أثر.. أم فعلا جاء خبرإلقائك بجسدك النحيف المتعب الحزين من على مرتفعات جبهة البحر؟

كأنه كابوس استيقظت فيه لأرى سكان العمارة وقد فتحوا بيوتهم لعزائـك، كأنني أسـمع أصـوات النسـاء الصارخـات وإطراقة رؤوس الرجـال ونشـيج الأطفال المخنـوق حزنا على فراقك.. لم يخب حبي لك على الرغم من كل شيء يا يمة زهور.. لماذا لماذا اختفيت؟

كأنني حلمـت أنهـم أخرجـوا جسـدك المسـجى من بيتنـا، وأن الزغاريد انطلقت حين حملوا جثمانك المهشـم الجريح وهم يهتفون مرددين:

- الله يرحم الشهدا.. الله يرحم الشهدا.

كأنني رأيتـك تفتحيـن بابك ثم تميلين نحو طرف الزاوية تبدلين حذاءك القديم النظيف بالآخرالذي تلبسينه للشارع.

قال الصبية إنهم رأوك تمرين أمام المدرسـة هادئة كعادتك. كم كنت أبحث عنك في طريقي إلى المدرسة، علني ألقاك صدفة وأرتمي لأختبئ في حضنك باكيا، تهزني مشاعرعنيفة لا حدود لها.

زاد تذمرالسكان مع موعد استقبال الذكرى العشرين للاستقلال، وزادت كراهيتهم للقاضي صاحب العمارة، وللمحكمة التي يتدثر بها، وزاد رفضهم للظلم واستغلال سلطة المنصب.

لـم يعـد يبهجنـي السـير على منـزه جبهة البحر الـذي يطل على البحـر الأبيـض المتوسـط، لـم يعـد لـه ذاك المذاق ولا تلـك الرائحة التـي كانـت تختلـط في دماغـي الصغير غير المكتمـل برائحة حضنك الطيـب الحنـون، تشـبه عطـوره رائحـة التمـر الناضج، وأنـت توزعين عطفـك وحنانـك علـي وعلـى الصغار مـن حولك وكأننـا أطفالك أو أحفـادك، وكـم كانـت الكلمة الحارة تخرج عبـر حلقك وكأنها تصدر مـن عالـم مجهـول خـارق، معجـون من مزيـج من الحـزن والافتخار بولديك الشهيدين:

- مسعود أنت شحال تفكرني بولدي الشهيد احميدا.. كي كان صغير ربي يرحمو..!!

لأول مرة تساءلت عن الموت عن فحواه وسره، كيف يختفي وجود شاسع مثل يمة زهور.. أي مكان آخر يستطيع احتواءه؟ ثم لماذا؟؟

من يستطيع أن يجيب على سؤالي؟

لم تستطع أمي أن تقنعني أنك لن تعودي أبدا، ولن نسمع صوت مفتاحك وأنت عائدة في المساء تفتحين بابك مقابلنا، تجرين تعبك بينما يلمع الحنان والابتسام الدائم في عينيك العميقتين الغائرتين، لم تستطع أن تقنعني أنني سوف أقوم من فراشي صبحا ولن يقع بصري عليك أبدا.

ما زالت دهشتي من ضيق المسافة الزمنية قائمة ما بين وقوفك على كومة أثاثك القليل مرميا خلف الباب، وخبر واختفائك المفاجئ.

- إلى أين أردت الذهاب يا يمة زهور؟

قالت لي أمي حينئذ أنك لم تقرري الرحيل لأن القاضي قدور طردك من دارك، بل لأنك اخترت دارا أخرى أوسع وأجمل.. كانت أمي تطمئنني وكأنها تعزي نفسها. حلفت لي أنك في جنة حقيقية تنعمين فيها، ووصفتها لي بكثير من الدقة والتفصيل حتى تخيلتك حورية هانئة البال تتجولين بين الأشجار المثمرة وبين سواقي العطر والعسل.. صدقتُ كلام أمي آنذاك.. لم يكن لي خيار آخر ولكنني تمنيت أن تعودي.. أن تعودي بعينيك، بنظراتهما الطيبة اللتين ظلتا تشعان في ذاكرتي، وبقلبك الصبور، ورائحة التمر الناضج التي تفوح منك.

منذئذ يمة زهور وأنا أتساءل عن صحة ما كنت تؤكدين عليه، وأنت تسردين علي قصصك عن الثوار والشهداء وتمتعينني بحكاياتك الشعبية، تصرين على أن الخير ينتصر على الشر دائما وحتما، وتضربين مثلك القوي عن مصير الاستعمارالذي انتهى على الرغم من بقائه قرنا ونصف القرن..

- الخير ينتصر على الشر يا مسعود يا وليدي..

- الشر ينتصر على الخير أيضا يا يمة زهور؟؟

لعل قصصك، الواقعية منها والتي من صنع خيالك وتساؤلاتي حولها، جعلتني أنضج سريعا إلا أنني ومنذئذ يا يمة زهور لم أر إلا الشر يتغلب على الخير، والأشرار من الناس ينتصرون على الخيرين فيهم.

لم أصبح قاضيا يا يمة زهور كما كنت تودين.. لا لكي أملك العمارة وخيوط لعبة القوانين التي تسهل لي طرد سكانها وإذلالهم وغايات أخرى ولا لكي أملك القوة الطيبة، وأن أحكم بالعدل، وأرأف بالناس من الظّلَمة والحقارين.. كرهت «دراسة» القانون إنه ثقيل على قلبي يا يمة زهور حاولت من أجلك، ولكنني عدلت عن ذلك بعد قناعتي أن لا مفر، فأنا أستثقل هذا العالم وأمجه. فقررت التوجه نحو اختصاص الأدب العربي القديم، أعرف أنه لا يعني لك الأدب العربي القديم شيئا أنت التي لا تعرفين ولا تحفظين سوى الحكايات والأشعار والأمثال الشعبية الأمازيغية..

درست بجدية حتى تحصلت على شهادات جامعية، زغردت لها أمي وأختي ونساء العائلة إلا أنها بقيت معلقة على الجدار كما بقيت معلقة تلك الزغاريد في الهواء، وبقيت معلقا على حبل الأيام المتشابهة، على أمل أن أعثر على وظيفة تحفظ كرامتي أمام نفسي

وأمام أمي التي ما زالت تعيلني مما تجود به آلة خياطتها التي قوست ظهرها وأضعفت بصرها.

لم أخرج من قاع البطالة والخيبة يا يمة زهور، إلا بعد أن اشترت امـرأة رائعـة تدعى الحاجة عذرا العمارة من ورثة القاضي قدور.. لقد قضى نحبه بعد مرض عضال، ورثة مزقهم الخلف حول تركته. فملأوا بدورهـم المحاكـم ضجيجـا. لطيفة وفاتنة تلك الحاجـة عذرا المالكة الجديـدة للعمـارة، جـاءت من العاصمة ومـا أدراك ما العاصمة، وكان حظي كبيرا حين التقيت بها صدفة، وصدفة حدثتها عن مشـكلتي مع البطالة التي طالت واستطالت، فاقترحت علي بصدر رحب الانتقال إلى العاصمة للبقاء في فيلّتها بنادي الصنوبر وما أدراك ما نادي الصنوبر.. الحاجة عذرا تحتاج إلى من يملأ الفيللا الفارغة أغلب الأحيان.. أظل بهـا كـي أحرسـها حتـى لا تبـدو مهملة وتجذب الطامعيـن، فلم أتردد لحظة، لم أطرح سؤالا ولم أستفسر عن شيء كنت أريد فقط أن أقبل يدهـا اعترافـا بجميلهـا الذي لا مثيل له، أخرجتني به من أيامي الرطبة الحلزونية، كنت فيها سجين الفراغ.

أصبحت حارسا... حارس يعني عساس يا يمة

نعم يا يمة زهور أنا عساس.. كانت سنوات دراستي طويلة وأنا الآن والحمد لله عساس.

وأي عساس.. سيد العساسين.

العسـس خُلقوا درجات أيضاً.. أن تعسّ في نادي الصنوبر ليس كما تعسّ على حانة الوفاء.. مثلا.

أنـا الآن أعـسُّ فـي نـادي الصنوبـر، قطعـة من جنة عدن وسـط الجحيـم، كأنهـا جزيـرة خيالية مصورة بإتقان وتوأدة، بها بحر وخضرة ووجوه حسنة، بها ما لا يوصف ولا يدرك ولا يرى، وبها فرح الصباح

وسهرالليالي الملاح.

نـادي الصنوبـر يـا يمة زهور، خمسـون هكتـارا اقتطعت من جنة الله العليا وأنزلت إلى الأرض السفلى، فيها روض عاطر يسر الخاطر ويبهج الناظر.

فـي الزمـن الأول كان يأتيهـا المعمـرون الفرنسيون للراحـة والاستجمام، للانغماس في بحر وشمس من الحرير الشفيف والقطن الرهيـف، مـن أجل السـكينة والراحة والاسـتجمام بعيـدا عن ضوضاء الأهالـي الحثالـة وغمتهـم، وأوجاع الرأس منهـم ومن وجودهم. وفي الزمـن الثانـي خـرج منهـا المعمـرون دخـل جنتها الموعـودة منعمون آخـرون، بعـد أن توسـعت جـدا وأصبحـت نعيما كل ما فيه يشـع منه السـرور والحبور. محصنة بالأسـوار العالية، محروسـة آمنة، نائمة في العسـل يقطنها علية القوم وأسـيادهم، وكأنها جزيرة سـرقت من عالم ألف ليلة وليلة، مدينة داخل مدينة، بل وطن لهم داخل وطن لآخرين، حتى سـماءها لا تشـبه باقي سـماء المدينة، سـماء طيعة حين يحملون مظلاتهم يهر المطر منها فورا، وحين يرتدون مايوهات السباحة يطيب الجو لهم وتشـتعل شمسـها ويضحك البحر السـخي، البحر المدجن، بحـر لهـم وحدهـم خاضـع خانع خاشـع، مثل جواد مـروض لا يرفع صهيلـه الغاضـب فـي وجوههم، ولا علاقة له بأخـلاق البحر الأبيض المتوسـط،، ولا بعـادات البحـار الأخرى حين تغضـب، وحين تفيض علـى مـن يركبهـا، بـل إنهـم حيـن يرغبون فـي دخوله رفقـة حبيباتهم الجميلات النازلات للتو من أغاني الراي، تصفق الشمس وتشمر عن سواعدها لإسعادهم، ويستكين الرمل وهو يئن مثل كلب أليف خائف.

من يعرف..؟ ربما على مضض.

أنا عساس يا يمة زهور، والعجيب في الأمر إصرارهم على أنهم

يشبهونني.. عساسون أيضاً.. بدورهم يعسون مثلي على البلد، كلنا عساس ووكلنا مسؤول عن ما يعس عليه. إلا أنهم لا يشبهوننا يا يمة زهور فهم عسس يسكنون قصورا، ليس مثلها ما رأته عين ولا صوره جنون خيال. أقرب إلى الوهم. أستغفر الله يا يمة زهور وسامحيني إن قلت لك أنني لا أدري هل الشهداء يسكنون في سماوات الله وجناتها مثلها. إنهم هنا مرتاحون، يتنعمون يتمايلون بين سواقي الحليب والعسل وبنت العنب. لم يستشيروا أحدا ولم يخترهم أحد لكي يعيشوا في هذا البذخ الذي تؤمنه لهم خيرات الذهب الأسود السخي. ثم ليس يهم أن لا يخترهم أحد، ولا يهمهم ما يقال وما لا يقال، ولا يهمهم الأنين في الجهة الأخرى للسورالخارجي، ولا يهمهم هم الدهماء وضجيجهم وروائحهم ومشاكلهم التي لا تنتهي وشكواهم التي لا تنقطع..

المهم يا يمة زهورأنهم ليسوا مثلنا، ليس يهددهم أحد بالطرد ولا الزيادات في الأجور مثلما فعل معنا القاضي قدور.

نعم بعد كل هذه السنوات إن سألت عني يا يمة زهور، فأنا عساس.. عساس بخمسة نجوم أو ستة بالأحرى.. سامحيني إن لم أصبح قاضيا ولم أحقق لك أمنيتك فيّ، لكن صدقيني يمة زهور أعدك أنني سأكون عساسا أحسن وأنظف من القاضي قدور، لسبب بسيط ومقنع، وهو أن الطارقية الساحرة الحاجة عذرا مالكة العمارة، امرأة بألف قاضي قدور.

باب الحيرة

أقوى ما في الحب هشاشته. . (ربيعة)

يا ربي ما الذي يحدث لي..

فككت عن رقبتي فكي غول البطالة، فوقع قلبي في جب الحب.

يبدو أن الحب لا سن له؟ ولا منطق له ولا حساب.. قد يصيبك سهمه متى ما شاء وليس متى ما شئت.. لا مهرب لك ولا أمامك إذن، أنت معرض لانقلاب ع.. اطفي في قلبك مادام يدق.. القلوب في أزماتها قد تتوقف دقاتها فجأة بسكتة عند الكبير كما عند الصغير، لسبب أو لآخر، فينتهي وجودها، ولكن المؤكد أنها مادامت تدق، فإنها مثل جرس لطيف أو ناقوس خطر، تنذر بخلل آت في الأفق، والحب خلل لذيذ.. قلبان يدقان في صدرك.

وماذا يعني أن أكون أصغر بقليل من الحاجة عذرا، فأنا كبيربتجاربي المرة في الحياة، وبالعلم والمعرفة. فإذا كانت الشهادة العليا التي حصلت عليها لم تِؤكلني الخبز، وتضمن لي حياة كريمة فإنها على الأقل علمتني تذوق الحياة؟

أليس هذا كاف لكي أجد لي سببا واحدا مقنعا لوجودي، وامتيازا ولو ضئيلا لي في قلب الحاجة عذرا؟

والله جننتني هـذه الجميلـة الطارقيـة القادمـة مـن أسـرار قلـب الصحراء..

أليســت من العصر الأمومي.. أنا مسـتعد إن تزوجتني أن أتبعها حيث تريد، أعيش معها في الصحراء إن هي عادت إليها.. ولتفعل بي ما تريد.. أما ما أريده أنا فحسبي أن أكون قريبا منها.. لعلني أهذي.. هبّلتني.. والله.. لست أدري بالضبط ما الذي يأسرني بها.. ربما لأنها تشبه حبيبات الشعراء الجاهليين.

والله لا أعرف..

كلما مرت، لتعبر الباب إلى مدخل فيلّتها بنادي الصنوبر أرتجف، ويشـع الضوء سـاطعا بقوة في عيني، لا وقت يبقى لي كي أسـتغرقه للنظر إلى جسمها الضخم الملفوف في لباسها الطارقي. طريقة لباسها لم تبدلها بزي آخر، وأساور الفضة تزهو في معصمها وعطرها الغريب المدوخ الذي يتغلغل في دون رحمة.. لعل أكثر ما يشـد نظري أنفها ذاك، عـال مسـتقيم دقيـق وكأنـه يرفع السـماء على قمـة أرنبته، وحين تختفي داخلة أو خارجة إلى فيلّتها، يظل في مخيلتي يتراءى شـامخا، ثم لا ألبث أنظر إلى السماء أبحث عن الله أدعوه.

هذا ما فعله بي ربي

لـم أخبـر أحـدا مـن قبـل ولن أخبـر أحدا أبـدا.. هذا سـري أنا لوحدي..

أعلم أنني مختلف وأن ذوقي لم يعد يتماشى مع قوم هذا الزمن الأخرق هذا العصر الأهبل..

- أي عصر، أي عصر هذا يا إلهي..!

هؤلاء أنصاف رجال لا ذوق لهم ولا ذائقة، فهم لم يقرأوا جواهر

الشعر العربي القديم مثلي، فقصائده تعج بالغزل العالي الرقيق الخالد الفخم الذي يبجل جمال المرأة المكتنزة، تملأ ثيابَها حتى التمام، نؤوم الضحى، بطيئة، مدللة، غنوج، متمنعة، دافئة النداء، لذيذة النبرة. هي هذه المرأة المثلى. من النساء اللواتي يحركن السواكن، وليس أولئك اللواتي يدخلن في سراويل الجنز مثل أقلام «بيك» البلاستيكية..

هصرت بفودي رأسها فتمايلت — علي هضيم الكشح ريا المخلخل
مهفهفة بيضاء غير مفاضة — ترائبها مصقولة كالسجنجل
كبكر المقاناة البياض بصفرة — غذاها نمير الماء غير المحلل
تصد وتبدي عن أسيل وتتقي — بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش — إذا هي نصته ولا بمعطل

يا له من جمال يا له من وصف.

منذ نعومة أظافري فتنت بحكاية دارة جلجل، بشيطنة ذاك الأمير الضال المدعو امرؤ القيس..

كيف خطرت ببال امرئ القيس تلك الفكرة الجهنمية والذكية، فكرة خطف ثياب المستحمات بالنهر، بالاستيلاء عليها ودسها بعيدا، ثم لا يقبل شيئا لتسليمها لهن سوى أن يظهرن عاريات أمامه، متجهات لأخذها ثم ارتدائها ليتسنى له رؤيتهن مقبلات ومدبرات..

- المخبول الرائع!!!!!

ليتني كنته.. ليتني عاصرته. ليس أمرا هينا أن تكون لك ذائقة مختلفة، تنمو معك وفيك دون أن تدري بذلك، ودون خلاص لك منها، لا يأتي هذا بين عشية وضحاها،إنه خلاصة بداية حياة سترتسم فيها وستظل موشومة تسم ما تبقى منها.

وماذا بعد.. ليس بالأمر السيء أبدا أن أكون مختلفا، هكذا أفهم

وأحس..

منذ بدء أعاصير المراهقة، حين بدأت أشعر بتغيرات غريبة في جسمي ونفسيتي، تبدلت الأشياء ورؤيتها. حتى حبالي الصوتية أضحت تتصلب فتتراوح بين الأجش والرقيق، حتى أنني أحيانا كنت أكاد أضحك من سماع صوتي وأصوات زملائي التلاميذ حين نكون بصدد تجاذب أطراف الحديث أو عرض المحفوظات من القصائد، يختلط الأمر علي فهل نحن نتكلم أم نُكُحُّ ونسعل.

مثل زملائي، جبلت على حفظ القصائد المطولة من الشعر القديم وما زال يرن في أذني قول الشاعرأشجع بن عمرو.

وماجتْ كموجِ البحرِ بينَ ثيابِها يميلُ بها شَطرٌ، ويعدلُها شَطرُ

مدرسنا للغة العربية، الفلسطيني السيد جليل إبراهيم خضر، يصلي في القسم من حين لآخر ركعات للاستغفار فقط، كما كان يسميها، لم يكن يخفي ضعفه حيال قصائد الغزل القديم والجاهلي منها على الأخص، ولم يكن يختار لنا غيرها، ولم يكن يتحرج في تفسير الأبيات بيتا بيتا. كم كان يبدو على غاية من التمتع وهو يفتت معانيها إربا إربا ويعيد ترتيبها أمامنا بكل تفاصيلها الحسية الدقيقة، حتى الحميمية منها الموغلة في الوصف غير العفيف كما كان يسميه وينعته.

لست أدري كيف وأين كان يجد تلك العبارات والكلمات القوية الموحية المتفجرة، فيأخذنا على جناحيها نحو زمن أصبحنا نعرف عنه كل شيء أكثر من معرفتنا بهذا الزمن الذي نعيشه ومحياه ونتنفسه. كأن لدى أستاذنا الفلسطيني جليل إبراهيم خضر رغبة في الهروب، لست أدري ممَّ ولِمَ، ربما كان يفرمن عالم الهزائم، إلا أنه لا يذهب

في هروبه وحده، بل يأخذنا جميعا، وكنا نفعل ذلك عن طيب خاطر، نتنقل بين القبائل العربية بشبه الجزيرة، بعاداتها وصدامات الثأر بينها، وحكايات العشق وأخبار العاشقين فيها، ورحيل أهلها وحروبهم وشعرائهم وأطلالهم وأثافيهم وآثارهم وأسواقهم، والعلاقات الغريبة الساخنة بينهم، وأسماء النساء، وأخبارهن، وأوصافهن، ومقالبهن، وبعض أشعارهن، وأسماء الأحصنة والأمكنة والقصص الدائرة بين القبائل.

كم كان يشدني حديثه ويأسرني ويقنعني، إلى درجة أصبت فيها بعدوى الجاهلية.. استمرأت ذلك والحق يقال حتى أنني مرة طرحت السؤال على المدرس:

- يا أستاذ.. كل هذه الدرر من القول وصلت إلينا من هذه المرحلة من التاريخ.. أليس من الجحود أن نطلق عليها اسم الجاهلية؟

من بين جميع التلاميذ، يبدو أنني كنت المصاب الأكثر جدية، بحالة الوهج والبريق الملتمع في عيني المدرس، حين يردد القصائد، وحين يستعين للدلالة والتوضيح والشرح بالإشارات الكثيرة من يديه وذراعيه ورأسه، بينما يقرؤها القصائد عن ظهر قلب.

حين كان يوغل في تفسير أوصاف المتغزل بهن من معشوقات الشعراء القدامى، يسبَح مدرسنا الفلسطيني جليل إبراهيم خضر في عالم غريب مجهول مواز، حتى لنكاد نظن أنه هو صاحبها وليس الشاعر المزعوم. عيناه كانتا تغيبان وتغيبنا معه إلى عالم وزمن غابرين.. غابرين إلا أنهما أشد حضورا من أي شيء ملموس حولنا. كنا ننتظر بفارغ الصبر من بين عناصر الدرس الأخرى عنصر الوصف، فإذا بنا وكأننا أمام شاشة عظمى، نتحول إلى عيون ساهمة، وآذان صاغية، مسامات فاغرة فتحاتها على أشدها، نتعرق بغزارة حين تبدأ

جدية وصف معشوقة الشاعر. يسود الصمت، ينهمك خيال كل واحد منا في رسم ملامحها وتلوينها كما تمليه عليه طاقته التخييلية وثراء مخزونه الجمالي والحسّي.

نخرج من القسم ونحن نردد الأبيات الغزلية، أشدها رهافة وايحاءات جنسية ساخنة واضحة لامرئ القيس:

وبيضة خدر لايرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت أحراسا اليها ومعشرا علي حراسا لو يسرون مقتلي
اذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل
فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر الا لبسة المتفضل
فقالت: يمين الله مالك حيلة وما ان أرى عنك الغواية تنجلي

وبينما نحن نترك القسم في صف واحدا واحدا، نحاول أن نغطي بأكفنا البلل الذي طفا فوق السراويل وانفضح، بينما لا تزال ترن في آذاننا الفتية الأبيات، تتهادى أمام أبصارنا الصور وتزلزل أجسادنا المراهقة الحارة قوة القصائد النارية.

أصبح أمرا طبيعيا.. لم نعد نأبه له، ولم نعد نتغامز أو نتضاحك من حركة الأستاذ الغريبة، وهو يحك من حين لآخر مقدمة سرواله، فقد صرنا نقلده ونفعل مثله ولا نرى في ذلك حرجا، بل نجد في الأمر شيئا طبيعيا يدل على أننا مشاريع رجال بالغي الذكورة، يفهمون في الفحولة مثله، هو الذي يمتلك علما غزيرا وفهما عميقا بأسرار الحياة، ويحفظ القصائد الغزلية الطويلة المعتقة، التي ولدت مع ولادة الغزل ومع أول آهات العاشقين في الجزيرة العربية، إنه يفهمها ويحللها ويفسرها ويفتت رموزها أمامنا مثل حبات الرمان رمزا رمزا، حبة حبة، ويفكك ما صعب على فهمنا منها إلى جزيئات مجهرية، ثم

يجمعها أمام أعيننا العارية حرفا حرفا، حتى تتكور الجملة الشعرية بدهشة ويستقيم المعنى.. المعنى الذي نتشوق لبلوغ ذروته والتشبث به، ثم يكاد يختلط الأمر في أذهاننا إن كان فعلا هو المعنى الذي في بطن الشاعر القديم، أم في الحقيقة أنه من بنات أفكار المدرس الفلسطيني جليل إبراهيم خضر، وفي بطنه. وفي كلا الحالتين تأخذنا المتعة من أطراف أجسادنا الفتية، تجنح بنا، تملأ بمائها الزلال مساماتنا خلال النهار وأطراف الليل، وتتمدد على فراشنا المؤثث بالجميلات الممتلئات اللذيذات الشهيات الراغبات المتمنعات، نتعاضض على أسرّة سرية فوق جغرافية أحلامنا اليقظة منها وغير اليقظة.

سألتها قبلة ففزت بها بعد امتناع وشدة التعب
فقلت بالله يا معذبتي جودي بأخرى أقضي بها أربي
فابتسمت ثم أرسلت مثلا يعرفه العجم ليس بالكذب
لا تعطين الصبي واحدة يطلب أخرى بأعنف الطلب

- الله عليك.. الله يخليك.. صحيت يا أبا نواس...

أنا لست كهؤلاء السفلة الجهلة، لا يفقهون شيئا في عالم النساء والغواية والجمال، لم يقرأوا قصائد أبي نواس وامريء القيس حين يتغزل بالجميلات الفاتنات السمينات الممتلئات.. أنا إنسان رفيع الذوق أفهم في الحس الجمالي الحقيقي، الجمال الذي ما زال يتجلى في الشعر والذاكرة، وما نحن بدون الماضي ودون الذاكرة.. لا شيء.. ومع ذلك أدرك في قرارة نفسي أن هؤلاء الذين يدعون الحداثة وما بعد الحداثة.

- كم يضحكني مصطلحهم «ما بعد الحداثة» هههههه....

سيدون حتما استغرابهم واندهاشهم من مخلوق مثلي، وسيعتبرونني محنطا أكل على ذقني الزمن وشرب، وأنني متخلف لا أجاري الواقع المعيش كما يصرون على تسميته في كلامهم المقعر.

- لا.. أنا متيقن أنني على حق وأن ذوقي سليم وعال، فقط أنا من الناجين القلائل، من المحظوظين، لم تسحقني حرب الدعاية العالمية التي تطارد الناس حتى في بيوتهم، حتى وهم يتمددون فوق أسرتهم. حرب الدعاية التي تتابعك مثل قدرك، منذ صرختك الأولى عند هبوطك الاضطراري من بطن أمك، فأنت تُوَجَّهُ عن بعد، وكأنك جرْوٌ كهربائي، تنبح بالكبس على زر صغير، وترتمي على ظهرك بالكبس على زر آخر وتتمسح بالأقدام بمجرد لمس زر ثالث، تملي عليك ما عليك أن تحبه، وما عليك آن تكرهه.. تحاصر رغباتك الجنسية بعاصفة البورنو، تقلع جذور شجرة الإنسان فيك، فتتشوه وتمرض نفسك، ولا تدع حديقة خيالك تزهر.

الدعاية تتحكم في حواسك الخمس.. لا حاسة منها ملكك، عليك فقط أن ترى ما يجب عليك أن تراه وتعجب برؤيته، وأن تسمع ما يجب عليك أن تسمعه وتعجب بسماعه، وتشم ما يجب عليك أن تشمه وتعجب بتنسمه، وتلمس ما يجب عليك أن تلمسه وتعجب وتتباهى بلمسه، وأن تتذوق ما يجب على لسانك أن لا يمل من مدحه..

الدعاية التي تسحق العالم كله، وتسحقك، وأنت ذرة منه لا معنى ولا وزن لك، كأنك حجر صغير غير مرئي، محصور بين الصخور في جدار ضخم عملاق لا متناه.

- لا... هاهاها.. أنا مسعود رأسي خشن.. لا ماريكان ولا لاشين..!

لن تهزأ مني هذه الجراء الكهربائية التي دجنت حواسها ماكنة

الدعاية.. ولكني سأظل وفيا لما تعلمته.

- اللي ما عرفكش خسرك.

ثم إنني لست مجبرا أن أخبر أحدا بسري.. أنا رجل أحب السمينات اللواتي يشبهن محبوبتي الطارقية الحاجة عذرا ومحبوبات امرئ القيس اللواتي يشبهن الأبقار البيضاء أو المرقطة أو الملونة، الحوامل منها خاصة.

تسير على مهل بخيلاء، وتهش بذيلها، فترتجف أكوام اللحم على جنباتها في كرم، ترفع الذراع منها، فلا ينفصل الزند عن الصدر من سخاء اللحم والشحم، فيتكهرب الجو بصدمات الرغبة ولا يهدأ، وحين ترمي خطواتها يفتح الهواء الطريق لها ذراعيه وكل شيء منه، وهو يتنفس رائحتها راجفا. إنه فن النظر يا سادة.. ليس الأمر لعبا.. بل إنه جنون المجنون أو أبي صخر الهذلي:

تكاد يدي تندى اذا ما لمستها ... وينبت في أطرافها الورق الخضر

- هههه.. كم يضحكني هؤلاء الرجال الذين يسيل لعابهم وهم يتفرسون في المارات من النساء، نحيفات شاحبات وكأنهن على مرض عضال، تكاد أصوات قرقعة عظامهن تُسمع، يتحركن مثل أسلاك الكهرباء المسننة، وهن يمشين مثل أقلام رصاص منجورة.. يا إلهي.. أريد أن أفهم.. كيف يشعر أحدهم بالمتعة وهو يعانق بقايا سمكة؟ كيف لا ينغص عليه الشوك الذي يغرز في صدره وبطنه وكليتيه وركبتيه ويجمد الدم في عروقه؟؟

يفتح هؤلاء متخلفو الذوق، أعينهم على مصراعيها، حتى تنزلق من محاجرها، وهم يورِّقون المجلات الأوروبية، يتصفحونها بمحنة البحث والتنقيب عن نساء أوروبيات عاريات، بلا أوراك، ولا صدور،

ولا أكتاف، ولا أفخاذ، ولا بطون، ولا ترائب، ولا أعناق، ولا خدود، ولا أوداج. يُتخيل لي أنك حين تضع كفيك على جسدها تدمى أصابعك من نغز عظامها البارزة وكأنها مسامير.. مهزلة.. والله مهزلة!

نعم أنا مسعود بن مسعود.. أحب النساء الممتلئات.. ممتلئات مثل عذرا وهذا ما فعله ربي بي وفي..

- آه يا عذرا.. جا غرامك غدرا..

حقا رُبّ مسيء مفيد.. فحين كنت بطالا، ظللت سنوات طويلة أبحث عن وظيفة أو عمل ما بلا جدوى، فاض الوقت بي، وصرت فائضا على الوقت، كل أيامي أصبحت متشابهة إلا يوم الجمعة، .. نعم يوم الجمعة، فإنه يدخل إلى قلبي إحساسا مختلفا، وإلى يومياتي معنى جديدا..

جُمعتي أنا.. جُمعتي لوحدي.. لا تشبه جُمعة أحد.. ولا أحد يفرض علي جُمعته.. هكذا أنا لا أستحسن هؤلا ء الذين هم دوما مستعدون للإفتاء لحياتك، ولإعطائك الدروس في الإيمان والتوبة والأخلاق وما إلى ذلك، وكأن الله وضع بين أيديهم مصيرما قبل وبعد موتك، وسلمهم مفاتيح الجنة دون بقية الخلق، والأفدح أنهم يعرفون أنك تدرك ما يضمرون من تفاهات، ومن نفاق.. وأنك تعرفهم خارج لبوس الطاعة تلك.

عباس من هؤلاء، من وجوه الحارة، مهرب سابق،أفصح عن رغبته للترشح في البرلمان القادم فأطلق لحية شعثاء منذ مدة، قبل أن يبدأ حملته الانتخابية في المسجد. لعله يراهن عليّ ليثبت لمنتخبيه قدرته وفعاليته على ترويض نمر مثلي ووضعه صاغرا في قفص. أليس جميع من هم مثلي مجرد أوراق انتخابية ضائعة مبعثرة في الشوارع.. من يلتقطها يملأ صندوقه ويكون الأجدر بثقة العامة والسلطة معا..

يقتـرب منـي كل يـوم جمعـة، قائلا بلهجة العـارف الآمر الناهي الناطق باسم الملائكة والرسل أجمعين:

- لم أرك اليوم في مسجد الحي يا مسعود؟

مـرت الجمعـات متتاليـات.. صبرت كثيرا، ثم ذات جمعة وبينما هو يقترب مني ماسحا على لحيته الشعثاء، وقبل أن ينطق بعبارته: «لم أرك في صلاة الجمعة يا مسعود..».

سبقته:

- تعـرف خويـا عبـاس.. مـاكان لاش تعيـي فـي روحـك.. أنـا سبقتك.. أنا نصلي الجمعة يوم الخميس.. يوم الخميس واش الداني.. صافا خويا عباس؟

منذئذ لم يعد يقترب مني.. بل لم أعد أشاهده يمر بي وهو يقصد المسجد كل جمعة ماسحا على لحيته.

نعم.. الجمعة لي أنا.. الله يعلم أن كل أيامي متشابهة، لا فرح ولا متعة بها.. هو صاحب الملك العظيم، لن يستكثر فيّ يوما واحدا، يرتاح الناس فيه بالطريقة التي تحلو لهم، وأرتاح فيه بالطريقة التي تحلو لي.

الجمعة.. إلا الجمعة وما أدراك ما الجمعة....

إنـه يومـي أنا بسـبعة أيام، بألف شـهر.. أنتظره بفـارغ الصبر كي أراقبهن يقصدنه، منهن الهادئات، ومنهن القلقات المسـرعات، يدلفن إلـى البـاب وكأنهـن يتنصلن أو يهربن من شـيء ما يلاحقهن.. ثم إني لست أدري لماذا يخترن يوم الجمعة.

أجلس أمام الحمَّام العام للنسـاء، حمّام «سـوق لاباسـتي» الذي يرجع إلى القرن التاسع عشر، سماه المستعمرون تبركا بانتفاضة سجن لاباسـتي الشـهيرة، لـه مدخـل مفضض ومزين بالرخـام الأصلي.. وله ساريتان عظيمتان تحيطان بالباب الكبير الخشبي المنتصب بأبهة. تليه

الردهة الجميلة، المظلمة إلا من مصباح وحيد خافت يكاد يضيء ليدل على الباب الداخلي. الأرضية منه ملساء من الرخام الأصلي الفاخر أيضا، تزينها رسومات بالأخضر الغامق والفاتح لحيوانات أسطورية..

حمّام لاباستي يستقبل النساء في النهار والرجال في الليل، سمعت أن أحد المسؤولين نُصِّب حديثا أمر بترميمه. إنه لا يحتاج في الحقيقة إلى أي ترميم على الإطلاق، يحتاج فقط الى صيانة، لكن الترميم أصبح المشروع الواضح الوحيد الذي يدخل به المسؤول لمسؤوليته الجديدة، ثم يخرج منها بعد إقامة طويلة دون أن ينتهي مشروع الترميم ويتم تجديد طلب الميزامية الإضافية له من الميزانية العامة للدولة المستمدة من ريع البترول والغاز، كمشروع لا ينتهي أبدا، بل لا يراد له أن ينتهي، لأنه البقرة الحلوب على الدوام، البقرة التي تسرق حليبها ويباع وهو لا يزال داخل ضرعها.. لم يعد خفيا على أحد من العامة أن من وراء ذلك إن.. «إن» عملاقة ومتبجحة..

- نعم «إن»..!

لم تعد تلك الـ «إن» خفية على أحد في المدينة، يعرف سكانها ويرددون بهمس مايفعله المسؤولون المهووسون بعمليات الترميم، فكلما عُين مسؤول جديد على رأس مؤسسة ما، حتى يبدأ مفتتحا اجتماعه الأول بمشروع ترميم، ولا يهم إن سبق ما يُشرِّع لترميمه أن شُرِّع لترميمه المسؤول الذي سبقه.. لا يهم.

ثم إنهم يقصدون بنايات بعينها، بنايات تاريخية عتيقة جميلة باذخة، فالترميم يعني المال العام المهدور، وتبديل الرخام الأصلي الفاخر بالزليج الرخيص، بحيث يذهب الرخام الأصلي، والرسومات الجميلة، والسواري والتزيينات التاريخية الفاخرة، نحوالسوق السوداء، أو مباشرة نحومشاريع الفيلات والقصور التي يشيدها المسؤولون لأنفسهم

ولذويهم في الأحياء الراقية الجديدة. كل شـيء قابل لكي يُسـرق، كل شـيء له ثمن مادي، وقيمة معنوية من المؤسسـات أو البنايات العتيقة الأثرية، قابل لكي يباع أويضاف إلى ممتلكاتهم الخاصة.

حمام لاباستي لا يحتاج إلى ترميم، يحتاج أن يتركوه بسلام.

إنـه المحبـب لـدي، يقبع تماما أمـام مقهاي المفضل، أجلس في المكان المناسب على علو متوسط مثالي من أجل وضوح الرؤية، من منظر بانورامي مدهش، أواجه منه الحمام ذا الواجهة الملوكية..

يحـدث أن يحلـو لصاحـب المقهـى أن يديـر فيلمـا للزبائـن، أو كليبات لمادونا أو لليدي غاغا، وغيرهما، فتراهم كلما ظهرت واحدة مـن هـؤلاء الفنانات أو الممثلات النحيفات، المصفرات، الشـاحبات، وكأن بهن مرضا عضالا، إلا وبرزت عيونهم من محاجرها، واصطكت أسـنانهم البيضـاء والبنيـة والمسوسـة، واندلقت ألسـنتهم لاهثة. ويبلغ التأثر بهم حد الصراخ أو التصفيق أو التنهد.. ويحدث أن يصيح أحد الرواد وهو يلم ذراعيه حول رأسه وقد بلغ ذروة شبقه:

- واااااو الله أكبر.. الله أكبر.

- على ماذا أيها الأهبل.. -أقول بحنق- على حفنة من العظام.. إن شاء الله تحصل في حلقك!!

منزويا حيث لا أحد يراني.. بعيدا عن ضجيج الرواد، أجلس في زاوية استراتيجية بالطابق العلوي، أطلب قهوة «بريس» معصورة قوية، يتصاعد الجن الأزرق في بخارها، وكأس ماء.

أفتـح قليـلا النافـذة الصغيـرة المطلـة علـى الشـارع، وأدخن في هـدوء، بينمـا هـن يدلفن أسـرابا وفرادى إلى الحمـام من الباب الكبير إلى الردهة، واحدة بعدَالأخرى، أو يخرجن بوجوه متوردة، ومنهن من تبدو في كامل زينتها، تفاجئ ضوء الشـارع فيتراجع، ثم لا شـيء يمر

دون أن ألتقطه بحذافيره، هادئا دون أن يتدحرج في قرقعة أو يضيع، إلى أن ينتهي بهدوء في قاع الذاكرة..

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

هذا ما فعله بي ربي..

وكعادة مساء كل جمعة أعود إلى سكني تاركا مقهاي، عندما تخرج جميع النساء، ويخلو الحمام من زائراته. بسرعة، أجمع كما اتفق، في حقيبة صغيرة الصابون، والمشط، والفوطة الكبيرة، والمحكة، وألبسة داخلية نظيفة ثم أتوجه متلهفا إلى حمام سوق لاباستي.

الرجال قليل عددهم هنا، لست أدري كيف يستطيع الحمّام أن يأوي كل تلك الأعداد الهائلة من النساء في النهار، أين كن يجلسن وكيف؟.. المهم أن رائحتهن، وحناءهن، وأصباغهن، وعطورهن ما تزال تملأ المكان، وهذا شيء خارق الروعة.

أكاد أسمع أصواتهن وأرى حركاتهن، وهن يدلكن أطرافهن، ويمشطن شعورهن المبللة، فيغمضن عيونهن هكذا.. كي لا يؤلمها الصابون، بينما يطوين أفخاذهن تحتهن أو يربعنها أو يمددنها أمامهن، مبسوطة فوق أرضية الحمام الساخنة أو ربما يجلسن القرفصاء وربما منهن من تغتسل واقفة..

ألتفت فجأة لطيف تراءى لي بسرعة، كأن واحدة منهن تمر بي، تعبر المكان عارية إلا من قماش شفاف مبلل يلف خصرها ويلتصق بجسدها، كأنني أسمع خطوها.. وصداه. أتنحى لها قليلا عن مدخل الغرفة الساخنة الذي كنت أكاد أغلقه عرضا وطولا.. كأنها تمر، كأنها ترفع وجهها نحوي، تبتسم وأرد عليها ابتسامتها بأفضل منها.. كانها

تختفي كما جاءت. تاركة مرحا في خيالي.

يا لها من سعادة قصوى.. ألمس الزغب الكثيف على صدري.. تستيقظ رجولتي جامحة، أباغت الابتسامة وهي لاتزال تنتشر بسخاء فوق وجهي. عيناي تسبقاني إلى تفرس الأمكنة المنزوية والضاربة في العتمة، تحت مصابيح مدورة، خافتة مركزة على السقف وأعلى الجدران، تكاد تكون مطفأة.

أتقدم حذرا بقدمي الحافيتين بحيث تلتصق بطن القدم مني فتلامس الأرض الساخنة. أفضِّل المشي حافيا هنا. لهذا المكان رهبته. أكاد أن أبدي سخطي على هؤلاء الرجال الذين يدخلون مثل البغال بنعالهم المطاطية.. أكاد أن أصرخ في وجوههم لأوبخهم.. يا لهم من أجلاف.. لا حس لديهم ولا ذوق. ألا يفهمون أن النساء اللواتي اغتسلن هنا منذ ساعات قليلة وأثناء النهار ما زالت طاقتهن، ولمسات أجسادهن عالقة بكل شيء، وقد تركنُ روائحهن وأصواتهن اللذيذة في الجنبات، ترتسم على كل شيء وتركن آثارهن المرهفة على البلاط. كيف يدوسون كل ذلك هؤلاء البغال؟

- فليذهب المطاط العازل إلى الجحيم.. أيها الأجلاف!!

أعبر الغرفة الساخنة نحو الساخنة جدا، تقابلني المرآة الكبيرة التي بدأت تفقد صقلها من كثرة الرطوبة وتوارد وجوه النساء والرجال وأجسادهم عليها، أقف عند باب الحجرة الداخلية الندية، يقابلني مهرجان من البخار يلاعب المصابيح الخافتة، يتراقص فوق كل شيء، أتقدم بخطى متئدة على البلاط الساخن اللزج، أفتش بعينيّ العارفتين عن «جابية» في الوسط.. لست أدري لماذا تراودني فكرة أنه لا بد من أن أجملهن وأفتنهن وأشدهم امتلاء ووأشهاهن وأضخمهن عجزا، وأفخمهن صدرا كانت تجلس هناك بالوسط امام تلك الـ«جابية»

العميقة قليلا، على طرفيها حنفيتا الماء البارد والساخن يزينها كفان مفتوحان من رخام أبيض ناصع، مخصصان لوضع حاجيات الاغتسال.

أقرأ الفاتحة بخشوع، أجلس تاركا نصفي الأسفل ممدا بالأرضية الساخنة، محتكا بها مباشرة، ثم أحرر جسدي، وأسلمه لدفء لا مثيل له، الزغب الأسود ينفرمستقيماعلى مساحاته.. أبتسم لفكرة تعبرني أتصورني مثل قنفذ يشله الماء. أفتح حنفيتي الماء البارد قليلا والساخن كثيرا. أسبح في بخار كثيف دافئ،. يغطي كل شيء حولي ويعتم الرؤية. تهز أطرافي رعشة قوية لذيذة، ثم تسري في جسدي كله، بلذة لا توأم لها، تستمرلحظات وتعود مرات عديدة متواصلة، أغيب لساعة في صمت لا يكسره سوى صوت الماء السائل، صوت الماء يهمهم بكلمات مبهمة، ستصبح أوضح لو أنا أصخت السمع قليلا.. ربما.. أو ربما هو خيال خصب مورق يفتح على حلم فاتن.

أستفيق على آخر مغتسل يترك القاعة الساخنة، أستيقظ من حلمي الأسود اللذيذ شيئا فشيئا، أرش ماء باردا على وجهي، وصدري وأمسح به رقبتي وأشرب منه قليلا، ثم أغتسل بصابون سخي وأتوضأ، ثم أخرج خفيفا، خفيفا، في انتظار الجمعة.

- هذا مافعله ربي بي.

أخرج من حمّام لاباستي وكأن جناحين قد نبتا لي، يواجهني سوق لا باستيل، هادئا على غير عادة النهار، نائما، يعوم في الظلمة إلا من عمال النظافة، يهيئونه بكرم وسخاء لزوار الغد، وللباعة وأصواتهم العالية.

الباعة في سوق لاباستي؟ ربما هم نيام الآن، سيعودون غدا باكرا ينادون على بضائعهم بلا ملل، بل بكثير من التفنن والغبطة، أصواتهم أصبحت أليفة لي، كيف لا وأنا الذي كبرت على بعد أمتار منه. ينادون على السمك، وعلى الخضراوات والفواكه، وعلى الخبز،

وعلى حمالات الأثذاء وعلى النعناع وأشياء أخرى، إلا أنهم لا يفصحون أبدا عن الثمن.

أحد قدامى مهنة بائعي السمك، وهو صياد وبحار قديم، يعرفه الجميع ويحبون مرحه، يطلقون عليه لقب «الحوت». أعرفه منذ صغري لم يتغير أبدا، ربما طبيعته المرحة حالت بينه وبين الهرم والمرض والعجز، ما زال صوته يعلو على بقية أصوات البائعين، وما زالت طريقته المرحة في جلب الزبائن هي الأذكى، ولم تتغير على الرغم من تراكم السنين وكما تقول أمي: «العريف ما ينسى هز كتافو».

يعرف «الحوت» جميعُ رواد السوق رجاله ونساءه، يتفنن في اللغة، يموسق نداءاته ويثريها بالأمثال الشعبية، وكثيرا ما يدخل جملا قصيرة من أغاني الشيخة الريميتي والشيخة الجنية والشاب خالد وغيرهم من نجوم الطرب المحلي، فلكي يجذب الزبائن ويطمئن المنتظرين أمام بضاعته كي لا يلتفت أحدهم إلى غير واجهته يرفع صوته يغني كما اتفق:

- أنت قدامي وأنا موراك.. آالزين آاللي هناك.

مرت بقربه امرأة جميلة دون أن تنتبه له، ربما ساءه أن تمر دون أن تشتري سمكا من عنده فصاح، وهو يلوح بسمكة في اتجاهها.

- عندي هنا لاسيران.. لاسيران الحي.. آيا آيا.

كأنها فهمت ما يرمي إليه، وكأنها حورية البحر التي يقصدها، شزرته ثم واصلت سيرها بزهو، بينما توقفت عند بضاعته زبونة أخرى سمينة جدا، سألته ضاحكة:

- بشحال راك تبيع لا سيران، خويا الحوت؟؟

- باطل ورخيص.. شحال خصك نوزنلك.. كيلو.. زوج..

قنطار؟؟

وحين ابتعدت وهي تمسح العرق بيد وتدس بالأخرى بضاعته في سلتها وعلى وجهها علامات الرضى، صاح وهو يغمز للإسكافي الذي بجانبه، يقبض على المسامير الصغيرة اللامعة بين شفتيه قبل أن يغرزها في الحذاء الفتوح بين يديه:

- آيا لابالين السمين.. لا بالين الحي.. أيوا أيوا خويا العزيز.

يأتي الناس سوق لاباستيل، من كل حدب وصوب فيمتلئ على آخره ساعات الصباح خاصة وبقية النهار. يسير الناس فيه بالكاد في اتجاهين ضيقين اثنين لا ثالث لهما سوى الهواء، أما في الليل فإنه يبدو وكأنه ملعب خيل.

لست أدري كيف تضخمت في دماغي فكرة جهنمية، كانت كل يوم تراودني وتدور في ملعب رأسي، تكبر مثل كرة الثلج..

- أووه في الحقيقة لم أعد أطيق أن تذهب أمي وأختي إلى الحمام الخارجي.

كل يوم جمعة بعد الغذاء، تجرجران حقيبة ضخمة بينما تغطي أمي رأسها لافة شعرها المطلي بالحناء منذ البارحة ترتدي حائكها الأبيض، ثم تخرجان بخطى مسرعة ولا ترجعان إلا قبيل الغروب.. تعودان وهما في غاية السعادة ولكنني لم أعد أحتمل، فقلت لهما ذات صباح جمعة بعد تردد:

- ألا يكفي حمام البيت لكي تغتسلا براحة.. ثم لم كل هذا الشظف، اليوم كله ضائع بلا فائدة.

يبدو أن أمي تفاجأت من كلامي، لكنها حدقت مباشرة في عيني، بظل ابتسامة ساخرة قائلة:

- وعلاش.. حلال عليك حرام علينا، يا مسعود وليدي؟

باب الاشتياق وما جاوره

لا أحد. . إنه الليل. . يحرس نجومه (ربيعة)

- توحشتك يا اما.

كم أشتاق إليها أمي.. آه أمي.. لم أرها منذ فترة طويلة منذ أتيت إلى هنا. كلما تذكرتها أصير طفلا في جسد رجل مكتمل الذكورة، ويصعد الدمع من بئرعميق مجهول يترقرق في كياني لا أعرفه، يهجم حارا يحرق جفوني.

لم أرها منذ أن جئت وسلمتني الحاجة عذرا مفاتيح فيلّتها وتجولت بي نادي الصنوبرلتعرفني بالمكان.. ليت أمي تراه..

الوقت منذئذ يبدو لي وكأنه يمشي حاملا السلم بالعرض، لا أحب أن أتابعه كي لا يتعبني.. ثم أنا لا أحمل ساعة معي ليست من عاداتي. لكن الحق يقال فإن الليل يشكل المفصل الأساسي والوحيد في ساعاتي الأربع والعشرين.. الليل هو الوقت بالنسبة لي.

في الليل تستيقظ جميع حواسي، وتصبح أقوى، وتتضاعف طاقتي، ولأن الفيلّات القريبة من هنا قصيرة، وقراميدها مائلة، فإن النجوم تبدو واضحة وقريبة، أما في الشتاء فإن الليل هنا يشبه جنرالا مهزوما خلع نجومه.

لا خوف هنا على شيء من شيء، ولا على أحد من أحد، يبدو لي أحيانا أن الحاجة عذرا لم تكن تبحث عمن يحرس لها الفيلاّ، أرادت فقط أن تساهم في انتشال بائس مثلي من مخالب البطالة، ربما أشفقت على حالي وحال أمي، أو ربما أعجبت بوسامتي ومن يدري، وكم أتمنى أن يكون وهمي صحيحا. أما ضرورة أن أحرس الفيلاّ فأمر لي فيه شك. أعتقد أننا معا، الفيلاّ وأنا وكل شيء جامد ومتحرك هنا، تحت رحمة الحراسة المشددة، ثم ليس هناك ما يقلق من هذه الناحية، أشعر أن المنطقة كلها محروسة كما ما لم تحرس منطقة قبلها ومثلها، أبوابها مقفلة أمام الغرباء ولا يمكنك الدخول أو أن تحشر أنفك في ملمتر واحد من فضائها الا إذا تعرف عليك حراس المدخل الرئيسي المنعرج على شكل حرف «س» كثير المقالب، ولن تمر إلا إذا مسحوا وجهك بعيونهم، وتداولوا أوراقك الشخصية بينهم، وتناقشوا في أمرك، وأمر سيارتك، إن كانت لك سيارة. إلا إذا علموا أصلك وفصلك، وتاريخ دخولك العاصمة وتاريخ ختانك وإلى أين أنت ذاهب، وعند من، وكم ستظل، ومتى ستترك، وهل ستبيت، واين. وإذا ما جاوزت الخط وتركوك تدخل فاذهب وتجول حيث شئت من الهوى، فإنهم بتحركاتك دارون، وإلا فإنهم سيطلبون منك العودة وقد رسموا لك علامة نصف دورة، أوربما يتصلون بالشخصية المهمة التي أنت قاصدها، فتسمعها من خلال الطالكي والكي المرفوع صوته على آخره، تقول بعبارات كأنها مستهزئة ساخرة:

- آه جاي عندي جاي عندي.. نسيت أن أخبركم وأترك خبرا عنكم بارك الله فيك خويا.

ثم يفسخون لك الطريق، وبإشارة تختفي النتوءات المسمارية المغروزة في الإسفلت بعد أن تدخل مختفية في عمق الأرض، وتنزل

السلاسل المعلقة في الجهتين، وتصعد الحواجز الفسفورية، فتمضي في طريقك نحو الداخل، وكأنك المحظوظ الوحيد على الأرض، أو كأنك آدم راجع إلى الجنة بعد أن غفر الله لك وعفا عن خطئك الفادح بقضم التفاحة.

في البداية كنت أتساءل أحيانا.. بالله ما الذي يحرسونه هنا.. لا شيء يستحق كل هذه الحراسة المدججة.. لاشيء له قيمة سوى عذرا، وفيلّلة عذرا.

أحيانا أشعر أنني أنا الوحيد من يحظى بقيمة في هذا العالم المغلق، على الأقل أحاول أن أرضي امرأة ملكت علي نفْسي ونَفَسي، أنتظرها مثل فرح عارم يملك علي كينونتي، كم جميل أن تعمل شيئا تحبه.. أنا أحب أن أنتظرعذراي أحب أن أنتظرها.

أشعر أن الناس هنا على الرغم مما يبدو عليهم من بذخ وخروج عن المألوف، إلا أن ملامحهم تبدو مكلومة قلقة، أحيانا ألمح بعضهم يتجولون في الليل وحيدين، أو اثنين اثنين.

اقتربت من شخصين ذات ليلة، تعرفت عليهما، إنهما وزيران. كانا يتمشيان في الطريق الضيق خافت النور، ذاك الذي يفصل البنايات الصغيرة المرصوفة بعناية. لم ينتبها لوجودي. لست ذا قيمة بالنسبة لهما، لم يلتفتا إلي وكأنني ظل أو شبح، كدت أن أذهب في اتجاههما وأمد لهما يدي مصافحا ثم أخبرهما أنني أقيم هنا أيضاً في فيلّة الحاجة عذرا، ولكن الفكرة دارت معوجة في جمجمة رأسي، ثم اختفت نهائيا، حتى أنني لمت نفسي عليها.

- احشم شوية يا مسعود.. من أنت يا مسعود حتى تتجرأ وتقتحم خلوتهما، وتقاطع حديثهما الذي يبدو غاية في الأهمية والسرية من طريقة إطراقهما لرأسيهما من ثقل التفكير. إنهما بلا شك يبحثان عن

حلول لمشاكل البلاد التي لا تنقص، بل هي في تزايد مهول، أما أنت يا مسعود فلا شيء، أنت مجرد صفر على الشمال، أنت غريب ودخيل على العاصمة وعلى هذا العالم الذي لاتشبهه ولا يشبهك.

من طول إقامتهم هنا يعرفون بعضهم بعضا ويتحسسون بعضهم بعضا بقرون استشعار نبتت لهم للضرورة، يحفظون ملامح وأصوات وظلال وروائح بعضهم البعض. طبيعي فوجودهم هنا طويل وممتد في الماضي والحاضر والآتي. أما أنت فلا أحد يعرفك، حتى الحاجة عذرا عندما تحل لا تنظر إليك وتبادلك بالكاد السلام.

شوف يا مسعود... من رمية عين، وعن بعد أربع فيلاّت ومسبح، يدرك أحدهم أن المار من هناك هو وزير الزراعة الحالي، الذي كان وزيرا للصحة قبل ان يترك وزارة الصيد، أو أن ذاك الذي تلمع صلعته تحت المصباح هناك، وهو يفتح باب سيارته أو يغلقها، إنما هو وزير التربية والتعليم، الذي عين في مكان وزير الزراعة، الذي عين بدوره على رأس وزارة الاعلام، بعد أن عاد وزير الإعلام الى وزارة العدل التي ظل على رأسها طويلا دون أن تنجب هذه البلاد واحدا مثله. وأن وزير التضامن الاجتماعي، صعب عليه ترك وزارة المالية، ويقال إنه بكى لأنه طال بها حتى ربى عليها الألفة والكبدة، ثم ما لبث أن عين على رأس وزارة السياحة، لأن وزير السياحة في بلد يستطيع أن يعيش شعبه ملكا في بحبوحة من السياحة وحدها لو وجدت ولكنها لا توجد ولا يراد لها أن توجد.. ثم لماذا توجد لا أحد يحتاج إلى التيمم ما دام الماء حاضرا، الماء هو النفط الأسود وريعه الغزير.. المهم الكل يتشابه، أن تكون وزيرا للسياحة ليس بالضرورة أن تفهم في أمور السياحة والاستراتيجيات العالمية للسياحة.. لا يهم هنا أن تكون وزيرا للزراعة أو للتعليم أو المبادلات التجارية فاللغة نفسها

يمكنك أن تستعملها والمهم أن يرضى عنك المولى الحاكم الأوحد مدّ الله في عمره وبارك. وتظل عند حسن ظنه وتظل من صحابته الأتقياء به، لا تتنفس خارج القبة التي أنت فيها حتى لا تضيع حصتك من الحلوى.... هكذا لن يخرجك من جنته.

- شوف يا مسعود.. العدل موجود.. من قال إن لا عدل في البلاد فقد كذب ومن قال بغياب التداول على السلطة فقد فتن..

نعم، كما رأيت.. إنهم يتداولون بينهم على الحكم وعلى السلطة بعدل بينهم لا للدخلاء من أبناء الغاشي، لا بد من تضييق الدائرة، وإحكام غلقها في وجه أي تدخل خارجي من أبناء الغاشي الراشي، الخوف على الريع من كثرة التوزيع أو كما يقول المثل الشعبي:

«فرّق البحَرْ يولي سواقي».

- اغلق فمك يا مسعود.. ما يدخلو لا ذبان ولا دود..

باب مفاتيح رضوان.. والرضوان عليهم

ما هذا.. أَكُلُّ هذا الصنوبر الذي يحيط بك وتشعر بثقل الغربة؟ الغربة ثقيلة هنا الوحدة أشد ثقلا في هذه البقعة الفردوسية المغلقة المفصولة عنها في باقي البلاد، ربما لأنني لم أتعود على الفردوس بعد، ثم لأن الحاجة عذرا لا تزور فيللتها كل يوم.

أشعر بالوحدة والضياع لولا رضوان، رضوان أحد الحراس المهمين في المدخل الرئيسي الرسمي، وله جراء عمله ذلك أهمية وشأن كبيران. فمنذ أن علم وبالصدفة أننا من أبناء منطقة واحدة، لم يتوقف عن التقرب مني والحديث إلي وإبداء الكثير من المودة لي.. يحب رضوان التطرق معي إلى كل ما يربطه بطفولته وشبابه واكتشفنا أن لنا أصدقاء وأقارب مشتركين بين عائلتينا.. الأمر الذي قرب كثيرا ما بيننا.

صار رضوان لا يمر يوم دون أن يزورني.. أفهم شعوره فهو غريب مثلي وعلى الرغم من سمعته الممتازة في عمله ومكانته بين الحراس، إلا أنني أحسست أنه يعاملني مثل قريب من منطقته من حيه، ومن عائلته التي لم ير أفرادها منذ وقت ليس بالقريب، نتيجة طبيعة

عمله الحساسة، فالحراسة هنا لها شروطها الدقيقة والصعبة تأخذ وقته، نهاره وليله فلا يجد نصيبا منه على الرغم من حنينه إلى مدينته وإلى حيه وإلى أسرته.

رضوان يعمل هنا منذ سنوات عدة، علمت لاحقا أنه كان رياضيا متميزا، وكان حلمه أن يصبح بطلا عالميا في الملاكمة. يبدو أن حلمه تبخر بعد أن أغلقت في البداية أمام وجهه جميع الأبواب، مثلي.. ليجد نفسه حارسا بخمس نجوم مثلي.. بالكاد.

على كل حال أحسده على بنيته القوية، فمن حسن حظه فإن لجسمه علامات الرياضي، منتصبا، متينا، متماسك العضلات.

يأتي إلي رضوان، فنجلس عند مدخل فيللاّ الحاجة عذرا، نتجاذب أطراف الحديث، ندخن ونحتسي فناجين القهوة، يسألني عن أماكن عدة علّمت طفولته، ووشمتها بذكريات جميلة. يسأل عن مقاهيها القديمة والمستجدة، وأزقتها وأحيائها وشوارعها.

يبدو أن شوق رضوان وحنينه إلى أهله في حالة اشتعال دائمة، وقد وجد في مجيئي وإقامتي هنا راحة نفسية بحيث أنني أملأ الفراغ الذي يتركه بعده عن عائلته.. اقترحت عليه في بداية معرفتي به الذهاب خصيصا لزيارة أهله وأردفت بأن المواصلات سهلة وسريعة ومريحة، وما عليه إلا أن يقرر، لكنني الآن، مثله، وبعد مضي وقت ليس باليسير لا أستطيع أن أتنقل لرؤية أمي وزيارتها على الرغم من المواصلات السهلة والسريعة والمريحة..

أتأكد يوما بعد يوم أن الالتحاق بالعاصمة بمثابة الدوران في طاحونة فارغة لا تنتهي إلا بانتهاء العمر، وأفهم لماذا لم تعد الحاجة عذرا يوما إلى الصحراء.

- الله ينعل هاذ الخدمة.. ماعندكش الوقت حتى باش تحك

راسك. شوف مسعود خويا اللي خبزته في لاكابيطال، يقعد قاع عمره فيها..

رضوان يرتاح لي، ويستأنس بوجودي، وأشعر أنه يثق بي. تعددت زياراته لي، حتى أن كلما حلت فترة من راحته التي لا تتعدى نصف الساعة، لا ينسى أن يمر بي، ويسلم علي ثم يمضي. إنه ابن مدينتي.. أشعر أننا غريبان فعلا.

وكل غريب للغريب حبيب.

- وشكون اللي مشي غريب في العاصمة يا مسعود خويا..

قال لي مرة ضاحكا بمرارة..

معه حق.. العاصمة بلاد الغرباء.

لم يعد رضوان يسألني ويستمع إلي مثلما كان يفعل في بداية تعرفنا وكأنه كان يمتحنني، فقد انطلق لسانه واندلق، ولم يعد يرتاب مني، بل يخفض الصوت أحيانا حين يريد أن يفضي إلي بالأسرار الكبيرة.. أحسست كأنه يبحث عن توازن فقده منذ وقت طويل فوجده فيّ، أنا الأخ الذي هبط عليه فجأة من حيث لا يدري.

تفاجأت في الهدوء المغشوش لدى رضوان، تفاجأت فيه وفي نظرته الغاضبة الساخرة إلى العالم، ثم إنه يستعمل بكثرة الكلمات النابية التي أتى بها من مدينتنا.. ومنها أخرى جديدة لا تستعصي على الفهم.. يا إلهي لم أكن أعرف أنه متذمر إلى هاته الدرجة، ممتلئ القلب حتى التمام بهذه الطريقة.

يأتي رضوان في أوقات فراغه القصيرة، يضع جهاز اتصال الطالكي- والكي الذي لا يفارقه على الطاولة الصغيرة، ويخرج علبة سجائره، ثم يجلس فارقا بين رجليه كأنه عسكري في حالة تأهب حتى في وقت الراحة، أو ملاكم في استراحة بين جولتين، في انتظار

صفّارة الحكم..

حين قدم لي سيجارة لأول مرة، رددته بأدب، وقد وضعت يدي على صدري للدلالة على الشكر والاعتذار، وأخبرته أنني سبق وأن قررت ترك التدخين منذ ستة أشهر ولا أنوي العودة إليه، إلا أنه ودون أن ينظر الي، وكأنه لم يستمع إلى شرحي، ظلت يده ممدودة نحوي بالسيجارة، يقربها أكثر من وجهي وهو يقول بصوته الجهوري بنبرة استنكار وسخرية:

- هاك يارجل.. اكمي اكمي.. وخليها تكولي.. واش غادي تدي من هاذ الدنيا..

كنت أنظر بشغف إلى السيجارة الممدودة إلي، كانت رائحة التبغ الشهية تنطلق الى خياشيمي، وكأنها تتسرب إلى خلايا دماغي.. كم هي شهية رائحة التبغ في هذا المكان المهوء الساكن، خاصة بعد شوق ستة أشهر. التقطتها من بين أصابعه شممتها ثم بدأت أنظر اليها بتمعن، أيقظتني ضحكة رضوان وهو يمد لي شعلة نار القداحة:

- فقت لك فقت لك.. كنت تستنى غير فيها يا واحد الحلوف!!

ثم انطلقت منه ضحكة أخرى مجلجلة بينما كنت أجذب نفسا عميقا وأنا ألعن فطام الستة أشهر.

جلساتنا ليست طويلة، ولكنها مكثفة، بين كلمة وأخرى، ينعق جهاز الاتصال الطالكي-والكي. أغلب الوقت لا يرد رضوان على النداءات بل يكتفي بإلقاء نظرة من جانبي عينه عليه، على الجزء المشتعل من الجهاز، يتردد الحرف الأخير من الجملة المعلقة في فمه قليلا، ثم ينهي كلامه دون أن يقطع ذلك عليه حبل أفكاره.

الحقيقة أن رضوان أصبح مؤنسا لوحدتي، ربما هي دعوات أمي التي كانت دائما تتأسف لأنها لم تنجب لي أخا يسندني في الأوقات

العصبية كما كانت تقول دائما.

كأن رضوان أخي وملاذي في هذه المدينة المغلقة الغريبة، إنه يكبرني بسنوات، ولأن الحياة لم تكن رحيمة به كثيرا، تعلم كيف ينتصر في العراك الذي فرض عليه مبكرا، تعلم التجلد والقوة، وتعلم الصبر، وتعلم كيف يكتشف معادن الناس بخفة وذكاء. قضى نصف حياته خلف أبواب الحراسة. من حراسة باب مدرسة، إلى حراسة بنك، الى حراسة سجن، إلى أن وصل إلى ما هو عليه، يحرس كبار القوم، يضعون بين يديه طمأنينتهم، إن تعروا أو لبسوا، أو قاموا أو ناموا..

الحراسة أصبحت طبيعته الثانية أو قل الأولى. ذاكرته العجيبة تلتقط أدق التفاصيل وترتبها.. كل شيء يتململ يدركه بحواسه كلها، ويدرك أيضاً مزاج المارين به من ملامحهم ولفتاتهم ومن حركاتهم وسكناتهم، حتى وإن ارتدوا أغمق النظارات السوداء وأوسعها تغطي نصف وجوههم.

رضوان المسؤول الأول على الباب الخارجي الرسمي الكبير لمدينة الأحلام هذه، التي لا مدخل لها سواه وليس لها معبر ولا ممرآخر غيره. من يدخل إلى الجنة عليه برضوان.

يقف رضوان على رأس مجموعة كبيرة من الحراس المؤقتين منهم والدائمين، والذين هم في إجراء دورة تدريب، جميعهم يتتبعون حركاته وينتظرون أوامره، يعرف رتب المارين به وتراتبيتهم، يعرف سيارات كل وزير، ومسؤول مهم، وأقل أهمية على الرغم من تشابه ألوانها الغامقة، ويعرف جنسية جميع الأعلام التي تتقدم السيارات الدبلوماسية حين تدخل أوتخرج.

يختبئ كبار القوم خلف زجاج السيارات الرسمية الغامق، يجلس

الواحـد منهـم فـي مكانـه المخصص له، بالمقعـد الخلفي على اليمين من سـائق السـيارة الرسـمية الفخمة، مباشـرة خلف حارسـه الخاص المسـلح الجالـس الواقـف متوثبـا، يدير عينيه بسـرعة فـي محجريهما فـي كل الاتجاهـات، وكأنهما غرابان ينزلقان على صفحة جليد. وبعد تجاوز الباب الكبير والسـياجات، يضع نظارته الشمسـية هو أيضاً، يده اليمنى على حزام سـلاحه المعلق بإحكام بيسـار خاصرته، بينما يضع يده اليسـرى على مقبض الباب بالمقعد الأمامي توجسـا لكل طارئ، ومقاوما للسرعة الفائقة التي ينطلق بها الموكب مطلقا زماراته إنذارا متعاليا، ومحتقِرا لسـيارات العامة، آمرا لها بالابتعاد عن طريق السـيد المهم.

رضوان يعرفهم واحدا واحدا وواحدة واحدة.. يعرف أسـرارهم وأسـرارهن الخاصـة جداً، مـاذا يأكلون وماذا يشـربون، ومتى ينامون، ومتـى وأيـن يسـهرون، ومـن يأتي لزيارتهـم خلف أسـتار الليل، ومن يخـرج مـن عندهـم قبل انبلاج الصبـح، وحيث يقضي كل واحد منهم ليلته خارج الأسـوار، أو داخلها.. ويعرف عدد الكراسـي والطاولات والأمكنة المهيأة لكل واحد في المطاعم الباذخة الحالمة القابعة أمام البحـر خلـف الفيـلّات، يأتيهـا كل مـا تحتـاج إليه من طعام وشـراب ووسـائل الترفيـه جاهزامـن الخـارج بالعملـة الصعبـة. يعـرف رضوان حتى أنواع الموسـيقى التي يطلبونها في الأماكن الخاصة بهم، ويقول إن أغلبهم لا ذوق لديهم، ولا يهمهم سماع شيء سوى الحديث عن الصفقـات والمقايضـات والرشـاوى والعمليات، ويقـول إنهم عادة ما يبلغون حالة مفرطة في السكر وتكثر حالاته خاصة كلما بدأ الحديث عـن اقتـراب تجديـد حكومـي مرتقـب، وهو ما لم يحـدث أبدا فنفس الوجوه باقية منذ أمد إلى أمد..

كأنما رضوان كان يبحث عن واحد مثلي، كأنما تنفس الصعداء حين وجدني أخيرا، أنا الغريب ابن مدينته التي لم يرها منذ زمن، أنا صورته الأخرى المشحونة بحنينه إلى أهله وطفولته وأيامه البريئة بها، أضفى صورتها علي وأحاطها بإطار وجهي، أنا الغريب الوحيد المعزول في هذا العالم الذي لا أعرفه، بينما هو يفقه تفاصيله، أنا الوجه الأخر للعملة..

نعم حظيت بثقة رضوان، تأكدت أنه اطمأن إلي بدون حدود وكأنني أخ له، حين تجاوز الحواجز ليفضي لي بسر علاقته بزوجة مسؤول مهم، ويسرد حكايته بمتعة، ثم بمرارة، ثم بغضب، ثم بندم، ثم بسخرية.

جاء رضوان ذلك المساء. وكأنه متعب أو به قلق ما، كنا نتناول القهوة وندخن السجائر، شربنا قهوتنا معا في الحديقة التي تحيط بفيللاّ الحاجة عذرا وإذا به يقول:

- أتعرف مسعود خويا؟

- ......

- أكرههم هؤلاء أكرههم جميعا.. السراق أبناء السراق.

تجمد الدم في عروقي، وانعقد لساني، إلا انه استمر في الكلام الذي يشبه الهذيان..

- لو أنني فقط أستطيع قلب كل شيء.. هؤلاء السفلة، أن أطلق عليهم قنبلة ذرية.. كم أتمنى أن أصفيهم جميعا.. مللت من الكذب والنفاق.. أنت مسعود خويا قلبك صاف لا تعرف هذا العالم.. أنا رضوان خوك.. نعرفو بزاف..

منذ عشرات السنين أقربهم.. وكل سنة أفقد الثقة بهم وتشتد كراهيتي لهم وحقدي عليهم، تضحكني تصريحاتهم كل يوم في

الجرائد والتلفزيون ووسائل الدعاية المختلفة الأخرى، يتبجحون إنهم في خدمة الشعب، واش من شعب.. وعلاش هما يعرفوه؟؟ الشعب الذي يتحدثون باسمه وينفخون أوداجهم كذبا ورياء ويدعون أنهم يرعون مصالحه.. هل يعرفونه، وهل يعرفون كيف يعيش..؟! والله يا خويا مسعود.. هم لا يسهرون سوى على مصالحهم ومصالح أولادهم وذويهم.. لا يهمهم سوى جمع المال والعقار الذي يستفيدون منه في البلد وفي خارج البلد، وتسمين حساباتهم البنكية بالخارج، وضمان مستقبلهم ومستقبل أبنائهم وأحفادهم بالمال العام..

سكت قليلا احتسى من فنجانه الشراب الأسود الذي برد ثم واصل:

- والله يا خويا مسعود.. يا دين الرب.. لو كان يجي اليوم اللي نقدر نقلب الطنجرة على ريسانهم أولاد القحبة.

بدأ قلبي يشتد نبضه، خفت فعلا من أن يسمعنا أحد.. بدأت أتلفت يمينا ويسارا.. سيكون محزنا أن أجد نفسي في وضع لا أحسد عليه.

دار بمخيلتي سيناريو سريع وحزين، بطلاه الرئيسيان بلا منازع أنا ورضوان.. هو بمصير مجهول لن يعلمه غير الله، وأنا سأبدأ بدور ثانوي صغير مطرود خائب عائد إلى شقتنا البئيسة، لا صوت يعلو بها على آلة الخياطة تجلس إليها أمي لكسب قوت يومنا.

والحاجة عذرا؟! كيف ستكون ظنون الحاجة عذرا بي، ستقول حتما إنها «أكرمت اللئيم فتمردا».. وسيكون معها الحق.. أنا لا أريد تمردا ما أنا إلا إنسان مسالم أبحث عن العيش بسلام، وأظل أدعو للحاجة عذرا لأنها أكرمتني إذ منحتني هذه الفرصة في العيش بعرقي بدل الدوران في الفراغ.

ما لبثت أن أحسست بالخزي.. فرق صريح بيني وبين رضوان.. رغم سؤدده لم ينس من أين جاء، ويقول رأيه وموقفه بصراحة، شجاع وأصيل، أما أنا فمنافق حقير أخشى ضياع امتياز حارس بائس.. احتقرت نفسي بينما تعاظم رضوان في عيني.. حاولت أن لا أكون قاسيا مع نفسي.. فتحت قوسا وأضفت (رضوان يعرف خفايا هذا العالم الذي أجهله، ميزانه دقيق وحساس أما أنا فلا أرى إلا واجهة ما يراه هو بعين مجردة يتلاطم في الداخل) ثم أغلقت القوس المريح

يخيفني رضوان حين يصرح على حين غرة بأشياء خطيرة كهذه.. أحيانا يلعب بي الظن فأعود وأشكك في ثقته بي من جديد، وأرجع لأقول ربما هو بالأحرى يريد أن يمتحنني أكثر، أن يكشف دواخلي، أنا الفقير الغريب الآتي إلى هذا عالم المخملي المغلق، المليء بالأسرار والأشياء الممنوعة على العامة من الناس مثلي، لعله يريد أن يعرف رد فعلي فجأة وما هي وجهة نظري في ما يجري في البلد. أو ربما هو يريد أن يعلم هل أنا جاسوس مدسوس من جهة عدوة خارجية ترتب مؤامرة كونية على وطننا السعيد، البلد النائم في العسل. أو ربما أن الحاجة عذرا كلفته أن يفيدها بمعلومات إضافية عني..

بعد هدأة الوساوس، وعودة صفاء الذهن، ومرور الزمن، وإصرار رضوان على مفاجأتي كل مرة بفصل جديد من تذمره، اقتنعت بعد مدة أن رضوان غاضب فعلا، فلم أعد أشك في صدق ما يقول، ولم أعد أتفاجأ حين يعلن كل مرة كراهيته وحنقه على جميع الشخصيات المهمة التي يحرسها ليل نهار، ويحرص على سلامتها وسلامة أسرها ومن معها.. اقتربت من عالم رضوان ففهمت تناقضه وثورته على نفسه وعلى غيره.

يتكلم رضوان فيحرك كل أجزاء وجهه الكبير، بحنكين منتفخين

تتماوج منه الحواجب والعينان والأوداج، شفتاه الغليظتان تذهبان في كل اتجاه، وحين يضحك ونادرا ما يفعل فإن أسنانه البيضاء الكبيرة تتعرى نهائيا، وتترك سنيه الأماميتين النافرتين تلمعان بحرية في الضوء.

فاجأني رضوان هذا المساء قائلا:

- خليها تدخل المسكينة في الكراج.

قالها وهو يشير برأسه فاستدرت، فإذا بقطة حامل تدور حولنا، تتردد في الاقتراب منا، وقد بدا عليها التعب من حملها المتقدم، وكأنها على وشك الوضع.

كيف لهذا الرجل الذي لا يسير الا مسلحا وغاضبا ومتلفتا وناقما ومتوعدا، أن يرق قلبه لقطة ضائعة على وشك الوضع. حاولت أن أقهقه إلا أن ملامحه ظلت جادة عيناه ثابتتان يخترقان بؤبؤي عيني، وكأن ما قاله أمر لا بد أن يطاع.. لم أتردد في إسماعه صوتي وأنا أحول نظري بينه وبين القطة:

- لازم لازم عندك الصح رضوان خويا.

قلت له وأنا أحاول النهوض لفتح باب الكراج قليلا، إلا أنه أردف على وقع شبح ابتسامة ظللت محياه:

- بارك الله فيك خويا مسعود.. هاذوك اللي يصح فيهم الخير، أما بنو آدم نكارين مكارين الله يمحقهم.

رن جهاز الطاكي- والكي الموضوع فوق الطاولة قبالته، يرد رضوان بصوت فيه نبرة سلطة، فهمت أن جماعته يسألونه هل يسمحون بالدخول لسيارة تسوقها امرأة لم يعرفوها من قبل، ثم دار حديث مقتضب بينه وبين محدثه.

- واش نوع ورقم السيارة

- ....

- عند مَنْ جايَّة؟؟؟

- ....

- صابغة شعرها طاكسي؟؟

- ....

- إيه نعرفها خلي الهم تفوت.

- ....

- ماتنساش تسألها شحال غادي تقعد.. اسمعت؟؟!!

- ....

وقف فجأة منتصبا يعدل من معطفه، دس مسدسه وجهاز الطالكي- والكي، ربت على كتفي بأخوة ثم ذهب.

رافقته حتى المدخل البراني للحديقة.. تنفست عميقا، بينما جيش من المشاعر المتضاربة تتلاطم داخلي، ودوخة خفيفة تنتابني.

مستندا إلى دفة الباب أنظر إلى القطة مليا كانت بدورها تنظر إلي وكأنها خائفة.. رق قلبي.. ذهبت أجلب لها طعاما وفراشا.

يبدو أن رضوان لا يعرف فقط البشر في هذه الجنة المغلقة بل أيضاً أحوال حيواناتها.. غريب وقريب ومرهف ومخيف رضوان هذا.. بصّح فحل بن فحل.. ولد بلادي وحومتي.

- ياه.. لو كان برك نقدر نفرغلو اللي في قلبي!!

منذ ان التقينا وفي خاطري رغبة واحدة.. أتوق إلى الحديث معه عن الحاجة عذرا.. كل مرة أحاول أن أبدأ الكلام فيرجع الهواء إلى صدري وأطبق شفتي واصمت.

كيف يمكنني أن أتعلم منه طريقته العفوية الشجاعة، يخبرني

بغرامياته دون أي حرج، وكأن الأمر لا يستحق أدنى تردد، لكن كلما اقتربنا من الموضوع الذي يغريني بالسماع والكلام فيه إلا وغير اتجاهه. لماذا يتهرب رضوان من الحديث عن الحاجة عذرا، لماذا؟ هل لأن قلبه ممتلئ حتى التمام بما رآه ويراه وسيراه في مهمته الصعبة الغريبة هذه.. أم أنه لا يريد أن يفتح معي موضوعا يعتبره حساسا.

أحتاج إلى الكلام، ضاق قلبي بسري، قلبي الممتلئ حتى التمام بها، أطمع في فك أسرارها، وفك حصارها لي، بهذا التمنع والتجاهل لي، وبصمتها الذي يمنعني من الاقتراب منها ومن عالمها.

أين أجد القدرة على مصارحة رضوان بانجذابي القوي لهذه المرأة، لكنني أجدني أتردد، ثم أنثني لأنني لا أضمن عواقبي من رد فعله المجهول..

حقاً لست أدري، هل تراه سيضحك ملء فيه ساخرا مني، أنا الواقع في غرام امرأة تكبرني، بينما يتزاحم من هم في سني وأكثر في علاقات مع فتيات غضات غريرات، أم أنه سيفهمني وسيطيب خاطري، وسيخفف ثقل صدري مما يحمله قلبي من ضياع في غربتي..

أليس رضوان ابن مدينتي وكأن بيننا قرابة دم، ألم يشعر يوما بما أشعر به من وحدة وغربة!!

أُمنّي النفس أنني سأفعل في المرة القادمة، سأتشجع وأسأله عنها.. على هذا الضباب من حولي أن ينقشع وبسرعة، علي أن أعرف رأسي من رجلي... آه ياقلبي.. يامجنون عذرا.

متى يشتفي مِنكِ الفؤادُ الْمُعَذَّبُ وسَهْمُ المنايا من وصالِك أقرَبُ
فَبُعْدٌ ووَجْدٌ واشتياقٌ ورَجْفَةٌ فلا أنتِ تُدنيني ولا أنَا أقْرَبُ
فَلَوْ كان لي قلبانِ عشتُ بِواحدٍ وأَفْرَدْتُ قلباً في هواكِ يُعذّبُ

طاح الليل واشتعلت الأضواء الزاهية في كل مكان، لن أدخل هذه المرة لأنام.. ماذا لو ذهبت لاكتشاف ما يحدث في هذه الجنة مترامية الأطراف التي يملك مفاتيحها رضوان ابن مدينتي، جنة سكانها رضوان الله عليهم.

سأذهب في رحلة اكتشاف عالم ألف ليلة وليلة كما وصفه رضوان.. معه حق:

- روح شلل عينيك شوية مسعود خويا.

.. معه كل الحق.. علي أن لا أظل غارقا هنا.. أذهب في رحلة اكتشاف.. ربما سأشعر بأمان بعد معرفة ما يجري حولي.

باب البذخ وما جيرانه

للصمت اللئيم أيضا . . ذاكرة!!

تستيقظ الحاجة عذرا باكرا تتململ في فراشها تتنهد.

- مسعود.. مسعود!!!

تـدرك مـا بـه.. نعـم تدرك ما به.. وكيف يخفى عليها شـيء مثل هذا، وهي ابنة الشمس الوضاحة الفضاحة.

يعجبهـا ذلـه وخضوعه، وعينـاه اللتان تتابعـان حركاتها، وتعدان خطواتها.. مسعود هذا الشاب الذي ما أن رأته في العمارة التي اشترتها وطلبت التعرف على سـكانها حتى شـبت فيها ناره، حالما اصطدمت بنظرتـه المائلـة وكأنـه قـط صغير ضائع يتضرع لهـا لتلتقطه من مصيره المجهول، شبت ناره وانتهى الأمر لم تفكر في شيء آخر خارج ما هو عليه، لم يخطر بالبال سنه أو أصله أو فصله، النار التي اندلعت وانتهى الأمر لم تترك إلا الهشـيم حوله.. لا شـيء له قيمة خارج حدود تلك النظـرة المسـتنجدة.. تداخلـت صورتـه بصورة عبده.. يا له من تشـابه بينهما.. إنه يشـبه عبده ربما كانت النار تسـتمد حطبها من هذا الشـبه الغريب..

نعم لأول وهلة رأت فيه عبده.. عبده الذي تيمته وعذبته.. عذرا

تحب أن تعذب عاشقها قبل أن تسعده:

على مهل..

تربّي نارَ لوعته،

على مهل..

تعصر قفافَ الكرز..

لتطفئها.

أن تقلقه أن تملأ كيانه كله، حتى لا يعود يقوى على جر تفكيره واهتمامه وطاقته إلى أمر آخر، غير البحث عن الظفر بها.. هن هكذا الملكات لا يقنعن بالأنصاف، وفي قرارة نفس عذرا سليلة الملكة تينهينان لا تغفر لنفسها أن تكون أقل منها، بل من واجبها أن تكون في المستوى والصورة المثلى..

عذرا لا تكتفي بنصف اشتهاء، ولا يُرغب فيها كما اتفق.. لا.. إنها لا ترضى إلا بقلب كيان من يقترب منها رأسا على عقب، فتغير نبضه، وتسارع أنفاسه، وتشتت أفكاره.

- أنا التي أختار.. أنا بنت الطوارق.

لمحته، كان يقف مع بقية السكان الذين اجتمعوا في مدخل العمارة للترحيب بالمالكة الجديدة.. كان الجمع من نساء ورجال يحيطون بها سعداء، مستبشرين خيرا بأخذها مكان القاضي قدور.. يبدو عليهم الارتياح وكأنهم انعتقوا من ربق قديم ثقيل.. كانوا يبتسمون لها بفرح تشع من وجوههم السعادة بها بوجودها بوقفتها بحضورها، كأنما هو حفلها.. كأنما هي العروس.. إذن فلا حفل دون اختيار، في عرفها هي الطارقية..

ألقت نبالها دون عناء، كانت تعرف أنها ستصل حيث أرسلتها.. أمرتها.. حيث يقف هناك بجانب أمه وأخته، مترددا في الحديث إليها..

عيناه لا تبرحان وجهها، تبعثان من حين لآخر ذبذبات خفيفة تلهيها عن أحاديث الود والترحيب للسكان الذين يحيطون بها، فتلتفت حيث هو فيشيح بوجهه.. وحين همت بالرحيل لحق بها.. كانت تدرك أنه سيفعل ذلك.. كان صوته، الشاكية نبراتُه فاضحة له كأنه يئن.. جمل قليلة تحركت بينهما غيرت مصيره..

أثارها ذلك الشبه بينه وبين عبده.. نعم إنه يشبه طليقها الأخير عبده الذي لم يتوان في حملها مثل ريشة ثمينة نادرة تحت جناحه بعد أن أصر على الزواج منها بسرعة ليطير بها إلى بلاده البعيدة.

كأنه عبده.. كأنهما صُبّا في قالب واحد.. هو.. طوله، لونه، ابتسامته، الزغب الخفيف الذي يطل من خلف رقبته.. يخلق من الشبه أربعين.. الناس قوالب..

عبده.

لم يكن سهلا على عذرا ترك البلاد، ولكنه عبده الذي تعلق بها مثل أمير طفل، مدلل.

- ثم ماذا.. لا بأس.. أليس هو أيضاً ابن الصحراء مثلنا.؟

هكذا أقنعت نفسها وقومها قبل أن يأخذها عبده إلى بلاده وأهله..

لم يكن يشبع من النظر إليها، وتأمل حركاتها وسكناتها، لم يكن يمل الحديث إليها.. كلما نطقت اقترب من وجهها، فكأنه يتلهف لشرب كلماتها.. كانت عذرا فتنته ومبتغاه.. لم يكن يفهم أسبابه بل لم يكن يرغب في فهم ذلك، كان ممتلئا بها مستسلما والسلام.

لم تجد الطارقية القادمة من صحرائها في صحراء عبده التي حدثها كثيراعنها، شيئا يفتنها.. لم تجد عذرا شايا أخضر ونعناعا، ولم

تجد جلسات الأنس المسائية المليئة بالصفاء والضحكات، لم تجد أنين الإمزاد بوتره المنفرد الفريد، وبوحه بالأسرار الأكثر إثارة. بل وجدت بنايات شاهقة وقصورا تنام وتصحو عائمة في هواء اصطناعي بارد مكيف، وجسورا وطرقا ملتوية ومستوية ومتقاطعة، وثراء وافرا وزوجة أخرى لعبده وبنتين له.

ضاق الصدر منها وتكدر الخاطر، لم تفلح السنوات الخمس التي قضتها هناك أن تنجرها، أو تحفرها، أو تفصّلها على قياس جديد.. جميع محاولات عذرا للتأقلم ولو قليلا مع عالم عبده، باءت بالفشل الذريع. لم تفلح في تغيير معدنها. وكاد انهيار عصبي أن يقضي عليها، لا دواء له ولا سبيل للشفاء منه غير العودة.. هكذا نصح الطبيب. ظل عبده عاشقا متيما.. في حركاته وسكناته، ودودا، قريبا من عذرا، يحاول أن يؤنس غربتها ويؤثث وقتها، لم يدخر جهدا ولا طاقة ولا مالا لذلك.. قربها من عائلته، فأخذها لتزور قصور أهله واحدا واحدا. كل واحدة من أخواته، تحرص على أن تجعل عذرا تتفرج على جميع غرف قصرها وصالاته واحدة واحدة. الغرف والصالات والردهات، تصر كل واحدة ألا تشبه في ديكورها الأخرى..

بكت عذرا حين زارت قصر أم عبده المتوفاة، وجدت خيمة منصوبة داخل القصر، وكأنها تشهد على عالم منقرض.. أخبروها أن أم عبده بعد الانتهاء من تشييد القصر لها، أصرت أن تنقل خيمتها إليه، وترفع أوتادها داخله كعادة رفع الخيام، علمت أن أم عبده لم تكن تبرح خيمتها رافضة أن تؤثث وتكيف مثل باقي القصر، كانت تدري أنه سيصعب عليها ترك خيمتها، ولن تستطيع العيش خارجها فتم نقلها إلى القصر كما هي، ظلت أم عبده فيها لا تبرحها حتى رحيلها.

ترتاح عذرا كثيرا لسعدة إحدى أخوات عبده، ربما لأنها أقرب منها سنا، أو لأنها لطيفة ولبقة وصريحة ومحدثة بارعة. أو ربما لأنها تبدو امرأة يحيط بها الكثير من الأسرار.

سعدة جميلة فاتنة، ترفل في أغلى ما صنعته الدنيا من حرير، إلا أن بريق حزن يسكن أعماق عينيها ونبرات صوتها، تفضي لعذرا بمزيج غريب من الكبر والأنين في صوتها، بينما هما تتجولان في أرجاء القصر:

- الروتين أعدى أعدائي يا عذرا.. لذلك اشترطت أن تكون كل صالة في قصري من توقيع مهندس عالمي مختلف.. ومن تلبيس وتأثيث مشاهير الديكور في العالم.

كان الترف الواسع يطل من كل شيء.. من الثريات الفخمات غرائبيات الأشكال، النازلات كرذاذ زجاج مصهور منثور حتى أرضية الرخام الأخضر. الثراء يفوح من طبقات قماش الستائر النادر، أقمشة شفافة وسميكة تغطي بعضها البعض في تدرج متناسق من الألوان والأحجام، ربطت بأناقة بأحزمة مذهبة ومفضضة، كأنها عرائس معلقة. الثراء يطل من الأرائك المتجمعة هنا وهناك مثل نساء جالسات يوشوشن الأسرار، ويفوح من الأسِرَّة الفخمة، والخزانات ذات أبواب وفتحات على شكل كوى صغيرة منقوشة بأشكال منسجمة، وأخرى شاهقة تكاد تصل السقف.

عنوة تفتح سعدة الأبواب لتطل الألبسة الفاخرة المعلقة وصفوف الأحذية الكثيرة المرصوفة. تلمح عذرا كل ذاك دون انبهار.. تمتد الزرابي منبسطة على مساحات واسعة، وأخرى متدلية تزين فضاء المكان، حتى لا يكاد يُرى جدار واقف.. بينما الرخام الأبيض الأصلي يكاد يفرد أجنحته ويطير مثل الحمام على السلالم.

سعدة أخت عبده من أمه وأبيه، جميلة، بأنف صغير قُد بأصابع ومبضع جراح بارع، وشفاه ممتلئة حتى التمام، وخدود مرفوعة وكأنها مشدودة بصمغ، وخال اصطناعي يتربع بشموخ عند طرف أنفها، لا تفتأ تنظر في المرايا الواصلة بين مساحات القصر في طريقهما، وتعدل من خصلات شعرها الأسود البراق، حركاتها البطيئة على قدر كبير من الرشاقة.

كم من متعة فائقة تجدها سعدة وهي تحدث عذرا بهدوء وأناقة عن أثاث قصرها المستقدم من إيطاليا، وفرنسا، وإسبانيا، وعواصم أخرى.. تتكلم بغنج شديد فيخرج نصف صوتها من أنفها الصغير بينما يتعثر النصف الآخر في ممره من حنجرتها حتى شفاهها مرورا بأسنانها البيضاء المتراصة بعناية فائقة.

وقفت سعدة عند الآلات الكثيرة التي تملأ صالة حمامها الخاص المتشكل من غرف متعددة كل واحدة متخصصة في الاعتناء بجزء من جسدها، يشرف عليها متخصصون أجانب، كانت تشرح لعذرا فوائدها الجمة، ثم فجأة مالت على إحداها بحنان:

- هاذي المفضلة عندي يا عذرا.. ما كان عندي خصر قبلها.. والله..

كم تبدو سعدة على هناء، وهي تنشر ممتلكاتها، وتعدها أمام أعين عذرا التي بدورها، وبشق الأنفس، تحاول أن تركز انتباهها وتنصت للتفاصيل الكثيرة الدقيقة الواردة في كلام سعدة، وتستفسر أحيانا عن هذا أو ذاك، لكن انتباهها كان يفلت منها هاربا، فمن حين لآخر تسهو وتغيب، وتبتعد باحثة عن الصحراء فيها، وفي داخل هذه المرأة المقابلة لها، التي نضت عنها ثوب الشمس والرمل بسرعة، ومن

زمن قريب، طالما سمعت عبده يسميه بزمن النفط..

كيف استطاعت الصحراء أن تخرج بصهدها وتفاصيل يومها من قلوب الناس، بهذه السرعة.. فلم يعودوا يحنون إلى خيامهم، وحياتهم السابقة، يسقطون في عشق الجدران السميكة والمكيفات، والآلات والسيارات الفخمة الضخمة، ويعيشون داخل عالم اصطناعي محكم الغلق.

انتبهت عذرا إلى أنها تتزحلق فجأة فوق بقعة سوداء لزجة براقة.. كانت الأرض كلها تحت رجليها سوداء.. السائل ذو الرائحة النفاذة يصعد قليلا قليلا في هسيس كأنه فحيح أفعى، يصل حتى الركبتين، ثم حتى منتصف الخصر.. أصبح المشي عسيرا.. الخطوة الواحدة بألف جهد.. صعبة هي الحركة. جسد عذرا كله أطبقت عليه اللزوجة السوداء اللماعة. تشعر به يملأ ثقوبه، يتعثر السائل الأسود اللزج بصدرها الفخم ويرتطم بجنبات الأرائك الباذخة الثمينة، والخزانات، ثم لا يلبث أن يصعد فيغمر الستائر الأنيقة، المنتقاة بمنتهى الدقة والرقة، يبللها ثم يغمرها. يتدلى القماش ثقيلا، فتختلط الألوان والرسومات من عليه وتغرق في السواد، لا يعود يبدو منها شيء، ثم لا تلبث أن تغيب تحته.. تتحرك الكتلة.. تتطاول على كل شيء، تغطي كل شيء، تلف الزرابي والبسط والأسرة الفاخرة، والحجب المخملية.. تتشبث الجزيئات السائلة بكتلة القماش الثقيل المبلل، أذرعها السوداء تمتد نحو الأعلى، تلتقط الزُّجَيْجات الرقيقات المتلاصقات النازلات من فوق سقف الصالات، شبهَ عناقيد عنب شفاف.. لم تعد الثريات تلمع من ارتطام الضوء عليها، ومن فسحة الفراغ الأبيض العائم في الأشعة..

السائل الكثيف الأسود اللزج يطغى يرتفع، ويلف تحته جميع

الألوان والأحجام.

النفـط يمـلأ الحاويات الرابضة، المهيأة للإبحار والطيران، النفط يمـلأ فناجيـن القهوة وملاعق السـكر، وقنينات إرضاع الأطفال. النفط يحشـو الأسـرة ووسـائد الليل، وآهاته وتنهداته، ويغلف موائد النهار.. يلون النظارات والعدسـات اللاصقة والورد الاصطناعي ويتسـرب إلى كل شـيء، يتطاول على كل شـيء مثل لسـان أفعى سريع وقاتل، يغلق السـقف ويحظر الشـمس.. كل شـيء مغلق، مغلق.. النفط.. النفط.. النفط.

- هذا هو المطبخ يا عذرا.

.. هـو الصـوت المنغـم لسـعدة.. سـعدة الجميلـة، الأنيقـة حتى أطـراف أظافرهـا، مزهـوة بعرض ثرائها أمام عيون الطارقية القادمة من صحـراء أخـرى. صحـراء لم يغيرها النفط، علـى الرغم من أنه يجري سـائلا سـخيا تحت رمالها، يسـري في قنوات سـرية توصله إلى دول بعيدة، غريبة لا تعرفها..

تشـير سـعدة بأصابعهـا الملسـاء، ذات الأظافـر الأنيقـة الطويلـة المصبوغـة بالأحمـر القانـي، وهمـا تعبـران بابا آخر، تتـراص به آلات كهربائيـة مـن كل نـوع، بينما في ركن هناك تقف مجموعة من الفتيات بعيون مسحوبة، يتوارين خلف بعضهن البعض، ويتبادلن نظرات كأنها لغة.

- هن خادماتي كل واحدة مكلفة ومختصة في عمل.

أحد عشر خادما وخادمة، وسائقان، وبستانيان. وحارس ليلي.

بينما كانت سعدة منهمكة في الرد على مكالمة بهاتفها الجوال، وتسترسل في ضحكات خفيفة، من حين لآخر، وتتمايل وكأن محدثها يطل عليها، فإن عذرا لم تعد تقدر على رمي الخطوة أو حتى التلفت..

السائل اللزج الثقيل يعيق حركة كتفيها، وعنقها ورأسها، عدلت من ثوبها الطارقي فوق كتفيها، لباسها الذي لم تتخل عنه أبدا ولم تغيره، ولم تفتنها أشكال العباءات الخليجية الأنيقة، الجميلة، الثمينة، التي يشتريها عبده ويهديها لها.. كانت قد ذهبت بعيدا:

- في صحرائي أيضاً نفط غزير أو هكذا يشاع منذ أزمان.. إلا أننا نسمع به ولا نراه.

تقول الجدات الطارقيات اللواتي لا يخطئ ظنهن ولا تخيب فراستهن، إن النفط هذا وما يشبهه من الخيرات الراقدة تحت الرمل، هو ما جذب الفرنسيين إلى استعمار البلد والتوغل في صحرائه، حتى أنهم بمفاوضات خروجهم من باقي البلد بعد الاستقلال، حاولوا التفاوض مع الحكام الجدد، لبقاء الصحراء وحدها تحت سيطرتهم، لا لشيء سوى لأنها مخزن ثروة لا تنتهي.. النفط كان السيد والمحرك أثناءالاحتلال، يعبر فوق الأرض.

بعد انتهاء الاحتلال ظل النفط نفسه السيد والمحرك، تعبر قنواته تحت الأرض تحت رمالها، دون أن يسمع هسيسه أحد.. مثل الأفاعي التي تعبر أجسادُها اللينةُ الملساءُ ذرات الرمل تختفي تحت الكثبان لتظهر من جديد بمكان آخر بعيد جداً.. تزهو بحريرها هناك..

- شوفي عذرا.. هاذي المجوهرات مالتي.

خزانة ضخمة حديدية، تفتح سعدة بابها السميك بعد عدة تدويرات متتابعة متوقفة عند أرقام حول مقبضه، كأنما منسوب الضوء كله المتواجد في الصالة انجذب إليها، شع بريق الذهب أبيضه وأصفره وعقود اللؤلؤ والماس، والأحجار الكريمة. ارتسم مهرجان متلألئ في تجاذب الضوء، يلمع كما تلمع أجساد حبيبات الرمل البراق تحت أشعة شمس الصباح.

سعدة الفاتنة، البذخة، الثرية، المدللة، التي لا يتوقف هاتفها الجوال عن الرنين.. ولا تتوقف عن ضحكاتها الخفيفة المتواصلة تلك وهي تميل رأسها، وكأن أحدا ما، يرتدي طاقية إخفاء، لا يتوقف عن مد يده إلى عنقها.. كأنما هي سعيدة..

لا.. لم تكن سعيدة.. وجدت في عذرا ضالة الشكوى.. عذرا الغريبة تجلس إليها طويلا.. تحدثها عما لا تراه ولا يراه أحد.. عن هموم امرأة مترفة جميلة، يضطرم الغضب ويتلوى الحزن خلف ملامحها الحسنة ومفاتنها.. تخاف الوحدة وترعبها الشيخوخة على الرغم من أنها ما تزال في سن بعيد عن هوس الكبر.. لعلهما العدوان اللدودان الأشد خطورة اللذان يرهبان سعدة، فتعد لهما ما استطاعت من قوتها وذكائها ومالها وخيلها وخيرها..

- علامات السن هي علامات الساعة بالنسبة للمرأة هنا يا عذرا..

من خلال جلساتها إلى سعدة ومعايشها وخلال محادثاتهما الطويلة وحواراتهما وتنقلاتهما، اكتشفت عذرا أشياء كثيرة لا يمكن أن تقدمها تجربة عشرات السنين.

لعل حبل الود المتين الذي ربط بينها وبين سعدة وقرب بين أحاسيسهما هو مصيرهما المشترك في عدم الإنجاب، وهو أمر جعلهما تشعران بقرابة تكاد تكون دموية، بقرابة شجرتين باسقتين غير مثمرتين.

دون سابق إنذار يتعاظم في قلب سعدة الشعور أن عذرا الغريبة الآتية من عالم بعيد ومجهول بالنسية لها، أقرب إليها من أخواتها غيرالشقيقات، إنها تتقاسم معها أهم إحساس لا تعرفه النساء اللواتي ينجبن، الشعور أنها اللؤلؤة الفريدة تحمل قيمتها في ذاتها، اللؤلؤة اليتيمة.. تقارب ما بين المرأتين.

وكما تفعل سعدة التي لا تدخر شيئا من أجل أن تتعلم فتدفع

المال الطائل لمدرسات من شتى الجنسيات يأتين إلى قصرها كي يقدمن لها دروسا في اللغات والعلوم الأخرى، فإن عذرا استقدمت أيضا المدرسات لتتعلم اللغات والأدب ودروس مكثفة في شتى علوم أخرى.. كانت خمس سنوات من حياة عذرا، محاولة يائسة للهرب من الحنين تحولت إلى سنوات من التحدي، والبحث عن إطفاء عطش الفضول لمعرفة كل شيء. لعل صداقتها بسعدة الذكية، الغاضبة، المتمردة على العادات القديمة بهدوء، سعدة التي تشبهها في العقم والوحدة، لعلها دفعت بها نحو فضاء مفتوح على التجاوز، الخمس سنوات المكثفة الغنية كأنها خمس عشرة سنة. لم تضيع عذرا منها يوما واحدا، لم تملأه بما يطفئ عطشها للمعرفة وفك رموز العالم المجهول حولها، وما يمكنه أن يخفف عنها الصراع مع الشوق والحنين.. كأن تشن حربها على الذاكرة، أو تلاعبها لعبة الغميضة.. ظلت عذرا تملأ تجاويف الذاكرة بما تتعلمه من جديد، بحيث لا تترك سوى وقت قليل للوحشة تنكل بها أشد تنكيل.

متفتحةٌ الحواس عذرا، بذكاء نادر وفطنة، مستعدة لاكتشاف وفهم ما يصعب على غيرها، أن تعرفه، أن تسائله، وأن تفهمه، وأن تناقشه.

سنوات خمس معدودة على كف واحدة، كانت كافية لتحول خلايا دماغها الى قبائل نحل، لا تكل ولا تمل من حركة أجنحتها، أو من ذلك الرقص الذي يملأ جرار السماء بالعسل.. الفطنة نعمة.. لم تكن تمر شاردة ولا واردة إلا وتقف عذرا عندها، لتسأل المدرسات وتلح حتى تكشف سرها وتعلم أمرها، ثم تناقشها في المساء مع سعدة.

ذلك الصباح قبلها عبده بشغف كعادته ثم قال:

- عذرا تذهبين معي إلى الحج؟؟..

لـم تقـل نعـم ولـم ترفض إلا أنه منذ أصبح اسـمها مركبا هكذا: «الحاجـة عـذرا» اختفـى بعـد فتـرة قصيـرة اسـم عذرا. صـار الجميع بمـن فيهـم الخـدم والغربـاء ينادونهـا «الحاجـة» فقـط. منذئـذ لم تعد تسـمع اسـمها «عذرا». حتى عبده لم يعد ينطق اسـمها الذي تفتخر به ويذكرهـا أن لهـا وجـودا مسـتقلا، لـم يعـد يلمح إلى أمهـا وإلى أبيها الطارقي الأزرق. شـعرت أنها تفقد كل شـيء يربطها بأصلها، فبدأت رفضها للقصر المغلق المبرد.

عبـده متـزوج من امرأة أولـى وأب لبنتين.. لم تعرف عذرا ذلك إلا بعـد أن حطـت رحالهـا هنـا، لم تغفر له ذاك.. كيف تقدر أن تفعل وهي الطارقية التي تمنعها أنفة الملكات أن تكون لها ضرة..

- أنا عذرا.. بضرة.. ما هذا الهراء؟؟

- عندنا هنا الزواج باثنتين أو أكثر، مسألة عادية يا عذرا.

لـم تهضـم عـذرا فكـرة زواج رجل من امرأتيـن، ليس في تقاليد أهلهـا الطـوارق الجمـع بيـن زوجتين، ولا المـرأة تجمع بين رجلين.. المسـألة لا تبلـع، ولا نيـة فـي قبول الأمـر الواقع، ولا يمكن أن تفرط في قناعاتها.

بعـد تفكيـر طويل اسـتقر فـي أعماقها طلب الطـلاق. هذه المرة يختلف الأمر عن المرتين السابقتين. ليست عذرا من يطلق مثل عادة الطوارق بل الزوج.. إنه هو.. عبده. فلا بد من اللين والحذر.

عبـده متـزوج مـن امرأتيـن، ويمكـن لـه أن يفتـح بيوتـا أخـرى، لزوجـات أخريـات.. سـعدة متزوجـة مـن رجـل لـه ثـلاث زوجـات أخريات،.. وسعدة هي الزوجة الثالثة، وليست الأخيرة.

- تصوري يا عذرا تزوج بعدي أنا.. ليش بعد.. ما كفاه البغل..

شكت لها سعدة بحرقة ذات يوم..

صراحة سعدة وعفويتها وطبعها المتمرد، أعانها على معرفة أمور عدة كانت تعتبرها غريبة ومستحيلة.

- الأمر هنا عندنا يكاد يكون محسوما وعاديا يا عذرا.

يكـرر لهـا عبـده مرات عدة.. كلما عاتبته بعدم مصارحته لها من قبل بذلك.

لكن على الرغم من أنها لم تعد تنظر للمسألة بالغرابة التي كانت عليها، وبعد أن تأكدت أنها ليست خاصة بها وحدها، بل تكاد تكون طبيعة ثانية أن يتزوج الرجال هنا ثانية، وثالثة، ولا نقاش. هدأت غضبة عذرا ولكنها لم تستكن.

فـي ثقافـة عـذرا الطارقيـة، زواج الرجـل بأكثـر مـن واحدة ليس أمـرا مرفوضـا فحسـب، بـل ولا يمكن حتـى تصـوره أو التفكير فيه.. ولا نقاش.. لكن:

- آه عبده..

لم يخبُ ولهُه بعذرا.. ولم ينقص دلاله لها بدرجة، ولم يخفت اعتنـاؤه بهـا.. لكـن عذرا تنام وتصحـو على الحنين.. صعب عليها أن تتآلف مع حياة ليست تشبهها، مع أمكنة تغيب عنها السماء.. لم تتعود على حياة الأقفاص، هي الطارقية حرة الجسد والروح ومرمى النظر.

مـن أيـن يأتـي لهـا بقطعـة من السـماء الحية، كيف لـه أن يروي عطشـها بزرقتها، وأن يسـكن من وحشـتها، فتطل عليها ليل نهار وهو العارف من أي سماء منبسطة مفتوحة على الكون جاءت عذراه.

لـم يكـن عبـده أنانيـا علـى الرغم مـن ولهه بها.. ربمـا لأنه كان يعرف أن أمه السـويدية، لم تسـتطع أيضا أن تتخلص من ثقافتها، وأن تتآلـف مـع غربتهـا، وأن تسـتغني على خشخشـة الثلج تحـت قدميها،

ولم تستطع أن تهضم مشاركتها زوجات أخريات في رجلها، ففضلت العودة إلى بلادها.

لـم يضغـط عبـده على معشـوقته بنت الطوارق، التـي لم تمهلها الغربة يوما واحدا دون حنين، حنين حارق تحاول الدموع إطفاء نيرانه.

طلبـت منـه مـرارا أن تسـتعيد حريتها، وأن يرجعهـا إلى بلادها.. الشعور بالغربة يفوق كل شيء، لم يستطع أي شعور آخر أن يتجاوزه.

كانت عذرا تزداد وهناً، وتفقد وزنها بشكل لافت للخوف حتى خشـي طبيبهـا مـن الانهيـار العصبـي المهدد، قبل عبـده على مضض، وعلى مخاوف الطبيب وإلحاح عذرا..

فكر طويلا قبل أن يرجع بها إلى عاصمة بلادها، ويسلم لها كل ما يملكه هناك.. يكتب باسـمها شـقتين جميلتين متقابلتين في وسـط المدينـة، وإقامـة فخمـة سـلمت له مـن صديقه طويل العمـر، الحاكم الأوحد، عربون صداقة قديمة متجددة، واعتراف بمحبة لا تبلى.

تقع الإقامة بأجمل منطقة من البلد، محروسـة لا يأتيها القلق أو الخطر من جهاتها الأربع، لا يقطنها إلا الراسخون في القوة والسلطة والوجاهـة، يطلقـون عليها اسـم نادي الصنوبـر.. كان عبده يحاول أن يقوم بما فعله أبوه مع أمه السويدية التي كادت تقتلها الغربة في بلاده، فأعادها بأمان إلى بلادها.

منذ أن وطئت عاصمة بلادها ظلت عذرا تفكر في الرجوع عند أهلهـا، ولكـن لعنـة العواصـم أصابتهـا، كما أصابـت الكثيرين.. وكما يشـاع، فإن من يسـكن عاصمة ما فترة، غالبا ما لا يعود الى حيه إلا بمعجزة..

باب الرغبة.. بوابة السماء

عبده مسعود.. مسعود عبده

كأن مسعود عبده وكأن عبده مسعود..

لكنها تتجاهله عن عمد.. هي هكذا مثل غزال الصحراء الشارد لا يلمحه أحد إلا وهو على عجلة من أمره هاربا، يلاحقه النظر.

تستيقظ عذرا، تتململ في فراشها.. ترفع كفيها، تنظر إليهما بتمعن.. إنهما حريريان جميلان.. تتأمل أصابعها المحناة أطرافها.. تلامس استدارة كتفيها فعنقها فصدرها. تصطدم بحلمتيها النافرتين، الصارختين. ملسوعة تهرب نحو بطنها، تنزلق كفها الى الخصر قليلا قليلا.

كان مسعود يملأ الغرفة بجسده ورائحته وشعره الأشعث الغزير، ونظرته الكسيرة من عينيه المائلتين اللتين تلهبان الرغبة.. كأنه دفع الباب بقوة، ثم ولج الغرفة بزمجرة وضجيج، كان يتنفس بسرعة وهو يرمقها من فوق حصان جميل أرعن، لا يتوقف عن القفز في أرجاء الغرفة، يدق بحوافره الأربعة أرضيتها الملساء فينزلق، بينما يملأ الجو صرير السرج ورنين اللجام. ما هذا الضجيج.. كيف استطاع هذا الحصان البهي أن يلج الشقة ويتغلغل إلى الغرفة، يركبه مسعود،

وكأنه جزء منه.

لم يترجل ولم يحد ببصره عنها..

يـا للحصـان الأهبـل كأنـه عنـوة لا يتوقف عن تبديـل وقفته بين اعتدال وانحناء، والرقص على قوائمه الواحدة بعد الأخرى..

خشـيت عـذرا أن يزعـج رقصـه المجنـون الجيـران فـي الطابـق الأسـفل، سـيتفطنون لوجـود حصـان في الطابق الأعلى مـن العمارة.. يا للفضيحة ما الذي يفعله حصان في الطابق الأعلى وسـط عاصمة، ثم ليس من المسـلي لحصان أن يقفز ويرقص في شـقة بطابق علوي، ما هذا يا مسعود؟!

أما كان عليه أن يروضه قبل أن يجيء.. كما ينبغي لفارس حقيقي مغوار أن يهدئ جواده..

الحصـان الجميـل المجنـون لا يتوقـف عـن القفـز، راقصا على قوائمـه الأربـع. يجذب مسـعود الجـزء اليمين من اللجـام إليه، فيميل عنق الحصان القلق يمينا. ثم يجذب الجزء اليسـار إليه فيدور يسـارا، دون أن تتوقف قوائمه عن خطواتها المتزنة القوية.

- غريـب.. مـن أيـن جـاءت مسـعود الفكرة أن يأتـي دون حرج منتصبا على ظهر حصانه وسط الغرفة.

يجذب طرفي اللجام معا فيسـتوي الحصان الهائج على قائمتيه، وينطلـق فـي صهيـل متواصل أجش عنيد، كانـت عذرا تقيس ارتداداته من البحر حتى أبعد واحة.

لم يكن يبدو على الحصان الجميل الأهبل الجوع ولا

العطـش ولا التعـب.. الحصـان المحصـور بيـن بـاب وسـتة جدران، نبتت فجأة في خاصرتيه سـتة أجنحة.. أجنحة بيضاء سـخية الريـش وافرتـه. انتصـب الحصان واقفا في هـواء الغرفة، طاويا قائمتيه

الأماميتين، وكأنه يقلد طيرا أسطوريا عجيبا، ثم راح من جديد في صهيل مبحوح، قوي، مجروح، ممتد، حتى انكسر زجاج النوافذ وتناثر مثل ندف القطن.. نظر الحصان إلى السماء بشوق هائج، دقت حوافره على الأرض كيما تأخذ توازنها في الدفع، ثم طار.

.. هدوء غريب يلف الغرفة.. يلف لهاث عذرا ونفسها المتقطع، وقطرتين من عرق فلتتا من جبينها. تلعن في سرها شيئا ما، أو كأن جملة من البارحة نسيتها على لسانها، فما فتئت تدغدغه كي يتحرك ليحررها.

- مسعود..

مثل دبيب النمل يتسلل الخدر في عروقها، وضوء الصبيحة إلى عمق عينيها نصف المفتوحتين، تنوءان تحت ثقل الرموش.. ضوء ليس كذلك الضوء الذي تحن إليه..

تنهض عذرا بتثاقل، وكأن ألفا من خيوط شفافة، تضمها، تلفها مثل شبكة صيد، وتجرها بهدوء ولين نحو النافذة.

لا مجال لرؤية السماء منبسطة شاسعة وحرة مثل هناك.

تفلت لعنة من بين شفتيها.

ألا يمكن لتلك البنايات الشاهقات، التي ترتفع بلؤم في وجهها، أن تتململ.. أن تذهب إلى الجحيم.. كأنها حواجز حديدية في كوة سجن. أما آن أن تنزاح.

المستعمرون هنا أيضاً، لم يتركوا السماء بسلام، هنا أيضاً نصبوا لها خوازيق وغرسوا سهاما صدئة مسمومة..

كنت أظن قبل أن أعرف الحياة هنا، حينما كنت أسمع عن حكايات الرخاء الذي يعيشه أهل شمال البلاد، بعد أن افتكوا المدن

بما فيها من المعمرين، ولكنني بعد أن سكنت بها هذه السنين وعرفتها جيدا، لم أجد سعادة تذكر..

الناس هنا البسطاء منهم طبعا، هؤلاء الذين يمتلئ بهم الشارع، هؤلاء الذاهبون من مساكنهم في الصباح الباكر، العائدون على الساعة الخامسة أو السادسة من إداراتهم وأعمالهم ووظائفهم، لا حياة لهم تذكر. يخرجون صباحا شاحبي الوجوه منحنيي الظهور، يتكدسون في الحافلات أو في الشوارع المكتظة بالسيارات، حتى لتبدو وكأنها سيل عارم من الحديد، ثم يعودون في المساء متعبين، منكسرين، أكثر ذبولا وشحوبا من الصباح، يتوقفون عند الخباز والبقال بسرعة، ليبحثوا عما ينقص العشاء، ثم ينامون مبكرين مثل الدجاج في خمه، ليستيقظوا في اليوم التالي من أجل الدورة نفسها، فلا تختل الدورة تلك إلا بالمرض. ثم يموت الشخص هنا فلا يسمع رفيف روحه حين يودع. إنني أشك في وسط هذا الزحام والحيطان والبنايات المتراصة، أن تصل روحه في موعدها الى السماء لأنها ستكون قد أغلقت أبوابها. أو يظنون أن أبواب السماء تظل مفتوحة كما يشتهون؟!

عندنا.. السماء قريبة من الأرض، قريبة جدا.. بل أحيانا تلتقيان في الأفق، تجلسان معا حتى تكاد تسمع حديثهما عن بعد.

.. كلما استغرقت في معرفة تفاصيل هذه المدينة، واكتشفت أمعاءها، كلما زادت خشيتي منها على نفسي.. أن تتغير نفسي.

هنا لا أحد يسمع أحدا، القرقعة الطرشاء للحديد الساكن والمتحرك تغطي كل شيء.

ثم لا أحد يسأل عن أحد.. يحدث أن يسكن شخصان في عمارة واحدة لسنين عديدة، فلا يتبادلان التحية ولا الكلام ولا يعرف أحدهما عن الآخر شيئا.. كم غريب علينا هذا نحن أبناء الصحراء، أنا

لا أستطيع الامتناع عن زيارة البنات المستأجرات كل مساء والاطمئنان على أنهن بخير..

- العواصم كلها هكذا.. باردة القلب ومتشابهة.

قال لي عبده ذات مرة.

ولعل ما جرى في السنة الماضية يدل كثيرا على وحشيتها لن أنساه أبدا، ذلك الحدث الرهيب الذي أرعب ليالي وأيامي لفترة طويلة، حين مات ساكن الطابق الأخير ولم يدر أحد بموته، رائحة تحلله وحدها التي أخبرت السكان بذلك.. كان كاتبا وشاعرا، صادفته مرة على السلم نازلا فحيّاني باحترام بالغ.. ليس من العادة هنا تبادل التحية في السلم.. لكنه سبقني وفعل.

علمت في ما بعد أن اسمه جمال، وأنه كاتب صريح وشجاع ويدافع عن المظلومين والناس المهمشين والفقراء والبسطاء ولذلك فهو مغضوب عليه، فأبعد وهمش بسبب مواقفه الصريحة وانتقاده السلطة لتبذير المال العام باسم الثقافة، وبسبب تصريحاته بعدم كفاءة المسؤولين عليها، وفراغ حكمهم من أي مشروع ثقافي.

كم تألمت حين قيل لي إن أحدا لم يعد يزوره، أو يتحدث إليه، فكلما أجري حوار معه، لا يكتب له الظهور لأنه يمنع، وكلما دعاه مدير دار ثقافة أومدير مؤسسة لإلقاء محاضرة أو للمشاركة في لقاء أدبي إلا وفصلوا من مناصبهم، حتى أغلب الأدباء مثله ومنهم من كانوا أصدقاء له أضحوا يتجنبونه ويتحاشون حتى ذكر اسمه في المجالس العامة، يخشون على امتيازاتهم وعلاقتهم مع السلطة.. عزل المسكين وأقصي وحوصر حتى تم نسيانه، منذئذ أصبحت أنظر بعين الريبة إلى من يدعون أدباء وكتابا. فكلما سمعت بأحدهم يحتفل،أو يحتفلون بصدور كتاب له، وأشاهد أحدهم في جنة الصنوبر يتهادى

بطوله وعرضه ويتبختر، أو سمعتهم هنا وهناك يتشدقون بجمل كبيرة معقدة لا يفهمها أحد ولا هم أنفسهم إلا وأشمئز.. نعم أشمئز وأتذكر جمال.. أتذكر جمال الذي رأيته ينزل السلم بتوأدة وعسر، من شقة أعارها له أحد أقربائه، أثارني وهنه وأنا أراقب خطواته من فوق، تنم حركات رجليه البطيئة، ورأسه المرفوع عن امرئ أتعبه الزمن ولم يثنه، نخره المرض ولم يفرغه من جوهره. أحسست أنه أقرب إلى قلبي بعد ما سألت عنه الكثيرين.. كانت رغبتي عارمة أن أعرف عنه كل شيء.. ليتني عرفت ذلك من قبل.. ربما ذهبت إليه وآنسته.. ألم يعد على الأرض خير؟

اللعنة على العواصم، مليئة بالغرباء مثلي.. لا أحد يسأل عن الآخر أو يزوره أو يقلق عليه..

ترى هل سأعود إلى صحرائي يوما بما بقي سالما مني، أم سأفقد نفسي وطارقيتي.. وأنتهي مثل جمال.

نحن الطوارق لم يمسنا كل هذا التشويه الذي أفرغ سكان الشمال من إنسانيتهم. ما زال الطارقي منا يحتفظ بجوهره وبرحيقه على الرغم مما تعرض له من محاولات كسر وتحطيم هو الآخر.

حياتنا نحن الطوارق مرآة لاسمنا الأصلي العريق «إيموهاغ» الاسم الذي ما زال يشبهنا ويدل علينا «الأحرار».. نعم.. كلمة الأحرار تدل علينا.

لست أدري لماذا أشعر بالتفوق وأؤمن أنني من تربة أخرى مختلفة، معجونة بماء الحرية والحياة المنطلقة المفتوحة على السحر والأسرار والفرح..

ما هذا الذي يعيشه الناس هنا.. يسمون هذا الكائن الحجري الميت مدينة، إنها مقبرة متحركة.. يتململ الناس فيها وكأنهم موتى،

بلا روح ولا فرح ولا لحظات سرور. الفقراء يبحثون عن لقمة الخبز لهم ولأولادهم، فيصبرون من أجل ذلك على القهر والعبودية وأشكال التحقير، بينما يتسابق من هم في السلطة ومن هم في بلاطها، والأقربون والمقربون منهم على جمع المال..

المزيد من المال.. المال ثم المال ثم المال.. لا تهم الطريقة ولا يهم الوقت، لعلها متعتهم الوحيدة والمشتركة بينهم.

لم أضع مفاتيح نفسي في يد أحد، اعتمدت على نفسي وطبعي الطارقي اللين الودود، فسهل لي التعرف على هذه المدينة أسافلها وأعاليها، والاقتراب من أهلها ومحاولة فهمهم، من ناسها التحتيين البسطاء والفقراء، وأقوامها القوامين الحاكمين الفوقيين.

تعرفت على بعض كبارهم فعرفت كبائرهم وصغائرهم، ما عجبت له واشمأزت منه نفسي هو أن لا شيء يدفعهم للمنافسة ويغويهم بالتجاوز سوى كسب المال، لا تهم الطريقة ولا الوسيلة فكل الطرق واردة وشاردة وجائزة لجمعه والاستيلاء والاستحواذ عليه، إنهم يتنافسون في من يكون له الرقم الأعلى، والمبلغ الأرفع، والحسابات المركونة في البنوك المركزية المحلية والأجنبية وخاصة بالعملات الأجنبية طبعا..

هذه المدينة مثل مدينة عبده وسعدة.. لا فرق، لا متع فيها ولا حياة، في هذه المدن الجميع يحسب، ويعد، ويفتح حسابات، ويغلق أخرى، ويدمج أخرى مع أخرى، ويصرف أخرى إلى عملات أخرى.

كانت سعدة تقول لي وهي تبدو متفاجئة وسعيدة:

- هذا اليوم زاد حسابي ضعفه.. ما تقولي لي مبروك يا عذرا؟؟؟

ويتهلل وجهها.

وهنا يحتفل الكبار كلما أحكموا قبضتهم وافتكوا صفقة مع الدولة.. منهم فيهم..

لا فرق.. لا فرق. الحسابات البنكية السمينة وحدها العمود الفقري لسعادة الكبار هنا، أحيانا لا ألعن ذلك اليوم الذي غير قدري، اليوم الذي رميت فيه شباكي حول عبده وأوقعت به عاشقا، فكأنما أوقعت عالما كاملا أمامي لأكتشف خباياه، بل أحيانا أشكره لأنه غير قدري وأثرى معرفتي بما يجري على الأرض، فصلت وجلت وتعلمت أشياء كثيرة، أشبعت فضولي بما لا يخطر على بال طارقي. وحين رجعت ورجع عبده إلى بلده وأهله. لم أعتمد كثيرا على معارفه النافذين في كل مصالح الدولة، ولكنني اقتربت منهم كثيرا فقط لكي أعرف معدنهم وأفهم ما يدور في كواليسهم، المال الوفير الذي تركه عبده بين يدي، جعلني أتجاوز عقبات عديدة، لكنه لم يكن مبتغاي الأول والأخير.

أول فكرة راودتني هي المزيد من التعلم، وهذه المرة ركزت على تعلم اللغة الفرنسية، الجميع هنا يتكلمها. تبدو أميا وغريبا إن لم تكن تفهمها على الأقل. الشارع يتحدث بها، وعلمت من أحد أصدقاء عبده المقربين المتنفذين أن الكبار يفعلون كل شيء بها وحتى الاجتماعات التي يعقدونها في الوزارات وبين الوزراء ورئيس الحكومة وبين الرئيس والحكومة تجري باللغة الفرنسية.

لو علمت هذا من قبل لكنت أمضيت السنوات الخمس في بلد عبده فقط لتعلم الفرنسية، وقليلا منه للعربية يبدو أنها لا تفيد كثيرا هنا.. الفرنسية مهمة جدا هنا مثل الإنجليزية في بلد عبده، العربية لا تفيد إلا لنشرة أخبار الثامنة الرسمية.

على كل حال، أعتمد كثيرا على قدرة «العالية» المعلمة التي تأتي

إلى بيتي في بداية الظهيرة لتدرسني الفرنسية بطريقة مكثفة.. أنها امرأة جادة وطيبة، أصبحت من أقرب صديقاتي.

منذ أن قررت الاستقرار هنا، بعد أن عاد عبده وكله أمل أن أعود إليه:

- عذرا.. خذي بالك من نفسك.. وسأكون عندك إذا ما أشرت.

منذ أن سافر وأنا أجري لاهثة كي أتعرف وأفهم سر سكان هذه المدينة، أنا امرأة لا أحب الاستكانة، وجدت أن أغلبهم منغلقون على أنفسهم، وكلما عرفتهم أكثر كلما عرفت قيمة نفسي أكثر..

حين تقترب من أحدهم، فإنه سينظر إليك بعين غير مطمئنة، وإن سلمت على أحد فسيشك أنك سرقت منه شيئا للتو.. وحالما تختفي في الزحام يتفقد جيوبه وما يحمله..

عرفتهم فزدت تعلقا بروحي الصحراوية، وقيمي الطارقية:

- أنا عذرا وما أدراك من عذرا..

أنا عذرا بنت الطوارق أشعر وسط هذا الركام من البشر المتعبين بهواجسهم، أنني حرة الروح طليقتها، خفيفة الحمل وسط نساء هذه المدينة، مثقلات القلوب بأشياء لا تدرك، وبعيون حزينة بائسة، على الرغم مما يتظاهرن به.

خلال السنوات التي عشتها وإلى الآن، ما زالت رغبتي في المزيد من الاكتشاف، قد أكون غاوية استكتشاف دواخل الآخرين، ولكن في الحقيقة أنا أبحث عن نفسي بين أناس هذه المدينة، ما زلت أشعر فيها بالغربة، عزائي أن الغربة هنا هي قدر الجميع، ببساطة نحن جميعا غرباء هنا.

- أنا أكثر غربة منك يا عذرا.

هكذا فاجأتني نفيسة المحامية بقولها.. نفيسة التي ترعى أموالي

وممتلكاتـي.. فقـد إئتمنهـا عبده - من قبل- علـى مصالحه في غيابه، ولأن أملاكه صارت لي، فنفيسة أضحت محاميتي الخاصة، أستشيرها في كل كبيرة وصغيرة. تجاوزت علاقتنا الرسميات مع الأيام، فأصبحت صداقة حقيقية، تجمع امرأتين مختلفتين في كل شيء.

تدهـورت صحـة نفيسـة مؤخـرا، وعلـى حين غـرة، وظهر عليها التعب والوهن الشديدين، حتى اسود ما تحت عينيها..

تزور نفيسـة طبيبا نفسـيا مشـهورا في المدينة، نصحها به الأطباء بعد أن دلت التحاليل الطبية العديدة والمختلفة إلى خلو جسم نفيسة من أي داء عضوي، نحف جسد نفيسة كثيرا، واهتزت شخصيتها، وهي المحاميـة التـي لا يشـق لهـا غبار، تهلهلت نتيجة الضغط النفسـي كما أخبرهـا الطبيـب. لـم تعـد تحتمل الضجيج، ولا تطيق نزع الكابسـتين الصغيرتيـن اللتيـن تغلـق بهمـا أذنيها، فلا تسـمع شـيئا غيـر ما يرتطم داخلها ولعله أكثر شراسة مما يحدث في الخارج.

مـن أوامـر طبيبهـا أن تلبـس نظـارات سـوداء غامقـة حتـى أثناء وجودهـا فـي البيـت، وأن تجدد ما في خزانتها، فتسـتغني عما تعودت ارتداؤه من ملابس وأحذية، وأن تمشي كل يوم طويلا.

نفيسة ترتاح لي جدا وتزورني عدة مرات في الأسبوع.. ازدادت زياراتهـا لـي مـع اشـتداد محنتها. المحامية الشرسـة لـم تجد أحدا إلى جانبها في هذه المدينة العامرة سوى ابنة طوارق وحيدة:

- عذرا.. تجي معايا الله يخليك؟

نفيسة تتبع نصائح الطبيب النفسي.. إنه يوصيها أن تدلل نفسها.. ربمـا لأنـه يـدرك أن لا أحـد يملك وقت فـراغ، وأعصابا مرتاحة، كي يطيق على دلال الآخر.. إذن، فكل فرد عليه أن يهتم بنفسه وأن يدللها إذا ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

- طبعا سأرافقك..

بآخر ردهة يفتح باب، تطالعك روائح العطور.. إنه محل تزيين النساء.

سبق لي أن زرت محلات مثلها رفقة سعدة أخت عبده.. عندهم هناك يصرخ البذخ من كل شيء، حتى في المساحة الشاسعة التي تربض فوقها صالات التجميل، ومن عديد الآلات المختلفة الكثيرة المدهشة القادمة لتوها من العالم المتقدم المخترع..

أما القاعة هنا متواضعة ولكنها جميلة ومريحة وحميمية، تريد نفيسة وضع أظافر اصطناعية.. تريد أن تغير شيئا، هي نصائح طبيبها.

- أريد أن أشعر بشيء جديد فيّ، يا عذرا.. كرهت روحي مليت..!!

مددت يديها الشاحبتين.. على الطاولة الصغيرة التي تفصل بينها وبين المجمِّلة، ثم وكأنها استسلمت لراحة داخلية عندما بدأت تنظف وتقلم لها أظافرها، قبل أن تبدأ عملية وضع الكبسولات الواحدة تلو الأخرى، تبتسم نفيسة كل مرة تدس فيها يدها داخل آلة تنشيف كهربائية، على شكل علبة، تصدر منها أشعة زرقاء.

استغرقت العملية أكثر من الساعة ونصف. جو من المرح يسود القاعة، الزبونات تبدين كثيرا من الفرح كأن المكان هذا مصنع أحلامهن يبتسمن وينظرن جميعهن إلى المرايا.

الفرح يعدي.. خلال طريق عودتنا، كانت نفيسة تنظر إلى أصابعها وأظافرها البيضاء الشفافة مبتسمة..

- شوفي شوفي عذرا.. شحال تغير منظر يدي..

لا بأس إذن.. كأن الأمر أدخل إلى قلبها شيئا من السعادة.. يا لهم الأطباء النفسيون..!!

نصحها طبيبها النفسي أن تجد وقتا لها مهما كان، أن تجلس فيه وحيدة إلى نفسها، أن تسمع الموسيقى، وأن تدندن، وأن تبحث عن فسحة لترقص أثناءها، حتى وإن كانت وحيدة في غرفة، ونصحها أيضاً أن تعتني بنفسها، وتدللها، وتكلمها في المرآة، فتقول لها أشياء لطيفة، كانت تريد أن تسمعها من أحد.. «كم أنت جميلة ورائعة وطيبة وشجاعة ورقيقة وفاتنة يا نفيسة» مثلا.

- عجايب.. هههه.. متعة الموسيقى والرقص أضحت دواء يكتبه الطبيب مع حبة الاسبرين.. هههه.

نحن الطوارق علاقتنا طبيعية بالموسيقى والغناء والرقص والشعر وجلسات التندر والسهر والسمر، حالات لا تخلو منها أيامنا أبدا ربما لهذا لا نحتاج لأطباء نفسيين.

- هيه هي الدنيا هكذا.. المحامي يخفف على صاحب القضية، والطبيب النفسي يخفف على المحامي.. والدنيا رايحة.

نظرتُ إلى أظافري.. كانت رسومات الحناء عليها قد اضمحلت قليلا، لم تعد ناصعة الحمرة بهجتها.. ربما حان الوقت لكي أجدد حناء يدي وقدمي.. سأستعمل مثل عادتي الحناء الورقية المدقوقة، التي يأتيني بها أحد معارفي من الصحراء.. لا غنى لي عن الحناء.. حين أضعها يتنابني نفس الشعور الذي تمتلئ به نفيسة الآن.. كيف تغيب عن بداهة طبيبها النفسي نجاعة الحناء.. الحناء جزء من أنوثة الطارقيات..

نعم.. أنوثة تينهينان، تلك الأنوثة الأسطورية الرمزية التي ورثتها نساؤنا عن ملكتنا تينهينان.. المرأة في عرفنا لا تتعلم فنون الأنوثة فهي تولد بها ومعها، تدرك أسرارها بالسليقة، تولد وهي تجمع بين الجمال والشجاعة والحكمة والقيادة، مثل ملكتنا تماما..

أليست هي تينهينان التي، منذ ألف عام قبل الميلاد، جمعت بين الجمال وحكمة القيادة، من وضع على رأسها تاج أول ملكة على قبائل الطوارق، بعد أن توحدوا تحت ظلها الوارف، فقادتهم بحكمة على الرغم من الظروف القاسية، ولم تتردد في حمل السيف كأية فارسة تتقدم جيشها وتقوده دفاعا عن وجود قومها ووفلسفتهم في الحياة وشرفهم... إنها الأنثى تينهينان.

كدت أقول لنفيسة وهي تقلب يديها في الضوء مبتهجة بأظافرها الجديدة ونحن في طريق العودة.

- أفضل الحناء..!

- إلا أنني امتنعت.. كنت سعيدة وأنا أراها وقد دخل بعض الحبور إلى قلبها. كان صوتها يستعيد قليلا من موسيقاه للفرح.

طبيب نفيسة لا يعرف مدى الراحة التي يتركه سماع موسيقى آلة الإمزاد في النفس.. لا يعرف أن رقصات الطوارق على الرمل الساخن مطهرة للحياة من كل الأدران، وأن الرحيل اغتسال أبدي وولادة جديدة.

لا يعرف طبيب نفيسة أن للنجوم فصولا، لا بد من استقبالها استقبالا جديرا بالنجوم حين تجيء، أو الذهاب إليها، إلى حيث تبدو أكثر وضوحا وجلاء، والنوم تحتها في العراء، حتى لتظن أنه بإمكانك أن تمد أطراف أصابعك وتلتقطها لو أردت. تتمدد تحت ضوئها الراقص، فتشعر كأنك في مهد معلق بحبال شفافة في أطراف السماء، يميل بك، يهدهدك بحنو لا مثيل له حتى الصباح.. وحين تنهض مع بزوغ الضوء وقد تمرغ جسدك بمراتع النجوم ليلة كاملة دون نقصان، تشعر أن أجنحة نبتت لك، تستيقظ وقد ملأت طاقة غامضة متلألئة كل ذرة منك وفيك، قبل أن تقوم مع اشتعال الشمس..

لا يعرف طبيب نفيسة هذا مع الأسف، ليس طبيب نفيسة فقط من تفوته معرفة كنوزنا، بل الجميع هنا.. لم ألتق بشخص في هاته المدينة، يعرف الطوارق وثقافتهم كما يجب.. بل يكتفون بصورة رجل ملثم يقفز بسيفه فوق الرمل مرتديا ثوبه الأزرق.

تعالوا أقول لكم.. أسكن هذا العالم الرمادي ولكنني لم أنس لحظة واحدة أنني سليلة ملكة. أنا تينهينان أخرى، مثل أمي وجداتي وجدات جداتي، أليس من الفخر لامرأة مثلي أن تكون سليلة ملكة؟؟ نساء الطوارق نحن، جميعنا نأخذ قوتنا من روح تينهينان الساكنة فينا.. وأنا في هذه المدينة الغريبة كلما واجهتني صعوبة، لا أفكر في الدواء ولا في الطبيب النفسي بل أتساءل:

- لوكانت تينيهينان ما الذي كانت ستفعله؟

نحن نساء الطوارق بنات تينهينان وحفيداتها، نشعر أن أرواح الملكات تسكن فينا، وتروي عروقنا بالقوة والتحدي وبالجمال والجلال والسمو والأنفة. نحن لا نحتاج لجمعيات نسائية مثل الجمعية التي تحدثني عنها نفيسة بحزن وأسف لأنها لم تحقق شيئا ملموسا في مستوى كل الوقت والجهد اللذين أخذتهما منها، ومن رفيقاتها منذ تأسيسها. نفيسة غاضبة جدا، وتتكلم بكل جوارحها حتى تبرز العروق من جبينها، وهي تصف الحالة القاسية للنساء، تدعو وتحارب من أجل حقوقهن.

- المرأة عندنا محقورة يا عذرا.. محقورة.

لست أدري لماذا يحلو لي أن أحدث نفيسة عن المرأة الطارقية التي تولد وحولها غلالة تقيها من شر الرجال.

تضحك نفيسة وتقول:

- أنتم عايشين على كوكب آخر.

لا تكاد تصدق نفيسة أن الرجل الطارقي كلما ازداد احتراما وتقديرا للمرأة، كلما علا شأنه أكثر بين قومه، ومن يبدي منهم فظاظة تجاهها، أو ومن يمد يده عليها مهددا أو ضاربا، فكأنه حكم على نفسه بأقصى العقاب ولا يلومن إلا نفسه لأنه سيصبح مضحكة القوم، يتبرأ الجميع منه، ويتجنبون حتى السلام عليه، ويديرون وجوههم عنه، حيثما مر وكأن به الجذام، فينبذ ويطرد، وحتى أصدقاؤه ومعارفه وأهله يتهربون من التقاء به.

تظل نفيسة فاغرة فاها. ليس هناك قانون ومحاكم وجلسات وقضايا كما تقصين علي كل يوم ما يجري في يومياتك.. بل هي فقط أعرافنا منذ آلاف السنين، تنبع من جوهر الإنسان وحكمته وتأمله على مهل في عمق الوقت والصمت، حين كانت سريرته أصفى ونفسه أطهر. تزداد نفيسة تعجبا ثم يقينا حين تعلم مني، وليس من تقرير أو بحث تطالعه عن الطوارق، مني أنا، الجزء الحي المتحرك، حين أروي لها أن المرأة في أعرافنا منذ بدء التاريخ، هي أغلى الكنوز، تمثل الشرف المجسد، لا تنهر، ولا تقهر، وكرامتها لا تهدر، والمساس بقيمتها إدانة لجوهر وجود الطوارق، ولتاريخهم وكينونتهم، هي الذاكرة العتيقة الحية التي لا تفوتها شاردة ولا واردة، النساء عندنا هن الحافظات الصادقات لكل تفاصيل حياتنا عبر الأيام والسنين والقرون.

- من أين لي بطارقي يتزوجني.. يا عذرا يا خيتي؟

تتنهد نفيسة مبتسمة وهي لا تكف ولا تمل من النظر إلى أظافرها الجديدة المتلألئة المصطفة كسلسلة كثبان.

فرحت نفيسة حين دعوتها إلى جلسة الشاي هذا المساء، في شقة البنات زوخا ونسيمة وباية، لم تكن المرة الأولى التي تحضر فيها معنا ثم تخرج المحامية سعيدة، وقد أضافت بوجودها وحديثها

وتجربتها الكثير، تصبح الجلسة أكثر أنسا وفائدة في أمر الجد والهزل. وتـزداد سـعادة البنات حيـن أزورهن أحيانا رفقـة صديقاتي ومعارفي، ربمـا تفيدهـن معرفتهـن بتجـارب الآخرين فـي تعبيد طرقهـن الصعبة والشاقة بهذه المدينة.

كـم أشـعر أنهـن وحيـدات وغريبـات.. يدفعني قلبي وشـعوري بالواجب أن أؤنسـهن في شـقتهن، أشـعر بالزهو حين يجلسـن حولي مقرفصات، مستعدات مثل طفلات صغيرات لسماع حديثي.. يعجبني ويملأ خاطري نخوة حين يسألن بكل ما أوتين من فضول عن تاريخ الطـوارق الـذي لا ينتهـي الحديـث عنـه أبـدا، وعن حياتـي وأزواجي وأسـفاري، ومعارفـي، ومغامرتـي مـع تعلـم اللغات والقـراءة والكتابة وسباقي مع الوقت في ذلك.

يسألن عن أسرار الجمال والفتنة والغواية ويسعدن غاية السعادة بالأحاديث حول أسرارالرجال وضعفهم وقوتهم، جبروتهم وانهزامهم، والفـرق بيـن أصنافهـم العديـدة وثقافاتهـم وشـخصياتهم ونفسـياتهم وتربيتهم وعاداتهم ومواقفهم المضحكة والمسلية الهازئة..

لذيـذة هـي الأحاديـث عـن الرجـال وخفاياهـم، لذلـك لا أدخر أغرب ما تعلمته من قصص وحوادث لأسـرده على مسـامعهن، فتارة يضحكن، وأخرى تمتلئ عيونهن بالدموع.. أستعمل في كل ذلك فنون القص التي تعلمتها من مسـاءاتنا الطويلة حيث يسـود الصمت وتنطلق نبرات أصوات الحاكيات الشاعرات واحدة بعد أخرى.

بعد أن كن يندهشن ويكدن لا يصدقن حين أشرح لهن ما يحدث في حياتنا وعلاقات الرجال بالنساء.. قالت زوخا:

- المفروض والمنطقي أن تكون الحياة هكذا..

أشعر أن شيئا ما تغير فيهن مع الأيام.. وهن يعلمن أن المجتمع

الأمومي الذي أنتمي إليه تعيش المرأة فيه وهي تكاد أن تكون مقدسة. كأنهن أصبحن أقل ضعفا وأكثر نضجا، وأكثر إقبالا على الحياة.. كل يوم يعرفن المزيد.. كل مساء يجلسن متوثبات الروح، وكلهن رغبة في الاستزادة. لم يعد يبدو لهن غريبا أن المرأة عندنا هي المدرسة الوحيدة، ومعلمة «التيفيناغ» كتابتنا الجميلة التي لولا المرأة التي تنقلها جيلا بعد جيل على الرغم من توالي القرون لأصبحت من أخبار كان.

تصر «زوخا» على أن أرفع الستار على التفاصيل الدقيقة وكلما تعمقت في وصف حياة المرأة عندنا بأمانة كلما ازدادت أبصارهن بريقا عجيبا، حين يعلمن أنها الوتد الأساسي في خيمة الطوارق، هي ملقنة الكلام، وهي الشاعرة، وهي العازفة، وهي المغنية، وهي الحكيمة التي ينصت لصوتها ولأشعارها الحاملة للفلسفة والتاريخ، بصوتها الذي يخرج من أعماق أغوار التاريخ مرددا الحكم والأمثال المليئة بالدروس. كل هذا وهي تحرك الوتر الوحيد على الامزاد، المعانق لصوتها الهادئ، الرزين، الغامر أسرارا وأخبارا. تغني وتعزف إكراما وتقديرا واحتفالات بالفرسان الراجعين فوق الجمال والمهارى غانمين في تجارتهم ومنتصرين.

كل ما يخشاه رجالنا حين يعودون منهزمين، أن النساء لن يحتفلن بهم وبعودتهم الكسيرة، ولن تنصبن خيمة الفرح، ولن يسمعوا أغانيهن، وعزفهن، وأشعارهن، فالفارس في أخلاقنا لا يفكر بالعودة إلا منتصرا، ولا يفكر في الانتصار إلا ليكون محط وموضوع أشعار النساء وغنائهن وعزفهن ورقصهن احتفالا به وبشجاعته وأنفته وطارقيته، صورة الرجل الطارقي تتجلى أمام أعينهن كما الفارس الأمثل بعد أن بدأت ملامحه تتوضح وتستقر في خيال كل واحدة منهن.. الرجولة المثلى..

في عرف المدن يستمد الرجل قيمة رجولته وذكورته من عناصر

خارجة عنه، المال والجاه، الرجل الأزرق كل رجولته وقوته وجماله وفتنته تنبع مما يملكه في ذاته، من كرمه، من مروءته، من ظله المنسحب بسخاء على الرمل، تحت الشموس المتلاحقة، من شجاعته وإقدامه، ومن أخلاقه العالية التي تلقنها له أمه، ومن فروسيته وبلائه الحسن في كل ما يواجه وجوده من أخطار، ومن معرفته بأسرار الصحراء.

البارحة اشترت زوخا صورة كبيرة لرجل طارقي ملثم بزيه الأزرق الغامق وهو يرقص بسيفه فوق أرضية من الرمل الذهبي قالت أنها ستعلقها في غرفتها:

كم سعدت للفكرة، كن يعلقن في غرفهن صور رجال أجانب بأجساد قوية مسكوكة العضلات يستندون إلى سيارات فخمة.. أفهمهن.. يتخيلن الفارس الأمثل ويثبتنه على عرش خيالهن.. كل واحدة ترسم لها فارسا وسيما لطيفا في خيالها..

نعم يا زوخا.. سأساعدك على تعليقها.. الطارقي مثال الجمال والشجاعة والرفعة، ورجال الطوارق لا يعبدون المال مثلما صارت عقول أهل الشمال خرقاء بسببه، ثراء الطارقي عبر التاريخ ما يملك من وقت يطأ فيه رمل الصحراء، كل سلاحه التاكوبة سيفه على يسار خاصرته، وعلى يمينها خنجره المزخرف مقبضه.. عز الفارس الطارقي حين ينتصب على ظهر جواده أو على مهاريه البيض.

لا يتمسك الطارقي بشيء.. لا قيمة للأشياء دون جواهرها المكنونة فيها.. قد يكون لحجر صغير مفعول السحر لما يحمله من ثراء في المعنى.. قد يضم ذكرى مكان حبيب، يخبئه عزيزا ويمتلئ بسحره، نحن الطوارق أغنياء.. أغنياء جداً، بما نملكه في جوّانيتنا، نحن نولد أغنياء بما فينا، يولد الفارس فارسا، والحداد الذي يصهر الفضة ويصنع الحلي ينزل من بطن أمه وهو يحن إلى صهر

المعادن وتجميل سروج الجمال ومقابض السيوف وأطراف الأساور والخلاخل، ويولد ناصب الخيام وراعي البقر والإبل وكأنه درّب على عمله قبل ولادته.. هكذا يؤثر الطارقي الحياة المنطلقة، حياته مؤثثة بما هو أعمق وأجمل وأفتن.. كل واحد يولد برغبة مجنونة تنبع من داخله للانطلاق وللرحيل ولمخاتلة الظل.. كي يصنع التفصيل الخاص به في الحياة الطارقية.

اعتقد الاستعمار الفرنسي كما تروي نساؤنا أنه كسر شوكتنا، بعد أن تسلل إلينا في صحرائنا، حاصرنا وأضعف قبائلنا، وشتتنا وألحقنا بالقرى والمدن، تخطيطا منه كي ننصهر وننحل في طريقة الحياة التي يفرضها على الآخرين، ما زالت عازفات الإمزاد يغنين بأصواتهم الشجية في المساءات ويحكين التاريخ، عن مستعمر غاصب أتى من الشمال فقسم الصحراء، تلك البسيطة الحارة الممدودة خارج الزمن والمكان..

بكل حقد مزق أوصالها واستحدث حدودا قلصت من حريات تنقل الطوارق، ولكنه على الرغم من كل قوته وجبروته لم يستطع أن يكسر دواخلنا أو أن يمحو جوهرنا أن يبيد حقيقتنا، أو يضخ في نفوسنا وأجسادنا من روحه وريحه. صحيح أنه قتل زعماءنا وشتت شملنا ولكنه لم يستطع أن يصل إلى قوتنا الداخلية ولم يفلح في تدمير اللؤلؤة العصية على الكسر داخلنا..

رجالنا فرسان زرق.

ونساؤنا حافظات العهد.

تنتهي السهرة وقد اشتد الحوار وعلت األأصوات والضحكات والتعليقات.

حين أعود إلى شقتي أشعر بشيء يؤلم روحي، مثل شوكة تنغرز

في صدري.. كم يحزنني وضع زوخا ونسيمة وباية وبحثهن المتواصل عن عمل.. دون أن أسألهن ودون أن يفصلن في ما يوجع كل واحدة منهن أشعر أنهن لسن بخير.. كأنهن خائفات من شيء ما، كأنهن يبحثن عن شيء ضائع لا يعرفنه بالضبط، كأنهن يهربن إلى خلاص يبدو مستحيلا غالب الأحيان، يؤلمني أن أرى في عيونهن الكسيرة شبه سؤال مستمر دائم:

- لماذا هي الحياة هكذا؟! أفففف.

تمرر الحاجة عذرا يدها على زجاج النافذة، ترى وجهها بملامحه المليحة يلوح بين الضوء والظل، تمرر يدها مرة أخرى وكأنها تريد أن تمسح البنايات وسطوحها العالية والصحون المقعرة المعلقة على الشرفات لالتقاط ما يمكن التقاطه من أحلام وردية. تمسح الحاجة عذرا الزجاج ببطن كفها، تريد أن تزيح كل ما يعيق بصرها عن رؤية السماء التي تستيقظ مثل وحش كاسر في خيالها، السماء الضاحكة اللعوب المستلقية العائمة في زرقتها وصفائها، ستداعب الشمس التي ستتوسط بطنها بعد ساعات وكأنها سرتها المشعة الملتهبة، تداعبها وتنظر إليها بإعجاب وكبر بينما هي تدور حول الأرض، وتدير أبصار الخلق التي تتبعها.

تأمل عذرا أن يتحرر بصرها بعيدا، أن ينسكب هناك في مجاهل الضوء، في غياهب الصحراء، صحرائها التي تحن إليها، الصحراء المتمردة رمالها، صحراؤها التي ترتمي لتبسط سحرها على ربع القارة الإفريقية حيث كان أجدادها الطوارق منذ آلاف السنين جزءا منها، من جنونها وصوابها، من هدأتها ويقظتها من ثبات صخورها التي تنتصب منذ أزل، غريبة الأشكال، عملاقة شاهقة، حتى لتكاد تبدو

أبدية. كانوا جزءا من سر تحرك الرمال وهشاشة كثبانها، يعرفونها كما يعرفون كفوف أيديهم، ويقرئونها كما يقرأون حروف التيفيناغ، تتمرغ فوق حبيبات الرمل وتكلمها.

يرقصون لها بسيوفهم المسلولة اللماعة، وأجسادهم السمراء المصقولة:

- لا يشبه الصحراء سوى أجدادي، في حكمتها البليغة وفي شموخها العالي.

عذرا تبحث في هذه السماء عن سماء أخرى مغايرة تعرفها وتعرف سحرها وسرها..

إنها الساعة الخامسة صباحا.. ليس يهم.. وما معنى الزمن دون سماء وصحراء وضوء ورحيل..

تفكر عذرا وهي تنظر إلى الساعة الحائطية، يخطو رقّاصها خطوات ثابتة واثقة، كمن يذهب إلى موعد حب طال أمد انتظاره: أجدادي الطوارق لم يحتاجوا لساعة سويسرية كي يسجنوا رقاص الوقت خلف زجاجها البغيض، ويتمتعوا بالتفرج على الرقاص المسكين السجين، وهو يرقص في مشيته الأبدية، ذاهبا نحو أليفته التي يحن إليها من أمد، وكلما اقترب منها وحاول ضمها، هش الزمن عليهما بعصاه وبان البين بينهما..

أجدادي الطوارق كأن الوقت خُلِق من أجلهم.. ينساب تحت خطوهم.. لا يسجنهم ولا يسجنونه.. نعم إنهم يفهمون التعامل معه كما يقتضي بقوم أحرار، يلقون سراح الوقت بالرحيل، يرحلون معه ويرحل معهم، ينطلق تحت خطو جمالهم، وحين يتعب الوقت ويتثاءب ويريد أن ينام قليلا، يحزمونه في أمتعتم الخفيفة الضرورية فوق

الجمال والمهاري ويسيرون.. يهدهدونه بأغانيهم حتى ينام ويسيرون في الرحيل الدائم المقدس.. الرحيل الفرض الأساسي في حياتهم، التنقل من مكان لآخر في مجاهل الصحراء التي ليست مجهولة لديهم، يذهبون فيها كل مذهب للتطهر وللتعبد بعيدا في إنسانيتهم.. الوقت شريك الطوارق في الصحراء وفي الرحيل منذ آلاف السنين.

يصطدم جبين عذرا بزجاج النافذة المطلة على سماء المدينة:

- يحق لزوخا ولجميع بنات العالم أن يعلقن صور الطارقي على صدورهن أو فوق أسرتهن..!

من يملك تلك العلاقة العضوية السرية مع السماء غير أجدادي الطوارق؟ يكلمونها وتكلمهم عن الظل والضوء. من غيرهم يقرأ آثار الخطو، ويفسر الأصوات البعيدة، وروائح الماء والشجر والمخلوقات من مسافات مديدة..؟

من غيرهم يحدث النجوم والكواكب، فتدلهم معرفتهم بلغتها ورموزها على الطريق وعلى تبدل الفصول..؟

من غير أجدادي يقيم الأعياد احتفالا بميلاد الأقمار الجديدة؟

من سواهم يملك بوصلة الطريق في صحراء مترامية الضياع، لا معلم يحدها غير هسيس الرمل والصمت. بوصلة يولدون بها من أرحام أمهاتهم معلقة في جباههم مثل عين ثالثة، يدركون بها وبدقة متناهية موقعهم ووجهتهم، فلا يضيعون البتة في غياهب الصحراء..؟

الصحراء أمهم الأولى.. الصحراء ظل تينهينان ملكتهم.

يلتصق خد عذرا بطرف النافذة.. تنظر إلى الشارع الذي بدأت

أحشاؤه تمتلئ قليلا قليلا بالسيارات.

كلما زدت اكتشافا لهذه المدن البائسة وسكانها الذين كأنهم مفرغون من جواهرهم، كلما اقتربت أكثر من جوهري وخفت عليه من الضياع أو التفريغ.. فلا أبرح أتذكر من حيث أتيت، وأوقظ مكامن الجمال الساكن في روحي وذاكرتي.

أنا ابنة أمها الطارقية، حافظة أسرار الزمن وتواريخه وأحداثه وتفاصيله في أشعارها وأشعار جداتها وفي غنة صوتها، أمي التي يبوح لها الوتر الوحيد بآلة الإمزاد، التي لا توأم له على الأرض ما لا يبوح به لأحد.. كيف لا يلامسني الغرور وأنا ابنة أبيها المهاب ولد آمنوكال التي تعني بلغة التيفيناغ «سيد الوطن»، راكب المهاري البيضاء العالية، أبي الطارقي، الرجل الأزرق، الملثم، الممتدة قامته في عليائها، تحن لجزء منها يدعى الشمس، وأنا بالوراثة وحقيقة الدم سيدة الصحراء.

أبا عن جد، شمسا عن شمس، ولا أحد يستطيع أن يطفئ شعلة العشق الدائمة بيننا وبين صحرائنا.. إنهم يريدون اغتصابها منا، نحن أجزاؤها وأسيادها وعبيدها وخدامها وأبناؤها، سنهزمهم بالصبر وقوة العشق، لا سلاح أقوى وأمضى من العشق، وعشقنا للصحراء لا حدود له.

كم علي أن أردد على مسمع زوخا وباية ونسيمة، بأن الصحراء هي قلب البلد وهي عاصمته الحقيقية وهي بخيراتها السخية يمكنها أن تعيل عائلة البلاد الكبيرة الواسعة.

جن الاستعمار بها واستغل خيراتها، كما جن الذين جاؤوا بعده، وأبدوا جشعا رهيبا، فباعوا كنوزها الباطنة منها والظاهرة، وتجرأوا أن يضعوا جمالها تحت تصرف غرباء يصيدون طيورها النادرة، وحيواناتها الرشيقة المدهشة، قد تكون طبيعة ثانية عند هؤلاء الحكام، فهم يمدون

أيديهم البغيضة ليستولوا على ما ليس لهم ثم يتصرفون فيه.

الصحراء الكبيرة لنا منذ أن خلقت، خلقت لنا نحن الطوارق، لأننا نحب كل حبة رمل فيها، لم نأت لنسرقها، لنغتصبها ثم نختفي.. لا.. الصحراء أنانا وشرفنا. نحترم سكونها وصمتها وغضبها ورضاها، ونحفظ أسرار آثارها الممتدة في عمق التاريخ.. إنها نحن، وإننا هي، نمتزج مثل عاشقين ونفنى في حرارتينا، هكذا تردد جداتي في أغنياتهن العتيقة، وأمثالهن التي تعود إلى الأزمنة البعيدة.. أمثالهن الجميلة تصور تعلق الطارقي بالصحراء، شبيه عناق محموم بين عاشقين، نعم الطارقي في حالة شبق دائمة مع الصحراء.

ستظل لنا حتى وإن وفد هؤلاء الوافدون، من مستعمرين من وراء البحر، أو من صيادين من دول ثرية، أغنياء، لاهين، تدللهم جهات عليا في السلطة وتسهل عليهم استغلالها والعبث بها، فتجدهم يحللون على أنفسهم كسر هدوء مخلوقات الصحراء وسكينتهم وأمانهم وأمنهم.

كيف لهؤلاء وأولئك أن يدسوا أنوفهم بين عاشقين محمومين أبديين، بين الطارقي ومحبوبته الصحراء.

تشهد أغاني الامزاد فتمتلئ أنينا وألما من هؤلاء الدخلاء المدججين بالسلاح وتنعتهم بـ «السراق»، جاؤوا ليفتحوا بطن الصحراء واستغلال جمالها ومالها يهربون ما استطاعوه خلف البحار، ثم يتركونها مرمية عارية. إنهم لا يحبونها، جاؤوا فقط لاغتصابها وسرقتها، لكن الطارقي سيدافع، لا غرو، عن صحرائه..

يتوهج وجه عذرا، وتشتد قبضتاها، وتكز على أسنانها، وتتلاحق أنفاسها، تمر في خيالها جحافل السيارات الفخمة، تجرح سكون الرمال، يقلها رجال غرباء يتكلمون لهجة عربية جافة، إنهم أثرياء عرب تلوح عقالاتهم من بعيد، وقمصانهم البيضاء ويلوحون بصقورهم

التي تنقض على فرائسها من طيور الحبارى النادرة، وينظرون بتعال، يبعدون من في طريقهم وكأنهم أصحاب المكان، فقط لأنهم يستمدون قوتهم وجبروتهم من ثرائهم ومن علاقاتهم وصداقتهم بقصر الحاكم الأوحد.. كيف له أن يبيح شرف الصحراء على مرأى من أهلها؟

يمر في مخيلة عذرا عبده، طليقها، ذاك الخليجي الوسيم الذي جاء بدوره ليصطاد، فرمت بشباكها فأوقعت به، مثلما يوقع هو وشركاؤه بغزالات الصحراء وطيورها ومخلوقاتها. حين انتقلت معه إلى العاصمة لمراسيم الزواج قبل أن ترافقه إلى بلده، اكتشفت ممتلكاته الكثيرة، وزياراته السهلة السالكة المتكررة للحاكم الأوحد في قصره، وعلاقاته المتينة به وبأهل بلاطه.. كان يفضي لها بما لا يقوله لغيرها وكأنه يتطهر من ذنب كبير ما:

- آه ياعذرا بلدكم شاسع وغني وشعبكم فقير.

لم يكن عبده العاشق سيئ السريرة أفضى لها بما في قلبه:

- لو كنت مكان حاكمكم الأوحد لما فعلت مثله على الرغم من أنه صديقي.

لم تنس عذرا حديثه المتواصل وهو يسر لها ما في صدره، كانا يقلان طائرته الخاصة إلى العاصمة، حيث أراد عبده أن يحتفل بزفافهما هناك.

عند وصولهما وجدا في انتظارهما بالمطار سيارات رسمية ومستقبلين كثر.

كم استغربت عذرا من كل ذلك الاحتفاء بعبده، وكأنه أمير هنا أيضاً، وليس في بلاده فقط.. لكنه لم يكن يأبه لشيء حوله كان مسكونا بها وحدها، سأحتفل بك يا عذرا كما يجب وبما تستحقين.

كان الطريق طويلا.. سيارتان ذات دفع رباعي يتبعان سيارتهما..

عذرا مندهشة أمام مشاهد تدرج ألوان الأخضر المختلفة تتسلق كل شيء، الحشائش والأشجار العالية التي لا تغيب عن النظر، حيثما مرت العين إلا ومرت عليها. كانت من خلال لباسها الطارقي الجديد لا تتأمل بل تشاهد بدهشة هذا العالم المخضر وهي الآتية من الكثبان والرمال الممتدة في تدرج الاصفرار. لم تكن تتخيل أن الشمال بمثل هذا الجمال على الرغم من الكثير الذي سمعت عنه..

حين ودعها أهلها بالدموع الحارة، لم يكونوا يتخيلون أن ابنتهم عذرا ستقضي ليلة زفافها في قصر من أجمل القصور وأبهاها، واحد من قصور الحاكم الأوحد. قصر معلق في أعالي غابات الشريعة التي لا تبرحها الثلوج وإن اختلفت الفصول.

كان الطريق طويلا إلى القصر البديع الذي لا يأويه غير زوار الحاكم الأوحد الخاصين المقربين من أصحاب الحظوة، كم كان عبده لطيفا ومتحرقا للاختلاء بعذرا:

- ليلة زفافك ستكون ليلة ملوك يا عذرا..

كانت السيارة تتسلق المرتفعات الخضراء، بينما تبدو من تحتها الوديان الجارية وغير الجارية، صخور تتعلق بالأشجار وأشجار تتشبث بصخور عملاقة كي لا تسقط في الهاويتين السحيقتين اللتين تثيران الدوخة جانبي الطريق. وكلما اقترب الموكب من القصر كان البرد يشتد، فتعلو بشرة عذرا قشعريرة مفاجئة.

بدت الطريق بيضاء ناصعة.

فتحت عذرا عينيها على آخرها، وهي تنظر إلى هذه المادة البيضاء التي تغطي كل شيء، تملأ الطريق والمرتفعات المحيطة بها، وتميد تحتها أطراف أغصان الأشجار اللامتناهية العلو والامتداد في عنان السماء..

لم تكن عذرا تدري ما يحدث لها.. كان يمكن لشيء من الخوف أن يتسلل إلى قلبها لو لم تكن تدرك غرام عبده بها، وأن أمله الوحيد الذي يصبو إليه اللحظة أن يجعلها سعيدة وأن يبهرها ويقترب من قلبها، وأن يقوم بكل ما أوتي من قدرة لضمان سلامتها.. لو لم تكن مقتنعة بذلك لخافت.. لخافت من مصير ينتظرها قد يكون مجهولا. فكل ما حولها جديد ومبهر ومخيف.

- أتدرين يا عذرا، أنا أيضاً مثلك أبهرني جمال مرتفعات الشريعة حين أتيت هنا لأول مرة.

لا يوجد هذا الجمال إلا في بلادك يا عذرا.. في يوم واحد يقدر الانسان أن يعبر الفصول من الصيف في الصحراء إلى عز البرد والثلج في جبال الشريعة بالشمال.. بلادكم جنة.

قالها ضاحكا.

وضع عبده غطاء سميكا حول كتفي عذرا، التي تأبى أن تغلق النافذة، دون أن يمتنع من النظر إلى وجهها زادته بهجة الاكتشاف جمالا، وهي تخرج رأسها بدهشة من نافذة السيارة الفخمة العالية الى هذا العالم البهيج الذي لم تره في حياتها.

سقطت دمعتان من عيني عذرا.. دمعتا حنين أم دمعتا سعادة؟؟

من أين لعبده كل هذا النفوذ ليقيم ليلته الأولى مع عروسه في قصر رسمي؟ ثم هل هي المرة الأولى التي فيها يستعمله للغرض..

هي أسئلة طردتها عذرا من رأسها كي لا تفسد عليها فرحة الليلة الأولى، كم كان يبدو سعيدا والموكب متلهفا لاحتضانها.. ولكن ليس في أي مكان بل في قصر..

يقول عبده.. إنه قصر أجمل من قصورهم هناك.

لو لم تتوقف السيارة أمام مدخل تلفّه الأشجار، لظنت عذرا أن

الموكب الذي يزداد صعودا يفتح طريقه نحو السماء لا محالة.

كأنها غابة مجهولة لم يلجها أحد بعد، تقدمت السيارة ذات الدفع الرباعي في مساحات خضراء، يتخلل اخضرارها العنيد بياض الثلج، ويطل من بين جنباتها.

بدا باب القصر عملاقا من خشب أحمرداكن، يعلوه القرميد الذي يمتد على شكل قبعة. أذن عبده لمرافقيه بالانصراف بعد أن أنزلوا الأمتعة.

حمل عورسه بين ذراعيه عابرا مدرج القصر، كانت عذرا تبتسم دون أن يغيب عن عينيها أي جزء من تفاصيل ما حولها. وضعها برفق على أريكة قرب مدفأة ضخمة، سل فردتي نعلها الصيفي من قدميها، وفركهما بيديه كي تصل إليهما الحرارة.. كانت عذرا تنظر إلى كل شيء حولها باندهاش بينما لم يكن عبده ينظر سوى إلى وجهها.. اكتشفت العروس أن القصر لا برد فيه كل شيء مرتب، وكأن جنودا من الخدم يدورون به في الخفاء. لم تلمح غير اثنتين منهما.

- مشان عيونتش عذرا كلش يهون.

وحين سألته قال إنهما خادمتان استقدمتا من بلده خصيصا لليلتها ومن الآن ستصبحان تحت تصرفها. أشارت واحدة منهما إلى الحمام الساخن ثم إلى المائدة العامرة المنبسطة في الركن بها ما لذ من الطعام. عذرا منسابة نحو رغبتها في الاكتشاف وإشباع فضولها الذي حركه زلزال المباغتة لعالم جديد مختلف.

إنها بقصر.. تينهينان.. تماماً.. الملكة.

سألت عذرا عريسها عن هؤلاء الأشخاص الذين يظهرون في لوحات زيتية ضخمة:

- شكون هادوك.

رد عبده بارتباك.

- لا أعرف أسماءهم عذرا، الذي أعرفه عنهم أنهم شخصيات قديمة من التاريخ.. تاريخ بلدكم يعني.

تدور عذرا بخطى بطيئة تارة، ومسرعة تارة أخرى وهي تجوب أركان القصر تحت نظرات عيون عبده اللماعة المبتسمة المرتجفة مثل زوارق فوق موج قلق، يزداد شغفه بهذه المرأة التي لم تستطع أخرى أن تفعل بأعصابه كما تفعل، وتستثير جميع الرغبات التي ولد بها، أيقظت حواسا رافقته وظلت في حالة كمون دفعة واحدة منذ أن خلق في رحم أمه..

لم يعرف امرأة بهذا السطو وهذا الوجود المتعاظم يبتلع كينونته بكاملها.. ملكة طارقية.

تينهينان أصبحت ملكة الثلج إذن في أعالي جبال الشريعة.. تطوف عذرا بهدوء وتوأدة قصر الحاكم الأوحد.. تحت بهجة نظرات عبده وضعفه وشغفه.

تينهينان بمرتفعات الشريعة الباردة، العائمة في غلالة الثلج، الساكنة في الذاكرة الحية بهدوء ملغوم.. هدوء ناطق بصوت جهوري لا مثيل له..

تينهينان الملكة.. أطعمها عريسها على مهل، بملعقة صغيرة وهو يتأمل شفتيها عن قرب.. شفتيها اللتين طالما اشتهاهما.

ما الذي دهاه هذا الأمير أن يختار لليلة زفافه قصر الحاكم الأوحد بمرتفعات الشريعة الباردة وسط الثلج..

ألأن الصخر يتحتت من الصهد والقر، وقلب العاشق أيضا.. وأكثر..؟ أم لعلها جينات أمه السويدية، سليلة الثلج والأشهرالستة الباردة المتتالية الغارقة في مزيج من سواد الظلمة وبياض الثلج.

لعله يروم من وراء برد وثلج مرتفعات الشريعة إطفاء ناره المتأججة من هذه الصحراوية التي تتوالد فيها الشموس فتحرق منه الأخضر واليابس، هذه الآتية من أعماق التاريخ مثل أغنية، كلما تعتقت في الحناجر كلما صارت مثل خمرة ثمينة.. هل هي سليلة تينهينان أم هي تينهينان نفسها؟

تينهينان الملكة.. سقاها عريسها الآتي من مملكة أخرى، حتى ثملت، كان يملأ كأسها من خمرة عينيه الرقراقة مرتجفا

.. ثملت الملكة الصحراوية.. فانثنت بين ذراعي أميرها القادم من مملكة في الخليج العربي، مالت عليه، فأخذها على مهل كما يليق بملكة.

قليلا قليلا، الخطوة القصيرة، المتثاقلة، الأنيقة، اللذيذة، المتلعثمة، المتعثرة. الخطوة التي يسندها طول صبره وعرض صدره، الخطوة المائلة، الخطوة القاتلة المنتظرة.

على مهل، يدخلها غرفة النوم التي تراقصت رؤوس الشموع بها، من كل حجم ولون وطيب. غرفة كأنها سرقت للحظة من كتاب ألف ليلة وليلة.. تميد الستائر شديدة الحمرة على الزرابي والطنافس المطرزة والمزركشة.

يدخلان الغرفة الواسعة المضاءة بالأحمر الخافت.. كل شيء يعوم في ظلال حمراء غامقة مريحة للقلب والعين والروح.. يدخلانها وكأنهما ينزلقان في مسبح من عالم عبد القاهر المصمودي للعود والعنبر والعطور.

- عذرا عذرا عذرا.

لم يجد الأمير الخليجي كلمة أخرى أبلغ.. مفتونا يردد بهمس. تناثرت اللغة.. عجزت اللغة.. لا نعت بها ولا صفة ولا مرادف..

كان يبحث عن لغة لاتتعذر عليها أوصافها.. كل اللغة أصبحت عذرا. به إصرار على إدراك سر جبروت هذه المرأة..

من أين لها هذا السيف بليغ الحدة الذي يسمع صليله في كل حركة منها، من أين تأتي بكل هاته الغواية التي تلعب برأسه وفؤاده، فيشعر بدوخة خفيفة لذيذة كلما نظرت إليه أو ابتسمت.. ويشقه برق مكهرب يصعد عموده الفقري كلما مست يدها يده.

لم يعرف عبده هذا الشعور من قبل مع الإناث قط، وهو الأمير بن الأمراء، قاهر العذارى والنساء.. إنه يكتشف ذوق الذل، يستمرئه لأول مرة على يدي هذه المرأة النازلة من العصر الأمومي بكل حزمها وسحريتها.. من أين لها هذا الجلال الساكن فيها والمحيط بها، كأنه غلالة سحرية غير مرئية.. كلما مد ذراعيه نحوها فكأنهما تمران بحاجز قطني أوحريري ينغمسان يذوبان في طريقهما نحوها، فلا يدري إن كانتا ستعودان إليه سالمتين كما كانتا، جزءا من جسده أم ستنفصلان عنه وانقضى الأمر.. ثم إنه لا يعلم، هل فعلا لامست يداه شيئا منها، أم هو مجرد حلم يقظة..

منذ رقصتها بحفلة طلاقها الملعونة تلك، لم يعرف الأمير الخليجي الوسيم راحته ولا كيف يجمع شتات نفسه، كأنه ضيع فجأة بوصلته في الصحراء وضاع، ونسي من يكون، نسي ما يريده من وجوده على الأرض وما لا يريد. منذ أن رآها ذلك اليوم، وهو يردد لمن حوله بأن قدر وجوده على الأرض، وحياته ومرماها، أن يأتي إلى هذا البلد، بلد صديقه الحاكم الأوحد وأن يصيد في الصحراء وأن يلتقي عذرا..

كل وجود العاشق كثِّف في تلك النظرة، ولأن لكل حياة إنسان نقطة ارتكاز، فنقطة ارتكاز حياته هي عذرا، ورقصتها الغاوية تلك..

ولا شيء له قيمة ومعنى بعدهما.

بدا له وكأن القصر المعلق في أعالي الشريعة، المندس وسط الخضرة المغموسة في البياض، قد انفصل عن الأرض، ثم علا مبتعدا في الفضاء، تاركا أشجار الصنوبر تحته في مرتفعات الشريعة، بالكاد تُرى..

وهو الآن يطير به وبعذرا إلى حيث لا يدري.. ثم لا يهم أين سيطير القصر ما دامت عذرا معه..

لم يبرحها نظره، كان يعد عليها لفتاتها، وحركاتها، وأنفاسها، بينما كانت منهمكة في التمعن في ما حولها، تكتشف قصر الحاكم الأعظم بفضول ذكي فطن، ومن حين لآخر تلتفت إليه، فتطرح أسئلتها عليه، فيحار الإجابة، ليس لأنه لا يعلم، ولا يعرف، بل لأنه لم يكن يستطيع التركيز، كان جسده فريسة موجات تهزه، لا يعرف كيف يصنفها لم يعرفها من قبل، تعبر ما بين صدره وظهره.

- عذرا عذرا عذرا..

كان سعيدا بها..

- عذرا عذرا عذرا..

هامسا يسبّح باسمها وعلى حبال صوته، يصير اسمها سنفونية مدوخة

جلست متعبة على طرف السرير فاقترب.. كثيرا اقترب.. كانت أصابعه ترتجف.. فك الرداء الصحراوي الأنيق عن كتفيها فانزلق الثوب قليلا قليلا..

تصبب عرقه:

- عذرا عذرا عذرا.

متقطع الأنفاس لا يعرف على أي وتر يبدأ عزفه.

كان مجمر البخور يطقطق هناك في ركن بعيد، وكان ورد الآنية قرب السرير، ترقص أرجله في الماء، يأبى أن ينام، وكان الثلج يذوب فوق القرميد، وفوق شفاه أشجار الصنوبر، بأعالي الشريعة.

باب عثمان بالي

كم من الأسرار.. تحفظ الستائرُ المندلقة ألسنها..

ألقـت عـذرا ذراعهـا جانبـا حيـن اسـتفاقت وداعـب وجهها نور الصباح، فانتفض حرير أغطية السرير حولها ببهجة وخفة ومرح.

- أين أنا؟؟

.. انتظـرت لحظـة.. لحظـات كـي يصفو مـاء الذاكـرة الذي بدا مكـدرا، أعـادت دفـن رأسـها الصغيـر بين الوسـائد اللينة.. وسـقطت دمعتـان ملتهبتـان حارقتـان مزقتـا ممريهما في عمـق محجريها، كانت تشعر بهما تملآن عينيها ثم تتعثران برموشها..

إيه ياعذرا.. أضحتْ بعيدة أرضُك.. أضحوا بعيدين أهلك، لست في صحرائك، أتراك تقدرين على الفطام منها أم لا؟ كيف يمكن لك ذلك؟ وهذا الوجع يطوح بك كغزالة أضاعت قطيعها، فانبرت تجري في كل اتجاه، رافعة رأسها علها تلمح غزالا واحدا من فصيلتها.

آه يا عذرا يا ابنة الطوارق!

هل خنت نفسك واهلك؟

تتـراءي لخيالهـا بنتـا صغيرة تعدو على الرمل حافية، تغويها لعبة العروسة فتصلب عودين من قصب عرجون النخل، تحزمهما بالخيط،

ثم تصنع الرأس، ثم الضفائر. وبالكحل ترسم العينين الواسعتين، وبقية الملامح، ثم تلبسها بقايا القطع الباقية في صندوق أمها من قص الأثواب اللماعة المذهبة والفضية، كانت تلك عروستها..

عذرا العروس، تقفز إلى خيالها عذرا الصغيرة، وهي تربط جوادها عند باب الخيمة، وتوصي أمها أن تسقيه وتطعمه، دون أن تشك لحظة واحدة أنه مجرد عود طويل من القصب.. تجري فوقه، تجره بين فخذيها، وتأمره أن يسرع أكثر، وهي تتأمل بكبرياء أثرهما المرسوم، الذي يخلفانه فوق الرمل، كأي أثر يخلفه على الرمال مرور فارسة حقيقية فوق جواد أصيل.

نعم أنا عذرا الفارسة الأصيلة، سأظل عذرا ابنة الطوارق أبناء السماء المفتوحة، حاملة صهيل دمهم، أهلها الذين لن يغيبوا ولن ينتهوا.. من قال إننا انقرضنا وانقرضت ثقافتنا فقد كذب.. لن ننقرض إلا إذا انقرض الرمل أو انقرضت الشموس المتتالية بسخاء كل يوم.

أهلي باقون على الرغم من المحن، لم تلن مقاومتهم للدخيل الذي جاء يهدد وجودهم، لم تهدأ حروبهم الطاحنة ضده، واجهوه بما أوتوا من قوة وشرف، قاوموه على الرغم من معرفتهم بالقوة الجبارة التي كانت لديه، غير متكافئة مع ما يملكونه من أسلحة بسيطة، إلا أن الرجل الأزرق، العاشق للحرية ولصحرائه التي هي كل شرفه، لم يستهن بما لديه، وقاوم حتى افتك إعجاب خصمه نفسه الذي أبدى بمرارة، دهشته بهذا الرجل الطارقي الشجاع المفاخر.

حورب قومي وسجنوا وهجروا، وحاول هؤلاء الوافدون المستعمرون بمكر أن يدسوا الفرقة والفتن بين القبائل، لكن دون جدوى. جُوِّع قومي، وردمت آبارهم، وقتلت جمالهم وأبقارهم

وأغنامهم، ولكن لم تكلل جهود عدونا بالنجاح في تدميرنا، والقضاء على تقاليد حياتنا، وفلسفة وجودنا، وحريتنا في الرحيل والتنقل وبدونهما لا يدخل في رئاتنا الهواء، كم مرة حاصروا قبائلنا وأجبروها على الانسحاب إلى أطراف الحواضر، كي تسهل عليه مراقبتها.. والقضاء على وجودها.

تاريخنا مليء بالفخر والزهو ومليء أيضاً بالمآسي، جيلا عن جيل يتنقل تاريخنا على ألسنة النساء.

تلفتت عذرا حولها وهي تتأمل زخرفة سقف الغرفة في هذا القصر الذي يعود بناؤه إلى الاحتلال كما أخبرها عبده، عبده الذي يبدو شغوفا بالتاريخ وبقراءته وسرده.

إن كان شغوفا به فأنا التاريخ.. التاريخ يسكنني.

الطارقيات ينقلن التاريخ بطريقتهن..

تاريخنا لا نخشى عليه النسيان، لأنه يهدأ بأرحام النساء، في صحراء ممتده سماؤها، ولا أسلاك شائكة تستطيع فصل فضائها الممتد بحرية وجنون.. فلا حدود ولا أنفاق فاصلة، ولا أسلاك شائكة، فإن المرأة مالكة الخيمة وسيدتها.. الخيمة المكان المستقر والمتحرك في الوقت نفسه، المكان الذي يشهد ما يشهده وسط اللامكان، هو المكان الوحيد الذي يملك سقفا.. تملكه الطارقيات الحافظات للعهد.

تلفتت عذرا فإذا الضوء يسقط بقوة على لوحة جميلة (نساء الجزائر..)، عليها صورة نساء جميلات أنيقات جالسات وكأنهن يتجاذبن أطراف الحديث، شعرت بالحنين يتحرك في صدرها، فقفزت إلى مخيلتها قعدات «آحال» جلسات سمر وسهر من أجل الحديث والموسيقى والشعر والقصص.

جلسات «آحال» مثل كتاب كبير ضخم مفتوح، ولكن لا تستطيع

قراءته وتأويل معانيه وسـرد أحداثه بكل أمانة وفنية سـوى الطارقيات لأنهـن وحدهـن دون الرجـال مـن تمتلكـن الخيمـة، المـكان الوحيـد المسـتقر فـي اللامـكان، المتغيـر المتحول علـى دوام الرحيل، المكان الوحيـد فـي الدنيـا الـذي قد يطوى ويحمل علـى ظهر جمل، دون أن يفقـد ممتلكاتـه الثمينة، المـكان الوحيد الذي لا تضيع رمزيته وبهاؤه. حين يعاد إنزاله إلى الأرض، وتنصب أوتاده من جديد، ويستقيم مزيجا مضفـورا مـن الصـوف والقطن، وبعض الزينـة من العقيق، وبمجرد أن تمتلـئ رئـات الخيمـة بالهواء، حتى يصبح عالما قائما سـاحرا، كاملا، عامـرا، مليئـا بأسـراره التـي لـم تضيعها المسـافات الممتـدة في المد والامتداد.

تعـود الطارقيـات لضبـط التاريخ علـى إيقاع آلاتهن الموسـيقية، وأصواتهن وحركاتهن البطيئة المدروسـة، المرسومة بالجمال، ويرددن أشـعارهن فيعزفـن يغنيـن ويرقصـن ويعلمن ويحكيـن وينقلن الأخبار والأشعار والأحداث والتاريخ، ولأنهن يدركن أن التاريخ ليس عملية نقل باردة، لذلك فهن يحولن مجرياته إلى حكم، وفلسفة حياة، تتناقلها أجيال الطوارق.

تسـتوي عـذرا على السـرير الفخـم، تلف أطرافهـا بأغطية ناعمة بملمس الحرير، تنتبه إلى كتب مرصوفة جانب السرير، أغلفتها مكتوبة بخـط غريـب، لعـل الفرنسـيين تركوها هنا، أو أنهـا لمالكي القصرمن الحكام الجدد.

تهز عذرا كتفيها العاريتين تقول بفخر يكاد يشبه الكبر:

- أمي علمتني كتابة التيفيناغ.

تجلس عذرا وسـط السـرير الواسـع، وكأنها في صحراء مفتوحة

على الصمت، ثم بأصبعها تخط فوق الأغطية البديعة الرخوة، وكأنها تدس أصبعها المحنى في رمل حار، ثم ترسم حروفا متناسقة وتردد:

- تيفيناغ

وكأن شعبا كاملا يردد وراءها:

- تيفيناغ

ترسم أمي على الرمل حروف التيفيناغ، وأجلس بين يديها أردد بعدها بعناية واهتمام، وبصري لا يبرح الحروف المنصهرة في قلب الرمل الملتهب، مثل فضة مصهورة سائلة ذائبة.. ترفع أمي جبينها سعيدة بي وبسرعة حفظي، فتحضنني بحنان وتقبلني معتزة فخورة.

- آه بنتي عذرا.. يا زينة الطارقيات.

كل الأمهات الطارقيات يدرسن أبناءهن، هن المدرسة، والمعلم والمدير، والحارس العام، والمفتش، ووزارة التعليم.

الأمهات الطارقيات يكتبن على سبورة الأرض، من رمل صاف رائق مثل ذهب ذائب. لا يليق بتعلم التيفيناغ غير سبورة من الذهب المذوب..

- من قال إن ما يكتب على الرمل يمحى..؟

رغم العواصف الرملية، وتحرك الكثبان، وتغير التضاريس، تظل كتابة التيفيناغ التي تعلمه الطارقيات لأبنائهن واقفة ضد النسيان، منتصبة حية ناطقة..

الصحراء مدرسة كبرى يا ناس، والرمل لوحة من ذهب، والطوارق تلاميذها النجباء الأبديون.

لم ينتبه عبده إلى الزوابع وإلى العجاج المتصاعد حول عذرا، وتلك العواصف الرملية الهوجاء، تهز الغرفة وتلعب بالستائر وتهز كل

شيء بعنف. جلس مبتسما بصمت على طرف السرير الفاخر، بهدوء المنتصر، نظر في أعماق عينيها عله يجد اعترافا بقدرته على إدهاشها وهو يزفها إليه في هذا القصر العظيم، إلا أنه لم ير سوى خطوط سر عميق مبهم، يزيدها فتنة.

ضاحكا بشوش الملامح يأخذ يدها بين يديه وكأنه يملك العالم.

- عذرا عذرا عذرا..

أحيانا أشعر بأنني خنت صحرائي وأحيانا أخرى أتلمس منبع قوة في داخلي تقول لي إنني النبية التي ستعيد للطوارق مجدهم وتخبرني انهم ليسوا بخيرو يحتاجون إلى نسائهم.

ولن أسمى عذرا سليلة تينهينان إن أنا لم أفعل.

ليس مجرد حلم ذاك الذي يراودني..

سأعود وأقوم بمافعلته ملكتنا تينهينان.. أجمع قوانا وأسوق الطوارق إلى تاريخهم. وأجعل من لغتنا «تماشاق» أو تمعشق.. لافرق، ذات الموسيقى الفاتنة في مصاف اللغات الأخرى، سيحبها من سيعرفها. تعلمت اللغات فأحببتها.. أحن الآن إلى الكلام بتماشاق لغة الطوارق، أشتاق أن حاور بها أحدا، وتمتلئ رئتي بنطقها ولذة انسيابها مثل حلاوة تمر على لساني، فأرتوي برقتها وشفافية عباراتها المنسكبة في حلق الهواء.

- طال زمن الغياب وصمت «تماشاق» داخلك يا عذرا..

تشعر عذرا بالاختناق كلما طال بها الأمد دون أن تعبر حروف «تماشاق» رئتيها، وحلقها، ومخارج حروفها، فلا تجد بدا من الحيلة

تخرج الطارقية ريشة نعام من مخبئها، رافقتها في رحلتها، محفوظة مغروسة في جسم من الجلد المطرز بخرز أزرق، كانت

هدية من زوجها الأول، لم تدرك كيف استطاعت أن تظل سالمة منتصبة بكامل ألقها، وكأنها على أهبة الكلام، والنطق، لن تنطق بغير «تماشاق» ريشة النعام تلك لم تتعلم لغة أخرى، لا تعرف ولا تحسن لغة غير لغة الطوارق.

تجلس عذرا أرضا، تضعها قبالتها، تغمض عينيها، تربع رجليها وكأنها جالسة تحت خيمة، تزيد الروائح وعطور الصحراء التي تملأ الشقة شعورها بالانفلات، والابتعاد، بالسفر الممدد على جسد الجغرافيا، وعلى الرمل الحار، بين هسيس الصمت وهمس الصهد، كأن أوتاد الخيمة تسمع طقطقاتها المحببة إليها حينما تهب ريح خفيفة، تنثني بين أذرع هواء خجول، فتتحرك خفيفا خفيفا أطراف ثوب الخيمة الثقيل، المصنوع من مزيج الصوف والوبر المضفورين بعناية وذوق، تنبس بخشخشة خافتة..

يستقيم الخيال، تشعر عذرا وكأنها تحت خيمتها في صحرائها، تنظر إليها عيون جلسائها بإعجاب، وهي تتلو أشعارها. أشعارها لا تليق بها غير لغة «تماشاق».

كأنما تراهم، يتابعون شفتيها بكل حرف يخرج ساخنا مضيئا من فمها، وكأنه قطعة فضة تسكب في قوالب لتشكيل الحلي ذائبة ملتهبة لتأخذ شكلها النهائي حالما تبرد.. الكلمات في قصيدة عذرا تسقط مثل الجمر، تصهر أشكالها فتوصل رموزها ومعانيها.

نعم.. كأنها ترى جلساءها، تُضاء أعينهم وصدورهم، وكأنهم يحبسون أنفاسهم خوفا من أن تستيقظ فلا تكمل القصيدة.. قصيدتها التي تحكي أهوال ما يحدث في شمال الأرض، أهوال المدن وتفاصيل حياة سكانها وهمومهم وأحزانهم وأفراحهم القليلة، حياتهم التي تشبه الصناديق المغلقة، تفشي لهم أسرارا عن بشر مثلهم، لكنهم

يختلفـون كثيـرا. فيعجبون ويتعجبون.. القصيدة لم يسـمعوا مثلها منذ آلاف السنين..

وكأنها تسـتيقظ عند نهاية القصيدة، تعيد عذرا ريشـة النعام إلى مسكنها الجلدي بعناية، قبل أن تمسح قطرات بللتها.. لم تتأكد الحاجة عذرا إن كانت دموع ريشـة النعام التي تبكي كلما غنت لها أو قرأت لها أشعارها، أم أن «تماشاق» لغتها الطارقية، تسيل في صدرها وحلقها وفمها مثل الماء الزلال، فتنهمر من سماء الخيال فوق كل شيء حولها.

شـقة الحاجة عذرا، مثل عرين أسـد أو شـرنقة فراشـة، محكمة الإغلاق، تزهو بأسـرارها وأشـيائها الخاصة الطاعنة في الحميمية، لا يدخلهـا أحـدا، تظـل عالمها، مخبأهـا، وملجأها، ومهربهـا، قطعة من الهنـاك، تريـده أن يظـل نقيـا كرمـل الصحراء، أن تبقـى رائحته وروح العطر به صافية مجنحة، لا يعيقها عائق ولا يشوبها شائب.

عالـم حيـن تدخـل إليه وتغلق بابه خلفهـا، فكأنما قطعت برزخا يفصلهـا عـن عوالـم هـذه المدينـة المكتظـة بـكل شـيء، الفارغة من كل شـيء، مدينة واسـعة وضيقة في الوقت نفسـه، ينخر أهلها النفاق والتمظهر، والكذب، والحيلة، والظلم، وأشياء أخرى تبحث لها عذرا عن نعوت تليق بها.

تلج الحاجة عذرا شـقتها، تفقد الشـعور بالعالم الخارجي، تعود إلى صفائها وسكينتها، إلى صمت الصحراء، تتأمل حليها الكثيرة التي حرصت على أن ترافق رحلتها وتظل معها رفيقة وشاهدة على أنها لم تبتعد، خلخالها.. خلخالها الذي سـعدت حين تمكنت منه أخيرا.. لا ثمن له سوى، قطرات أول حيض، كعادة الطارقيات..

كم ظلت تنظر بعين الغيرة لسيقان البنات، وهن يلبسن الخلاخيل

التي تحدث رنينا محببا مجنونا، وكأنه نداء عاشق ملهوف.

كانت عذرا تنتظر بفارغ الصبر أن تلبس خلخالها الذي ينتظرها. أخرجته أمها من صندوقها الخشبي القديم ذي اللون العنبري ووضعته في صندوق عذرا ذي اللون الأحمر، وهي توصيها ألا تقربه، ولا تلبسه، ولا تمسه، إلا بعد أن ترى قطرات دم تسيل منها، وإلا سيحصل لها مكروه.. والمكروه هذا ليس سوى نفور الرجال منها.

تستمع عذرا لنصائح أمها بكل الجوارح، وعلى الرغم من أن طاعتها في ذلك أمر صعب، إلا أنه من الجنون عدم الإذعان لما أملته.. لا شيء أقسى من أن يحل بها هذا المكروه.. نفور الرجال.

انتظرت بفارغ الصبر تلك القطرات الحمراء القانية، كما وصفتها لها أمها على انفراد بكل دقة. منذئذ والقلق يلعب بنفس عذرا ويقض أحيانا أحلامها اللذيذة. كلما شعرت بشيء يتسلل من جسدها تهرع لمخبئها تتأكد، ولكنها سرعان تقفل راجعة تتأفف وتأسف عندما لا تعثر سوى على سائل أبيض شفاف، فتخرج وعلى ملامحها انزعاج، تنظر بعين الحسد للسيقان والأقدام المحناة المزينة بنقوش دقيقة تختم الجمال بها الخلاخيل ورناتها العذبة.

قدم ذاك اليوم الملتهبة جماره. ربما لم يكن كذلك، ربما كان مثل أيام الصحراء الأخر السابقات الناريات العاديات، لكن الحدث، أن جسد عذرا احترقت داخل خلاياه ألف شمس، حرارته المكبوتة المتزايدة المتصاعدة تنذر بالانفجار تتسلل من ثقوبه ومساماته وتفر هاربة منزلقة من تحت الأظافر. فكأنها تنثر عطرا غريبا. كأنها ستشتعل. توردت وجنتاها. لم تدر يومئذ لماذا نظرت إليها أمها مليا نظرات غريبة قبل أن تبتسم بصمت مبهم وتهز رأسها.

لم تدر أيضا كيف جاءتها الرغبة في فك أي شيء حول جسدها

فحلت ضفائرها وأرخت شعرها، كي لا يعوقه شيء عن الانفلات، ونزعت حزامها لم تدر كيف ولماذا زادت شهيتها لشرب اللبن الرائب، ولماذا هذا الميل المفاجئ والرغبة العارمة تغزو جسدها البض وتدعوخ بجنون كي يتحرك أو يرقص أو يطير. ثم ما هذه الدوخة اللذيذة..!!؟

نسيت عذرا ما طال انتظارها له..

تراءى لها خيط أحمر رقيق يرسم طريقه من بين فخذيها مثل خط حناء مرسوم بعناية حتى أسفل قدمها اليسرى، ظلت من دهشتها تنظر إليه، رافعة ثوبها، تتبع طريق الخيط الأحمر المنعرج تارة والمستقيم تارة أخرى وهو يقطع المسافة من منبعه حتى أسفل قدمها على الأرض. أرخت ثوبها، ثم غابت لتختبئ.. كان قلبها يدق بقوة ألف طبل، وأنفاسها اللاهثة تفورحارقة من المفاجأة.. كادت أن تجهش بالبكاء لولا أنها تذكرت شيئا، شيئا ساحرا مهما للغاية، جميلا ثمينا، محببا، كانت تنتظر امتلاكه منذ وقت بلهفة..

مالت نحو الصندوق الأحمر، التقطت الخلخال، داعبت استدارته ونقوشه ونتوءاته، ضمته إلى صدرها بحنو.. إنه لها.. إنه ملكها لوحدها. قبلته ثم أدارت قفله على طرفيه عند نهاية أسفل الساق بأعلى قدمها اليسرى، ابتسمت منتصرة، ثم خرجت عجلى تتمايل تحت نظرات الدهشة لصحيباتها، والضحكات المكتومة وغمزات النساء، وخزرات الغيرة، والوشوشات، وابتسامات الفتيات البالغات اللواتي سبقنها في وضعه منذ مدة وجيزة.

- بالصحة والراحة.. آعذرا!! قالت أمها وهي تقبلها.

عذرا صارت امرأة، ولجت عالم النساء المغري المدهش من اللحظة هذه فصاعدا، يمكنها، في عرف الطوارق، أن تتزين كأية امرأة بالغة، أن تتهيأ لتجربة الزواج.. خمس مرات إن أرادت، وذاك حق لها.

من الآن يمكن لعذرا أن تحضر الحفلات، وتطلق العنان لصوت قلبها.

- خمسة وخميس يا عذرا.. يا زينة يا بدرة.. يا زينة الوقفة والخزرة..

صرت امرأة.. كنت أشعر بتلك الرجفة الأسطورية التي تشعر بها جميع إناث الطوارق عندما يبلغن، ويتناقلن الخبر مؤكدات أن الرجفة تلك ماهي سوى عبور روح أنوثة الملكة تينهينان في أجسادهن. أنا أيضا شعرت بتلك الرجفة بروح أنوثة تينهينان تسكنني. كانت أمي تفكر في خيمتي التي ستدق أوتادها قريبا. ستزيد خيماتنا خيمة جديدة، ستنصبها عالية قرب خيمتها كما تفعل أمهات البنات اللواتي يصبحن نساء على غفلة مثلي..

سترفع خيمتي قرب خيمة أمي، كما رفعت خيمات بنات خالاتي محاذيات لخيمات خالاتي وخيمات بنات عمتي يسندن خيمات عماتي. من اليوم سأطلق عيون قلبي حيث يسير أجمل الفرسان.. سأكون سيدة خيمتي مثل أمي وجداتي ومثل الملكة تينهينان.. سأقف أمام خيمتي وكأنني أمام باب الجنة.. سيدخلها الفارس الذي سأختاره سعيدا وكأنه يدفع دفة باب الجنة ومن أطلقُه سيخرج منها تعيسا وكأنه خرج من الجنة قاصدا جهنم. سأكون أما لأطفال ينتمون إلي وإلى أمي.

لا غرابة ألسنا نحن حاملات الإرث، ألسنا نحن الذاكرة.

سأختاره شجاعا وسيما، غامضا كالصحراء. ملثَّما كما تلثِّم السحابات القليلة العنيدة وجه السماء، كريما، زاهيا بأخلاق الطوارق العالية، سأختاره منهم في لياقة ولباقة وعزة نفس، من هؤلاء الذين علمتهم الصحراء الصبر والنقاء والشموخ. يلقنهم ركوب المهاري البيضاء العالية الإقدام، ويزيدهم رجولة، ويعلمهم الرحيل الدائم

الحنين، يمنحهم الترحال أسراره التي لا رديف ولا نعت لها سوى الجنون المطلق حين تشتد الذكورة. سأداعب شعره، سأساعده ليرتدي الرداء الأزرق الغامق «التقلموست» بيدي هاتين، سأغار من السماء لأنها ستعشقه مثلي، ستتبعه حيثما سار، أعذرها لأن ثلث لونها الأزرق الفاتن يستقر فوق جسده تحت عينيه الباسمتين وهوينتصب بقامته شاهرا أعلام نسبه في هدوء وحدة وثبات.

تضع الحاجة عذرا الخلخال جانبا، كانت تغالب تنهيدة كادت أن تمزق صدرها. تشعل عود القماري، ينطلق للتو من رأسه دخان خفيف أبيض ناعم، فتمتلئ الشقة عطرا دافئا، تلتفت إلى حلي العظام والخشب، تمرر عليها أطراف أصابعها.. كأنها وجوه حبيبة تنظر إليها أو شفاه تبتسم على اطرافها كلام تريد أن تفضي به، إلا أن الحاجة عذرا لم تترك لها فرصة الحديث، كأنها تعبت من الحنين.

الحنين الذي يجمل الغياب ويجعل من الأشياء العادية خارقة.

تلقي الحاجة عذرا بالنظر نحو الخارج، كم تحب النوافذ.. الاختراع الوحيد الذي يحظى باحترام عذرا في بهرجة المدن.. النوافذ.. شكرا لمن اخترع فكرة النوافذ.

ولأنها لا تريد لحاجز ما أن يحجب الضوء، لا تحب الحاجة عذرا الستائر أبدا، لا تريد حدودا بينها وبين الشمس، ربما لهذا السبب لم تعلق الستائر أبدا في شقتها. تريد أن تفتح عينيها دوما على أول تباشير الصباح الجديد، تعانقه وهي في سريرها بينما يقابلها جزء من السماء.. السماء التي لا تكاد تتحرر من البنايات العالية.. تقوم بتثاقل حتى منبع الضوء تمتم:

- يا حسراه على ضوّ!

العمارات الشاهقات تحجب حرية الانطلاق، كل صباح ترسل منها النظر دون جدوى تبحث عن منبت الشمس، آملة ولو مرة أن يستطيع اختراق هذه البنايات اللئيمة، فيغيب ويترنح ويتمرغ على الرمال هناك، ويتدحـرج فـوق الكثبـان، يمرغ أطراف أجنحته التي جمدها برد الليل. تأمل أن تحس بالشـمس القوية تنزل فوق الواحات، وعلى خرير ماء الفوقارات، وعلى الحيطان الحمراء السميكة القصيرة المزينة بالثقوب، تحفـظ رطوبـة الردهـات فيتلألأ التراب، وتلوح الأشـعة بأذرع النخيل المائل بالعراجين البرتقالية السخية. النخيل الباسق الممتد في عليائه، فخـورا متكبـرا زاهيا تحيط بوهجه أشـجار السـفرجل، فتتبخر العطور وتمتزج، لا يضاهيها أي عطر، حين تشتد الحرارة حتى أقصاها ويسود الصمت، الصمت المكلل برائحة الشاي والنعناع.. تتقلب حبات الرمل النقيـة ضاحكـة، تنتظـر أقداما تمر بهـا.. تنتبه الحاجة عذرا إلى قدميها الحافيتين تدوسـان البلاط البارد.. تتنهد ثم تعود إلى فراشـها.. تدس رأسـها تحـت الغطـاء السـميك.. لا تريد لأحد أن يـرى دمع الطوارق ينهمر.

باب الجمعة

إنــه يـوم الجمعة.. تبدو الشـقة وكأنها مهجـورة.. غرفتا صديقتي باية ونسيمة لا تزالان مغلقتين وموعد براد التاي الحاجة عذرا ما زال بعيدا.. الصمت يلف كل شيء.. أتسلل إلى الشرفة.. قبالة البحر تبدو المدينة الكبيرة وكأنها تستفيق قليلا قليلا، أو تترنح ببقية دوخة من آثار سـكر البارحة.. المدينة الكبيرة المترهلة تخرج لتوها من حمام البحر الأبيض المتوسـط بمناشـف ناصعة البياض وكأنها تغسـل أسنانها بزبد البحر، تبدو أمواجه وهي تتكسر على الشاطئ من بعيد، الشارع تحت الشرفة يتنفس الصعداء، ويتثاءب ويعرض اشجاره تحت شمس دافئة، كأنه يغتنم غياب قوافل السيارات المتراصة في أيام الأسبوع الأخرى.. نضَّ عنه دروع الحديد الضاجة تحبس صدره طيلة النهار وأجزاء من الليل.. ها هو طليق الآن.. لا سيارة تمر.. هدوء مطبق.. إنها الجمعة.

حالة الشارع الهادئة اللحظة وأنا أتأملها من فوق، تذكرني بالصور الفوتوغرافية لأرشيف شوارع المدينة هذه، بالأبيض والأسود، تمتعت ذات يوم بمشاهدتها في أحد معارض الصور العتيقة.. أسترجع ذهولي حيـن شـاهدت الصـور المصفـرة التي لم يزدها الاصفـرار إلا غموضا

ساحرا، وقفت مندهشة أمامها، وقضيت وقتا طويلا في تأملها.. كم كانت مدننا جميلة.. نظيفة ومضاءة ومشجرة ومزهَّرة.. تبدو واسعة شوارعها وسماؤها وأكثر شساعة.. يا إلهي كيف تضيق السماء أيضا؟.

تَريَّف كل شيء حتى لا تكاد تفرق بين العاصمة وقرية نائية.. المشاكل نفسها.. لم أجد فرقا كبيرا بين مدينتي الأصلية التي جئت منها والعاصمة.. التساوي في القرف، العدل في اللاجدوى.

إنه يوم الجمعة.. التنهيدة هذه التي تشق صدري تنبهني أنني اشتقت إلى بيتنا.. بيتنا يوم الجمعة. يا لها الأشواق ما أقساها. على الرغم من مجهود الحاجة عذرا لمحاولة بعث الأنس في مساءاتي، ووجود نسيمة تغني بغرفتها دون انقطاع بصوتها الشجي وتحلم أن تصير فنانة كبيرة، وباية تصلي بغرفتها دون انقطاع أيضا وتسال الله أن يبعث لها بزوج صالح، إلا أن الشوق يأسرني أحيانا.

أشعر بالرهبة أيام الجمعة.. منذ أن مات أبي وأنا أخاف الفراغ الذي يتركه هذا اليوم في الهواء. الصمت الجنائزي الذي يتغلغل في الأركان وعمق الأشياء.. الجمعة بدون أبي يوم معلق في الهواء، أربع وعشرون ساعة زائدة عن الوقت.. لا جمعة دون أبي ولا أبي دون جمعة.

كان دائما أول المستيقظين في الأيام الأخر من بقية الأسبوع، لكنني لا أتمتع برؤيته ولا أشبع من وجوده، مستعجلا ليلتحق بعمله، إنه أول من يترك البيت، إلا يوم الجمعة.. فإن أبي يملأ الدار بقامته الفارعة وصوته، ونحنحاته، وخطواته. ويغمرني صوته القوي حين يناديني:

- زوخا زوحا.. جيبي لي كأس ما.. بنتني.

أثناء الجمعة أشعر بوجوده الشامل، الغزير، المحبب، وأحس بطاقته تملأ زوايا البيت، وتغمر فراغاته الأكثر صغرا ونأيا. يصبح البيت في حواسي الست المتفتحة أكبر وأكثر دفئا وضوءً. حضورأبي يوم الجمعة يزيدني اطمئنانا.

يستيقظ.. يتنحنح.. ثم يتمتم لست أدري بماذا، أو كأنه يدندن أغنية ما.. وبرأسي الصغير ذي الشعر الأشعث، متناومة من تحت الوسادة أسمع هسيس خطواته، وهو يمر بغرفتنا أنا وأخواتي.

من خلف رموشي المنسدلة بالنعاس، أراه يفتح الباب ثم يتفقدنا وكأنه يعدّنا واحدة واحدة، يتنهد بعمق ويدعو بصوت متقطع دعاء قصيرا أحفظه، ومن خلال أهدابي أرى أساريره كأنما تنفرج قبل أن يرد الباب ويختفي.

من الحمّام أسمع صوت الماء المختلط برنين الطاسة التي يغرف بها.. تملأ رائحة الصابون وبخار الماء الساخن ومعجون الحلاقة المعطر لأرجاء البيت.

لعله يتوضأ الوضوء الكبير.. كلمة كلما سمعتُها رجت جسدي قشعريرة لئيمة.. كلمة ارتبطت بأبي ولا معنى لها بدونه.

- راه يتوضا لوضو الكبير.

كذا ظلت ترن في أذني وشوشة أمي ذات صباح جمعة لأختها التوأم، التي حلت ضيفة عندنا آتية من بلد بعيد.

لم تأبها لمروري ووجودي قربهما.

وما أن قالت لها ذلك حتى تبادلتا نظرات قصيرة مرتبكة، وبعد لحظة صمت، غابتا في ضحكة هستيرية، طويلة أسالت دموعهما وفرقعت رئتيهما ولم تهدآ إلا بعد لأي.

ظلت الجملة الشيطانية تلاحقني، كيف لأبي أن يثير كل هذا

الضحك..

أبي هو أبي.. قد يثير الإعجاب، أو الرهبة، أو الخوف حتى.. أما أن تضحكا منه فهذا غريب.. وفوق هذا كله، هو الذي يتوضأ الوضوء الكبيـر وليـس الصغيـر فقط.. ثم ما معنى الوضوء الكبير.. من المؤكد أنه أقوى وأعمق وأفضل وأكبر من الوضوء الصغير.

ظلـت الجملـة اللعينـة ترن في أذني، لم أدرك معناها، ولـم أتجرأ أن أسأل أحدا. من المؤكد أنني لن أفكر في الاستفسار عنها من أمي طبعا، لأنها ستثور في وجهي حتما، وستوبخني كعادتها بتهمة التنصت علـى كلام الكبـار.. وسـتعيد جملا مـن كلام توبخني عادة به، أحفظه عن ظهر قلب، حتى أنني أحيانا أردده معها خلسة مثل ببغاء، بتحريك شفتي دون صوت.

بعيدا عن أمي، أطلت فكرة معقولة جدا تروم إشباع تطفل رأسي الصغير.

لابأس أن أسال المعلمة في القسم، أليس من المفترض أن تفهم عقل امرأة أخرى مثلها.. أليست معلمة، وامرأة قادرة على فك طلاسم حديـث أمـي مـع خالتـي أختها التوأم.. سأسـألها، وإن كان ذلك ليس بالأمر الهين.. سأفعل.

مغامرة هي إنْ أنا فعلت.. ولكنني سأفعل لامحالة أريد أن أفهم.. لـن أتـردد. علـيّ أن أعـرف مـاذا يُحكى عن أبي، لمـاذا تضحكان منه وهو الذي يتوضأ الوضوء «الكبير».. كيف يصير شيء «كبير» مضحكا فـي عالـم الكبـار.. غريـب عالـم الكبار هذا.. أخـاف أن أكبر.. أحيانا تحاصرني الأسئلة وأشعر بضياع.

اليـوم سأسـال المعلمـة على مضض، علهـا تريحني، على الرغم من أنني لم أرتح لها يوما، لم أر منها إلا الفظاظة والغلظة. حتى قبل

أن تدخلنا القسم وبينما نحن نصطف أمام الباب، تبدأ في الصياح والصراخ والأمر والنهي، بأعلى ما لديها من حبال صوتية، ثم إن رائحتها تزعجني، كريهة منفرة، لم أرها غيرت جلبابها الخارجي منذ بداية السنة ولا أدري ما حال لباسها الداخلي.. كم كنت أتمنى أن تكون لدي مدْرسة، وقسم، وساحة، ومعلمة، تشبه ما أراه في أفلام الكرتون والرسوم المتحركة بمنتهى المتعة.. القسم منشرح واسع بنوافذ كبيرة نظيفة، مرتب مزين بصور جميلة. تلاميذه قليلون نظيفون ومعلمة لطيفة وأنيقة، ذات صوت ناعم ووجه حنون مبتسم، شعرها مصفوف بعناية وتبدو نظيفة وجميلة..

لا أدري إن كنت سأنسى خلال حياتي كلها اليوم الأول لدخولي المدرسة، حين وضعت قدمي الصغيرتين بها، على الرغم من وخزة خوف في صدري، كنت أزهو بثوبي الجديد ومئزري وحذائي ومحفظتي وأحلامي وكأنني أمتلك العالم.

هالني الواقع، وخانني خيالي الصغير المصنوع من أوهام، شعرت بذل وانكسار، وأتعبتني المقارنات، ويوما بعد يوم، سنة بعد أخرى، فقدت ثقتي في الخيال، وتخليت شيئا فشيئا عن أوهام أفلام الرسوم المتحركة، وبدأت أتغلغل وأضيع في رمادية شبكة الواقع الحقيقية ليومياتي، في مدرسة لا تشبه المدرسة التي رسمتها بأقلام ملونة في مخيالي الفتي الواسع.

- معلمة.. معلمة.. ما معنى الوضوء الكبير، من فضلك؟؟.

نظرت إلي بشيء من الدهشة، مقطبة حاجبيها كالعادة، ارتجفتُ انفعالا بقوة حتى مالت عضلة خدي الأيمن معوجة نحو الأسفل بغير إرادة مني..

- أعيدي السؤال بصوت مرتفع.. يا زوخا..

يا إلهي.. إنها تطلب مني إعادة السؤال.. ترددت لحظة وأنا ألوم نفسي على هذه الورطة.. يا له من هلاك.. لأول مرة أحن إلى العودة لرحم أمي.

لكن وجهها أصبح بشوشا فجأة وبقدرة قادر.. تفاجأت لسرورها.. بسرعة وعلانية، أشهرت سعادتها وهي تسمع السؤال للمرة الثانية..

انشرحت ملامحها فجأة، وتفرست في وجهي، وهي تعدل غطاء رأسها، كانت تكتشف وجودي اللحظة من بين ثلاثين تلميذا وتلميذة.

تنحنحت واستبشرت خيرا بسؤالي، وشكرتني عليه أمام التلاميذ وهي تحاول أن تثير اهتمامهم لتقلل من الأحاديث الجانبية بينهم.. لم تشد انتباههم بما يكفي، يبدو أن موضوع أبي وأمي وأختها التوأم والوضوء الكبير لا يهم أحدا غيري ولا يأبه له أقراني.

تنفست الصعداء..

و إذا بها تنهر التلاميذ بصرخة حادة وبصوت ليس يعلو عليه صوت.. استطاعت المعلمة أن تسكت الجميع.

أطرت أولا على فطنتي، وأعلنت أنني على صغر سني، بدأت أخطو نحو الإيمان الصحيح، والاقتراب من الله وطريق جنة الفردوس، وقالت إنها فعلا تفاجأت من سؤالي الذكي، الذي كما أكدت وهي تردد عبارتها الشهيرة «إن دل على شيء فإنما يدل» على طفرة نضجي، وتقدمي العقلي بالنسبة للبقية.

استغربت من رد فعل المعلمة.. كيف غيرت موقفها مني على حين غرة.. الحق يقال كنت أشعر بشيء من الزهو..

هي التي دائما وإلى عهد قريب، كلما نطقتُ، أو سألتُ عن عملية حسابية، أو شيء لم أفهمه، تنهرني، وتعيرني بالغباء والكسل

وقلة الفهم.

كيف تَغيرَ الحالُ فجأة.. شكرا لأبي، ووضوئه الكبير.

الآن تنظرالمعلمة إلي بإعجاب وهذا رائع.. يبدو أن «الوضوء الكبير» مسألة مهمة وعظيمة عند الكبار.

- هذه هي الأسئلة الحقيقية التي تفيد مستقبلكم وتنفعكم في الدنيا والآخرة.. تعلموا أيها الحمير..

هكذا بصقت في وجه الجميع.

كانت تصرخ وهي تشير إلى التلاميذ الجالسين في المقاعد الخلفية.

على الرغم من أن الحصة كانت لدرس الحساب، إلا أن المعلمة استفاضت بسخاء في الحديث عن الوضوء الكبير، ولأول مرة سمعت كلمات جديدة (الحدث الأصغر - والحدث الأكبر..) إلا أنها كلمات لا علاقة لها بدروس الحساب، بل لها علاقة بحساب آخر.

- الحساب والعقاب شديدان، ستعلقون أنتم وأمهاتكم وآباؤكم من رموشكم.. جميع من لا يفعل ما أقوله لكم سيكون مصيره بئس المصير.. إنه شرع الله.

هكذا أسترجع صوت المعلمة المخيف..

وحين أعود إلى البيت في المساء، أطيل النظر في أفراد عائلتي بينما قلبي ينقبض.. أتخيل أمي وأبي وأخواتي وأهلي جميعهم، يعلقون من رموشهم، وتحتهم حطب كثير مشتعل، ونار أبدية تتصاعد إلى أجسادهم وهم يصرخون. ويتباكون ويتوجعون.

تغيرت صورة الله لدي..

يبدو أن المعلمة لا تعرف الله الذي يعرفه جدي. في حديث جدي كان الله طيبا وكبيرا وكريما، مثل السماء دائما يبتسم، يحمل في

يديه الكبيرتين الشمس في النهار، والقمر والنجوم في الليل، وأثوابا وحلوى وألعابا ملونة، وهدايا جميلة.. كلما سقط المطر أو ندف الثلج يقول جدي:

- هاذي رحمة من عند الله.....

كم هو الله طيب وسخي، وجوده ضروري في حياتنا.. ماذا كنا سنفعل بدونه؟؟ يردد جدي..

وكلما اشترى لي شيئا، يخبئه تحت بُرْنُسِه ثم يقول، بينما هو يقبل رأسي وخدي..

- إنها هدية من الله.. لأنك طفلة مؤدبة.. وهو يحبك.

كنت أفكر أن جدي قريب جدا من الله، وأنني محظوظة بكل تلك الهدايا التي تأتيني منه، ثم إنني علمت منه، أن هناك أفعالا تغضبه، الكذب مثلا يغضبه، وتغضبه السرقة، ولا يجب أن أسيء لأخواتي، ولا لقطتنا ولا للعصافير التي تحط على أطراف النوافذ، وعلي أن أعتني بالنباتات لأنها من مخلوقاته، وعلي أن أرويها لأنها حية تعطش مثلنا، وقد تموت من الإهمال، ولها الحق في الحياة لأنها تشاركنا في امتلاك أرض الله.. ويفرح بي إذا ما أقدمت على مساعدة غيري إذا استطعت إلى ذلك سبيلا، وعلي أيضا أن أسمع نصائح أبويّ وجدي ومن هم أكبر مني سنا وتجربة.

كم هو رائع الله.. جدي يقول دائما إنه خير كله وسلام ومحبة وطمأنينة.

- تغيرت.. نعم تغيرت.

لم يبق من عاداتي القديمة شيء مما علمه لي جدي وقتئذ، سوى أن أحدث الله على انفراد قبل أن أنام، وفي سرية تامة، فأجده قريبا مني يسمعني بإمعان، ثم أقرأ سورة الناس، وأعد على أصابعي واحدا

وعشـرين مرة «باسـم الله الرحمن الرحيم»، و«أسـتغفر الله»، ثم أختم بدعاء لم يتبدل لا بزيادة ولا بنقصان منذ طفولتي، منذ بلغت سنواتي الخمس حين علمني جدي طقوس الصلاة لهذا الخالق الودود..

تعلمت أن الله طيب، وعلي أن أحبه، فهو يحبني ويحب أسرتي ويحـب العصافيـر التـي لا تتوقـف عن الرقـص والغناء على الشـجرة بقرب بيتنا..

منـذ أن حدثنـي جـدي عنـه، وأنا أكاد أراه في كل مكان مبتسـما ببالغ الطيبة.

- ربي ما يحبش الشر.. هكذا لخص كل شيء.

لم يكن صعبا علي أن أفهم ما معنى الشر بما أن ربي لا يحب الشر كما قال جدي، وكما كان يؤكد فقيه الجامع الذي يحفظنا القرآن، فيعني باختصار أنه يحب الخير.. لم يكن صعبا أبدا علي أن أرضيه.. لـم تكـن طلباتـه كثيـرة هو الذي منح كل شـيء. لم يكن يطلب شـيئا محـددا لـه، كل مـا كان يطلبـه هـو أن لا نفعـل الشـر وما معنى الشـر إذن... الشـر باختصارووضـوح لاغبـار عليـه أن نسـبب الضرر لغيرنا، نسيء لمن هم شركاؤنا في الحياة على الأرض. يقول جدي إن شرنا لا يضـر الله فـي شـيء بمـا أننـا لا نراه ولا نلمسـه ولا ندرُكه. وصاياه بسـيطة ومفهومة كالماء.. تعلمت ذلك ببسـاطة الحياة وفلسفة واضحة مقنعة، كانت تزداد عمقا مع مرور السنوات فازداد حبي له.

تكبـر صورتـه شـامخا مضيئـا قويـا طيبا جبـارا متسـامحا.. كنت أشعر أنني أزداد جمالا كلما أرضيته. أصلي وأحمل محفظتي وأوراقي وأخرج خفيفة، أراه في الضوء الذي يغمرني من شعري حتى أخمص قدمي..

نعم كنت أراه في كل شيء وأشعر بالطمأنينة..

تغيرت صورة الله لدي..

يبدو أن المعلمة لا تعرف الله الذي يعرفه جدي. لم تتوقف المعلمة عن الكلام وبصوت مرتفع، كانت تتحدث عن أشياء لم نسمعها من قبل وبين الفينة والأخرى يتتبع التلاميذ كلماتها بالسؤال.

- معلمة معلمة ماذا تقصدين بالجماع؟

كلمات جديدة: الجنابة.. النكاح.. الطهارة.. الوطء.. تفسرها المعلمة دون أن يرف لها جفن.. تتكلم بمتعة كبيرة.

كنت أتخيل أبي في معانيها ومبانيها، وزاد أمري تعقيدا وطيني بلة حين ساقت المعلمة بإطناب جميع التفاصيل الدقيقة دون حرج وهي تردد بين الفاصلة والأخرى:

- لا حياء في الدين يا تلاميذ لا حياء في الدين.

لأول مرة أرى التلاميذ قد انسكبوا فجأة في صمت جنائزي، وفي انتباه تام يشبه الغيبوبة.. صمت لا تفتأ أن تشوبه لحظات متوترة تعلوها ضحكات مكتومة من التلاميذ الذكور خاصة. أما البنات فكان الإحساس بالضياع بيّنا على وجوههن كن مثلي، ربما، يكتشفن آباءهن.

تغيرت صورة أبي في مخيلتي الصغيرة.. كما تغيرت صورة الله. لم يعد أبي كما كنت أراه. وتشوشت في ذهني الصغير صورة الله الطيب المبتسم الذي يرسل لي كل الاشياء المفرحة عربون حبه ورضاه عني.

صار متجهما يحرق بالنار ويعلق الناس من رموشهم ووو..

لم تراودني من قبل فكرة تخيل ما تحت ملابس أبي.. ولم أتساءل يوما في ماذا يصلح لأبي ما تحت ملابسه، وماذا يشبه؟ كنت أتخيله أحيانا وقد ولد هكذا بملابسه الكبيرة.

شعرت بغضب ورفض..

يحتمل أن تعرف المعلمة كل شيء.. ولكن كيف للمخلوقة هذه أن تعرف أبي أكثر مني.. إنه أقرب إلي منها وأراه وألمسه وأشمه وأعانقه وأحدثه، كيف للمعلمة أن تعريه بهذه الطريقة المشينة.. لا أعتقد أن أبي يفعل ذلك.. لا.. لا ليس هو.. ليس أبي.. ثم كيف لها أن تعرف الله أكثر من جدي الحكيم الطيب؟؟

- هكذا إذن يا أبي.. الوضوء الكبير؟؟ ما دهاك؟

انتهى الأمر.. صورة أبي تخلخلت، وتشوشت في ذهني الصغير. لم يعد أبي نفسه، صار آخر غريبا عني.

عالم الكبار غامض جدا ويفاجؤك بالصفعات.. كلما كبرتَ تكبر مفاجآته ويتوضح لك أنك كلما اكتشفته أكثر، يصغر في عينيك ويضيق.

ذاك الـ «أبي» يمتلئ البيت بعطره الأسطوري وهو يحلق ذقنه، يمشط شعره، ثم يخرج إلى الشارع الفارغ من الناس والسيارات والباعة كعادة الجمعة، وقد وضع البرنس البني فوق أثوابه الجميلة البيضاء الناصعة التي لا يرتديها سوى أيام الجمعات والأعياد قاصدا المسجد. أتتبع خطواته حتى يغيب ليدلف من شارع ألفريد دي موسي لشارع الأمير عبد القادر، عبورا بسوق مارشي ميشلي ثم أغلق زجاج النافذة. تبدأ رائحة مرق الكسكسي الشهية في الانتشار في بيتنا مثلما هي عادة أغلب البيوت أيام الجمعات.

- تغيرت.. كم تغيرت.

من يعيد لذهني صورة الله التي رسمها جدي في ذهني الصغير لأنني أحبها وأحتاجها، إنها تريحني من الأسئلة التي تكبر معي ويزداد

عمقها مع ازدياد التعقيدات التي تحيط بي من كل جهة.. أين الله الذي يعرفه جدي المتسامح الطيب من الله الذي قتلوا باسمه الآلاف من الأبرياء لمدة عشر سنوات وكادوا أن يحرقوا البلد أخضره ويابسه، صغيره وكبيره، كل ذلك كي يصلوا باسمه إلى السلطة وأن يصيروا آلهة صغيرة للناس على الأرض..

تغيرتُ لأن كل شيء تغير حولي.. لم أعد غريرة.. سنوات الجمر التي فاجأت سنوات مراهقتي وتفتحي، جعلتني أكبر بسرعة وأعي العالم بعمق أكبر من سني، وأحرق عشر سنوات من الأسئلة التي أنضجتني على نار ليست بالهادئة.

وإنها الجمعة، الشارع في الأسفل مغر جدا للمغامرة، الحاجة عذرا لن تأتي الآن لتفتح باب الشقة تسبقها رائحة النعناع ولن تبرح باية ونسيمة غرفتيهما للتو.

قررت أن أخرج إلى جمعة هذه المدينة، أن أسلم نفسي لهذا الشارع الفاتح ذراعيه، يدعوني بإلحاح.

نزلت مسرعة بعد أن خبأت جسدي النحيل داخل سروال جنز وقميص أبيض، وألقيت بنفسي إلى الشارع الفارغ مع بدايات النهار..

لا أحد.. كنت أشعر أن الشارع ملكي أنا لوحدي، وكأن المدينة الكبيرة هذه، التي عادة ما يغمّها الازدحام، اللحظة تطمئن لي ولخطواتي في هدوء قطة تغرغر في طمأنينة.

يا الله.. كأن منسوب الهواء أصبح فائضا. كأن رائحة البحر تتوغل في كل شيء تحمل رسائله المشفرة إلى الناس.

كأن السماء أصفى، والبنايات ببياض أنصع.. الشوارع خالية إلا من بعض رجال الشرطة وسياراتهم.

باشرني واحد منهم بصوت معسول، كانت عيناه القاسيتان تلمعان تحت قبعته بينما كرشه تضغط أزرار بذلته الزرقاء الرسمية:

- لوين بيها يا لَغْزالْ.. ودّرت داركم.. تبغي نوصلك؟؟

لم أرد.. بل واصلت طريقي بهدوء.

كنت وأنا أبتعد أشعر بعينيه تجردانني من أثوابي، قطعة قطعة، فتتساقط من على جسدي واحدة بعد الأخرى، فوجدتني أقبض بقوة على ما تبقى منها بكلتا يدي، إلى أن سمعت في البعد زميله يناديه بحدة ولوم.

- كابورال.. ها رواح أصاحبي..!!

تنفست الصعداء وتفقدت ثيابي قطعة قطعة وأزراري زرا، زرا.

شعرت بأذى.. علي أن أنسى الحادثة فورا كي لا أسمّم هذه النزهة.. علي أن أفكر في شيء مختلف.

لا أحد.. الشوارع الطويلة الممتدة تزهو بأشجارها.. كم عالية هي وباسقة وعتيقة وقوية وجميلة. اليوم تأخذ أبعادها في الامتداد والخضرة، لا أحد ينتبه لوجودها في الأيام الأخر، أيام للسيارات المتلاحقة المتزاحمة مثل دود عملاق يزحف في المدينة. اللعنة على الضجيج والسرعة والتلوث والغبار والدخان.. الآن، الطريق، والأشياء جميعها في سبيلي، تتنفس الصعداء وتشكر الله الذي خلق الجمعة.

باب المسجد الكبير الذي يتوسط المدينة مفتوح نصف بابه الخشبي العملاق. عند أقدامه وعلى مقربة من الدفة الثانية، يجلس في صمت مجموعة من المتسولين في حالة رثة، بينهم نساء يقبعن ذليلات، يحضن رضعا أغلبهم نائمون. ربما قضوا ليلتهم هناك.. من يدري.. المنظر ليس غريبا ولا استثنائيا..

كلما أردت أن أهرب ببصري نحو الجمال الطبيعي الذي يجلو

المدينـة، تعثـر قلبـي بامـرأة بائسـة أو رجـل يعصر ملامحـه ألم العوز والفاقـة، أو أشـخاص يبحثـون فـي صناديـق القمامة التـي لا ترفع من حسن الحظ أو سوئه يوم الجمعة، وشباب كثر يستندون إلى الحيطان.

- لا.. لا هناك خلل ما..

- أشعر بالغضب العارم والإحساس بالعجز.

ما الذي أسـتطيع فعله؟ وأنا التي جئت أبحث عن حظي، خلته أحسن هنا من المدن الأخرى؟

اللعنة.. كيف لهذه البلاد الغنية بكل شيء، فائضة الخير والثراء، مـن المـاء حتـى الرمـل، أن يشـكو أهلوهـا مـن كل هذا البـؤس. أين القائمون عليها وعلى ثرواتها ماذا يفعلون بها؟

- .. خلّي البير بغطاه.. لا، لا.. عرّي البر من غطاه.

بدأت رائحة الكسكسي تتسرب إلى كل مكان، تخرج من النوافذ وأبواب العمارات.. تتسلقني.. تضخم حنيني لبيتنا حيث عادة كسكسي الجمعة، وكأنه فرض سـادس. يحوم أفراد العائلة حول المائدة فوقها القصعـة الكبيـرة التـي تضعها أمي أمامنا شـهية يسـيل اللعـاب لرائحة الحمـص واللفـت بيـن بقيـة الخضر والمزيج السـحري للتوابل ونحن ننتظـر رجـوع أبـي من صلاته، بينما تبعث أمي بصحن شـهي آخر إلى مسجد حيّنا.

- صدقة مقبولة على المرحومين.

تتنهـد أمـي وهـي تفكـر في والديها لا شـك.. وتتذكر أن شـهرا مضى دون زيارة قبريهما.

في هذه المدينة الأنانية الصماء لا أحد يفكر في أحد.

- إلاَ خْطاكْ الجيبْ ما بْقالكْ خبيبْ.

تتجلى لي الآن صورة أمي الطيبة الغريرة تغطي بصري وتلعثم حواسي كلها.

نعم غريرة إلى درجة السذاجة أحيانا، على الرغم من تعنيفها لي وصراخها فهي مفرطة في حساسيتها، ودموعها على طرف رموشها، تبكي لمجرد سماعها حكاية حزينة أو مشاهدتها فيلم درامي، ثم إنها لا تكتفي بأن تساند من قست عليه الدنيا، بل يتخيل لي أنها تضع نفسها في مكانه وتتلبسها حالتُه حتى تغيب حدود ذاتها عما يفصلها بالغير.

كثيرا ما رأيتها تمسح دموعها السخية وهي تتمتم كلما وصل إلينا من الشارع صراخ يمزق صدر الظلمة، صوت المرأة التي كأنما تختار الليل بمثابة جبل أصم أو وادي سحيق تصرخ فيه، وتسمع صداه:

- أعطوووووووني حوايجييييي..

تغالب أمي الدمع وهي تعيد تفاصيل حكاية «الشريفة القليلة» المسكينة، لا تمل من قصها وإعادة ذلك.. ربما هي تريد إشراك الجميع في محنتها.. تكررها لمن لا يعرف حقيقة الصرخات الجريحة تلك..

- «الشريفة القليلة» مسكينة.. سعدها قليل..

قليلة الحظ فعلا، فاجأها زوجها ذات يوم باقترانه بامرأة أخرى، وهو يمد لها ورقة الطلاق باردة.. تم طلاقها بطريقة غامضة وبحجة أنها لا تصلح لفراشه، ولأنه رجل لا يقتدر عليه مقتدر، له معارف كثر.. بقوة القانون الذي فوق الجميع، بقوة قانون الأسرة فقد احتفظ لنفسه بالبيت وممتلكاته ثم طردها ذات ليلة مشؤومة، بينما سكن في طمأنينة إلى عروسه الشابة.. بعد أن هددها بعدم الاقتراب من البيت

ومنه ومن عروسه..

ما الذي تستطيع فعله «الشريفة القليلة»؟

لـم تختـر الشـريفة الهيـام علـى وجهـها، كان أمرا واقعـا بعد أن رفضت اللجوء إلى بيت أخيها الذي خيرته زوجته إما هي أو هي.

«الشـريفة القليلة» لم يفقدها مصابها كرامتها وإنسـانيتها فحسـب بـل ضيـع أيضـا شـيئا من صواب عقلها. تجوب الشـوارع فـي النهار، وتجلس عند السوق المغطاة «مارشي ميشلي» في الليل، حيث يجلس بعض السكارى.. استأنست بهم لأنهم لم يكونوا يسيئون إليها، بل رقّوا لحالها ولم يتوانوا في اقتسام ما يقتسم معها.

بـدأت ملابـس الشـريفة شـديدة البياض تفقد صفاءهـا ونظافتها، وشيئا فشيئا تفقد بريقها إلى أن صار حائكها رماديا من تراكم الأوساخ.

الليل بالنسبة للقليلة الشـريفة مثل مكان تلجأ إليه وتشـكوه ألم فجيعتها، تصرخ أثناءه بكل قواها حتى تكاد تختنق، ولا تكرر سـوى جملة واحدة:

- أعطوووووووووووني حوايجيييييييي...

بمـرور الليالـي الطويلـة اللامتناهية، لم يعـد صراخها يقلق النيام الغارقين في فراشـهم الوثير بعد أن بح صوتها، لم يعد يسـمع الناس سوى ما يشبه الحشرجة، أو الأنين، وإن هي لم تعد تستطيع الصراخ، كانت تفتح فمها المكلوم، وتحاول فك مغالق صدرها كاتم الصوت، لتكرر في الصمت المطبق بعد أن خدعتها حبال صوتها:

- «أعطوني حوايجي».

لست أدري لماذا كانت أمي تقف كثيرا عند هذه الحكاية، وتعيد تفاصيلها لكل زائراتها.. هل هي تخاف من نفس المصير؟ هل تتطهر مـن خوفهـا المزمـن؟ هل تخاف أن يتزوج أبـي عليها من امرأة أصغر

وأطرى وأخصب وأجمل، وهي التي تعرف أن من حقه أن يفعل ذلك مسندا بقانون؟

هل تخاف أمي من قانون الأسرة الذي لم يضمن لغيرها حقهن المطعون؟

هل تحب أمي أبي؟

و هل يتعايش الحب مع الخوف؟

لماذا أرى في عيني أمي الفزع الدائم عندما تفكر أننا كبرنا وأننا نتناقص في البيت كل واحدة إلى مصير ومبتغى؟

هل تسمع أمي بالتجمعات النسوية التي تدافع عن النساء.

ماذا لو تسمع بنساء تطالبن بتعدد الأزواج ردا على تعدد الزوجات؟

بخلاف أمي الهشة المستكينة، التي لا تجادل أبي في أمر، ولم أسمعها في حياتي تناقشه لتقنعه بشيء تخالفه فيه، فطوم جارتنا التي تجمعها بأمي قرابة عائلية، على الرغم من أنها بنت أعمامها كما تقول إلا أنها تمثل نقيضها التام والصارخ في عيني.

تشيع فطوم في الناس لقبها السائر «فطوم مونرو».

الحق يقال كنت أرتاح كثيرا لزياراتها ولوجودها ببيتنا قرب أمي، أشعر بتوازن غريب.

على العكس من أمي التي تبدو هادئة صامتة، فإن «فطوم مونرو» مستنفرة دائما ومنتقدة ورافضة ومستنكرة، تروج من بعيد لكل تحرك تقوم به الجمعيات النسائية، حسمت أمرها منذ مدة بترددادها أن قانون الأسرة ذاك لا يهمها ولا يمثلها وأن عليه أن يذهب مع الريح، وينقرض كما انقرض زمن الحزب الواحد، فعلا، فإن «فطوم مونرو» خارجة عنه

فعلا وعملا وليس قولا فحسب.. وإلى الجحيم من قننه ومن قرره ومن جعل تطبيقه جار.

- أنا خارجة على قانون الأسرة نتاعهم.. واللي يصرا يصرا.. الله ينعل الذل.

وجود «فطوم مونرو» في بيتنا يحدث تعديلا حقيقيا في مزاج أمي وميزانها. إنها تؤنسها. أمي المسكينة الهشة كثيرة التعثر، فهي من أم مغربية وأب جزائري، وهذا لم يسهل لها الحياة قطعا بسبب شطط السياسات العوجاء الهوجاء، التي لم تكن إلا كارثية في حياتها، ومن ثم في حياة الأسرة كلها بل العائلة جميعها.

كلما أصيبت العلاقات بين سلطتي البلدين بالزكام، أغرقت حياتها في بركة من السم الزعاف.

حدث أن طرد أبوها من المغرب، حين قررت السلطات المغربية أن تصفي حسابها مع النظام الجزائري بالتخلص من الجالية الماكثة هناك، والتي لم يكن يخطر ببالها الرحيل، ثم حدث أن رُحِّلت أمُّها بالقوة من الجزائر، حين أرادت السلطات الجزائرية الانتقام من عديلتها، فطردت الجالية المغربية، وفي كلتا الحالتين تتحول حياة أمي إلى جحيم.

مرة لخصت محنتها بقولها:

- هذي سياسة وإلا سِيرْكْ وإلا مَاتْشْ كرة قدم.. كان عليهم هؤلاء البقر أن يمنعوا من البدء زواج الجزائريين بالمغربيات، والمغاربة بالجزائريات بالمرة.. وكفى الله المؤمنين شر القتال.. ثم بالله عليكم لماذا لا يحدث هذا مع المتزوجين بالفرنسيات أو الإنجليزيات؟

تغضب أمي ثم تطرق مفكرة دامعة العينين كالعادة، ربما كانت ساهمة بعيدا بمدينة القنيطرة حيث ولدت غير بعيد عن المحيط

الأطلسي.. ربما تفضل في سرها لو أنها تزوجت هناك لربما كان الأمر أرحم.. ربما..

أمي جميلة وطيبة إلا أنني كلما كبرت ونضجت وتعمق وعيي بما حولي وبالعالم، يزداد شعوري بالخوف عليها والقلق من طيبتها تلك وهشاشتها. لم أكن أعثر عليها إلا عائمة في رائحة البصل والثوم وزيت الزيتون والتوابل.. طباخة ماهرة أمي لا مثيل لمذاق ما تعده. أمي من هؤلاء النساء اللواتي يعشن من أجل غيرهن يؤثرن أبناءهن وأزواجهن على أنفسهن ولو كانت بهن خصاصة. لم أر أمي تعتني بزينتها إلا حين عودتها من الحمام العتيق، مرة كل أسبوع رفقة أختيّ وجاراتها.

كنت أرمقها تسعد مثل بلهاء مطمئنة وهي ترى أبي يجلس إلى المائدة كل مساء يأكل بنهم، كنت أراقبه فلا ينظر إليها أبدا، بل لا يتجاوز نظره الأطباق التي تضعها يداها فيبتسم، ربما كانت تعتقد أن ابتساماته تلك عربون حب وإعجاب.

ثم إن أمي تأكل كل ما يتبقى في الأطباق، ولم أستطع تفسير سبب ذلك لحد الآن، وتردد مثل أمها:

- رمي النعمة حرام.

الفت أمي تزداد سمنة حتى اختلط الطول عندها بالعرض.

جاء يوم وقعت فيه الواقعة فسقطت السماء فوقها وفوقنا جميعا، يوم أخبرتها إحدى جاراتها أن أبي ربما يكون متزوجا من امرأة أخرى، إن لم تكن عشيقة له فقط، ولم تصدق أمي وأصرت على التغاضي حتى أتت لها بتسجيل حي لهما وهما يستحمان على شاطئ بوزفيل..

- الحق يقال.. المرأة تبدو أنيقة.. نحيفة وتلبس مايو من قطعتين..

بكيت سرا، إشفاقا على المسكينة أمي، وطيبة خاطرها، ثم وقفت إلى جانبها وعانقتها وأنا أؤكد لها أنه هو الخاسر وليست هي، إلا أنني لم أنكر أنها السبب الأساسي.

كيف تثق ثقة عمياء في رجل، لماذا لم تفهم ما كانت توحي به طاطا «فطوم مونرو» التي تعجبني في خرجاتها وفلسفتها.

زوج «فطوم مونرو» غائب دوما بحكم منصبه ومهمته الحساسة جدا، إلا أنني لم أسمعها أبدا تشكو أو تتذمر من غيابه، ولم يبد عليها أنها تستهجن وحدتها، هي التي لا أحد يرافقها، حتى ابنها الوحيد أرسله أبوه إلى إحدى المدارس العليا بأمريكا.. جميع أبناء أصحاب المهام الحساسة عندنا يبعثون بأبنائهم إلى أمريكا.

غالبا، وفي طريقها إلى هدف ما، تمر فطوم مونرو ببيتنا لتشرب قهوة العشية، تأتي بكامل أناقتها، يلمع شعرها المصبوغ دوما بالأشقر الفضي، تضع رموشا اصطناعية، وترسم شامة أسفل خدها، توحي أنها شبيهة مارلين مونرو.. ترتدي السراويل الضيقة والألوان الزاهية، والأحزمة الفضية، ثم تغطي كل ذلك تحت جلباب شرقي أنيق ومنديل أسود مطرز.

ذهب شكي ذات يوم، عندما رأيتها في طريقي تجلس بجانب رجل وسيم أنيق، يسوق سيارة رسمية فاخرة.

أبي لم يكن يحب «فطوم مونرو».

- واش ما زال راها هنا مارلين.. وقتاش تروح؟

يقول ذلك بصوت به هدوء ملغوم، ونبرة تكاد تكون ساخرة.

ربما كان يخشى عينيها النفاذتين المربكتين، فيعبر عن امتعاضه من زيارتها لنا، إلا أن أمي كانت ترتاح لقريبتها فطوم وتفضل أن تأتي عندنا في أوقات غيابه، وتتسلى بحديثها كثيرا، ربما لأنها كانت

ترغب أن تشاهد فيها صورتها المقلوبة أو المعدلة التي تفتقد شجاعتها وجرأتها. فماذا لو ترى مرآتها عن قرب؟

حين تأتي فطوم مونرو مثل عاصفة فلا حديث لها سوى عن الموضة والرجال، وسفرها المنتظر إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

- لوكان تولدت في الماريكان يا الحبيبة.. كنت درت انقلاب في هوليوود وكان العالم نسي مارلين مونرو.. بصح الله غالب يا الطالب.

كم كان يسليني ذاك الاختلاف الجذري بين أمي وطاطا فطوم مونرو.. لا تتردد في الجهر بأن الرجال من طينة بخسة، لا يستحقون أن تكسر المرأة أظافرها في الطبخ بسببهم، وغسيل وترتيب أشيائهم، ثم لماذا لا يقومون بذلك بأنفسهم.

- وعلاش هوما ماعندهومش اليدين؟

فطوم مونرو عاشت بعض الأعوام في فرنسا، فلا تمل من ذكر ما لخصته تجربتها وصداقاتها مع عائلات هناك وإعجابها بتعاون الرجل الفرنسي والأوروبي مع زوجته في شؤون البيت، يطبخ وينظف ويمسح ويستقبل الضيوف ويهتم بالأطفال ولا يرى حرجا في ذلك.. ولأن لسان فطوم ينزلق حين تغضب، تسأل باستنكار ومكر وسخرية وبصوت مرتفع وهي تلوح بذراعها في هواء الغرفة، هل للرجال في أوروبا عضو ذكر واحد بينما للرجال هنا عضوان ذكريان اثنان؟

- واش حاسبين روحهم.. باش زايدين عليهم يا ختي.. علاه هادوك عندهم واحد وانتاعنا عندهم زوج؟؟؟

ترتبك أمي وتسرع لغلق باب الغرفة.

المطبخ عند فطوم مونرو ضياع عمر، سجن مؤبد للنساء لا تريده ولا تهمها مهارته ولا التفنن فيه، وتردد دوما مثلا شائعا تحمله شعارا: «نحن لا نعيش من أجل أن نأكل، بل نأكل من أجل أن نعيش»،

ولا تؤمن بتاتا بالمقولات الشائعة المتوارثة بِنْتا عن جَدَّة التي تؤمن بها أمي، بسذاجتها، بأن «الطريق السالك إلى قلب الرجل هي معدته».. هذا يغضب فطوم مونرو كثيرا. رأيتها مرة تكمش قبضتها، وتضعها بين فخذيها، وتخاطب أمي بصوت أجش:

- ما تكونيش هبيلة بنت هبيلة.. الطريق إلى قلب الرجل من هنا يا العزيزة.

تضحك أمي واضعة كلتا يديها على وجهها الذي اشتدت حمرته، وهي تردد:

- الله يهديك يا فطوم الله يهديك!!

بدأ المساء يلوح في الأفق.. الجمعة على مشارف السبت إذن.. السماء تلبدت فجأة كما يحدث في المدن البحرية، وأمطار خفيفة تنزل ورائحة الإسفلت تتصاعد.. لن أضيع جلسة شاي الحاجة عذرا.. علي أن أعود..

أوقفتُ سيارة أجرة.

- أتسمحين أن أطرح عليك سؤالا؟

كنت آخذ مكاني في المقعد الخلفي وأنا أجفف نظارتي قبل أن ألبسها من جديد، أمسحها من قطرات المطر التي علقت بها قبل ركوبي سيارة الأجرة.

- أتسمحين بسؤال..؟

لم ينتظر أن أسمح أو لا أسمح.. بعربية ملوثة بفرنسية مكسورة، كانت كلماته تتعثر في العلكة بين أسنانه.

- النظارات هذه.. تلبسينها كل يوم؟

لم أجب ولكنه واصل:

- وجهك رائع الجمال دون نظارة.. حتى أنك لا تشبهين نفسك وهي تعض على نصف وجهك.. سبحان الله خالق الجمال..

وضعت النظارة الجافة فوق أنفي، لمحت عينيه ينعكس بريقهما في المرآة.

عيناه ملونتان تتحركان بخفة.. وترمشان كثيرا

بعد ضحكة خفيفة قلقة أضاف:

- أتسمحين بسؤال آخر؟

تظاهرت بالوجوم لكنه لم يأبه.. لم ينتظر فأضاف بضحكة خفيفة:

- كل الأشياء الجميلة يا سيدتي يجب أن توضع خلف الواجهات كي يراها الناس كي يتفرجوا على جمالها.. إلا العيون فلا.. العيون الجميلة لا تغطى يا سيدتي.

أتعرفين يا سيدتي.. عفوا آنسة أم سيدة؟

رفع إبهامه وهو يخاطبني في المرآة.. ولأنني لم أجبه واصل دون أدنى حرج.

- أنا قصير النظر مثلك.. نحن نتشابه في هذا على الأقل.. ناقص تسعة درجات في العين اليمنى وناقص ثمانية وخمسة وسبعين في العين اليسرى.. عندي ليسانس علم النفس ولأنني لم أجد عملا.. بغيت نقلبها طاكسي، وبسبب قصر النظر الحاد هذا رفضوا تسليمي رخصة السياقة لخمس مرات متتالية والله، فتدبرت أمري بعدسات لاصقة..

ثم أرسل قهقهة قوية وهو يميل إلى الأمام والخلف ضاربا بخفة رأسه على مسند كرسيه..

نعم أنظري هذه عدسات أضعها، وكل مرة أبدل اللون الذي

يعجبني.. يقترب من المرآة العاكسة ثم يرمش:

- شفتِ.. اليوم خضرة غدوة زرقة.. وبعد غد الله أعلم..

قهقهاته المرحة أدخلت بعض الصفاء في نفسي فابتسمت.

- اسمحيلي نقولك الصح.. أنت عيونك سوداء واسعة.. العيون الجميلة لا نصادفها كل يوم.. أصحاب العيون التي بها سحر هكذا مثلك، عليها أن تظل عارية كما هي، أقصد بعدسات شفافة، عدسات الرب.

لم أرد، ابتسمت بخفة، ثم وليت وجهي مصطنعة النظر عبر النافذة.

- أتعرفين أنني بالتجربة أضحيت أعرف طبائع الركاب من عيونهم، فمنها المائلة إلى الفوق، والنازلة نحو الصدغ، ومنها المجرورة نحو الأذنين.. ومنها ومنها.. والله العظيم أقول لك الصدق أصبحت عارفا بأسرار العيون.. فأول ما يصعد الزبون، من نظرتي الأولى إلى عينيه، أدرك ما بأعماقه.. منهم من لا أباشره ولو بكلمة، خاصة هؤلاء الذين تشبه عيونهم المصابيح الخلفية للسيارة.. هؤلاء صدقيني لا يسمعون شيئا لأنهم يدعون معرفة كل شيء، وكل كلمة أقولها يبحث عن نقيضها، لذلك أظل ماسكا لساني طول الطريق. ليس بالأمر السهل أن تمسك لسانك في هذا البلد.. بصَّحْ الصبر مليح..

ظل يسوق من غير سرعة لم يكن الطريق طويلا ولم يكن مزدحما، الطرق سالكة وتكاد تكون مهجورة أيام الجمعة، لم يسكت أثناءها لحظة واحدة، وكأنه لم يتنفس. جذاب حديثه عن العيون وعلاماتها، وسحرها، وقراءتها. طريفة كراهيته للنظارات خاصة الشمسية التي تحجب أهم شيء في الركاب عن عيونه وتسد أبواب الرزق.

- بعضهم مِن النظرة الأولى.. والله من النظرة الأولى يدخلون في القلب، ويبهجون الخاطر.. مثلك أنت الآن لولا تلك النظارة.. أظن أنك غريبة عن المدينة.. هه؟؟

.... لم أرد على سؤاله. اكتفيت بابتسامة.

- من أي جهة أنتِ؟

- وصلنا.. وصلنا.. توقف هنا الله يخليك..

- أنت من وهران؟؟؟

أخفيتُ تَفَاجُئي باستدارة بطيئة من رأسي نحو النافذة الأخرى وحين أردت فتح حقيبة يدي استدار كلية.. وبابتسامة عريضة أبانت صفي أسنانه وبينهما علكة بيضاء تعاني، تسلم الأجرة، نظر إلى وجهي ثم قال:

- كاطاستروف!!

لم أفهم ما كان يقصده، ليس مهما..

أغلقت باب السيارة تحت نظراته الخضراء وحين اختفى، نزعت النظارة وضعتها في الحقيبة وواصلت الطريق الى شقة الحاجة عذرا.

لم أكن أريد أن أضيع المزيد من الوقت، سبعة وعشرون سنة يبدو أن مواصلة البحث عن عمل هكذا بنية حسنة في انتظار أن أعثر بالصدفة على إدارة طيبة أمر انتحاري، لكن علي أن لا أفقد الأمل، علي المزيد من الإصرار على الوصول إلى مبتغاي..

وهل زوخا تطلب حليب الطير أو الذهاب إلى القمر؟

أريد فقط عملا يضمن كرامتي، هذه المدينة كبيرة جداً، وكل المؤسسات المهمة وغير المهمة متمركزة بها.. كنت أفكر أن الفرص هنا أرحب.. يا الله لا أطلب المستحيل أنا فقط أريد عملا.. أريد أن

أستقل بذاتي ولا أكون عالة على أحد.. أليس من حقي ذلك؟!

البلدان الأخرى التي تنتمي إليها صديقاتي بالمراسلة، ليست بالغنى والثراء الذي عليه هذا البلد، ومع ذلك يجدن فرصا للعمل، فيصبح للواحدة منهن عمل وبيت وسيارة وحياة كريمة، حتى وإن كان ذلك بعد بحث وانتظار. ثم إن الإدارة عندهم ترد بالنفي أو القبول، أما هنا فمن المستحيل أن يأتيك الرد لا بالقبول ولا حتى بالرفض.. ملفات طلبات العمل العديدة التي وزعتها عن طيب خاطر، وبسذاجة على مختلف الإدارات، لا تزال تعلقني ما بين الأمل الكاذب واليأس اليقين.

لا بد لك من «أكتاف» فإن لم تكن لك «معارف» مهمة فلا تحلم أن تحصل على شيء ولا تعتمد على شهاداتك وعلمك وذكائك، لن يكون لك شيء دون «معارف»، أنت صفر على اليسار دون «معارف»، و«معرفة»!! قوية متينة من فضلك.

إن لم يكن من بين معارفك، أو معارف معارفك، أو من بين معارف معارف معارفك، شخص ذو مركز مهم، يجعله يطلق أصابعه، ويفرقعها، فيأمر وينهي، فثق أن معرفتك وعلمك وشهاداتك وتجربتك لن تفيدك وستظل تقضي بقية عمرك تحلم بـ«الحرقة» عبر البحر، على ظهر زورق تقدم لصاحبه ما استطعت أن تستدينه من مال عند أهلك، مع إدراكك العميق أنك في أغلب الظن ستقضي بين الأمواج لتحتفل بك الأسماك أيما احتفال. وإن وصلت منهكا إلى الضفة الأخرى حيث حدود الجنة الموعودة فبقية حكايتك لن تكون وردية كلها. ولكي لا أنسى، لكي لا أتعثر ولا أفقد الأمل، وضعت صورة أمي مقابل سريري.. نعم صورة أمي البائسة المغلوبة على أمرها:

- ماديريش كيفي يا زوخا بنتي.. كوني امرا نتاع الصح.. كوني

امرا وراجل.

هكذا كانت أمي توشوش لي والدموع في عينيها، كلما ضاقت بها الحيطان الستة.

صورتها هنا مقابلي بعينين كسيرتين، تحفزني كلما شعرت بالإحباط وأحسست باللاجدوى من إصراري على الخروج منتصرة في حربي ضد البطالة، فكأنها هي من تأخذ بتلابيبي، وتعدل وقفتي، وتدعم عمودي الفقري وتدفعني كي أثبت خطاي، فلا أنثني عن الجري وراء حلمي في تحقيق ذاتي.. كل صباح صورة أمي الصامتة المنكسرة، تدعوني للنهوض، للحركة، لإثبات الذات، للكلام والتعبير عن ذاتي بحرية.. وتدعوني أن لا أترك مصيري يشبه مصيرها.. أليس هو ذاك حلمها.. أليست هي تلك وصيتها لي:

- زوخا.. زوخا.. ماتكونيش كيما أنا...!

تذكرني صورة أمي لا تنطق عن هوى وهي المعلقة في صمتها، صورة أمي المقابلة لسريري، تذكر أن الحياة التي لم تمتلكها، لا بد أن أفتكها، أن تكون ملكي أنا. مثلما هي ملك لغيري.. وتدفعني كي أنهض وأترك سريري لأن أغلب الأحلام القابلة للتحقق هي تلك التي نمارسها خارج السرير.

- لا تهتمي أمي.. وعدا مني لن أترك يوما يمر دون أن أجري وراء حظي..

وجدت عند الحاجة عذرا الصورة المبهجة للمرأة، العكسية المقابلة المناقضة لصورة أمي، الحاجة عذرا على الرغم من سنها فهي تبدو أصغر بكثير من أمي. إلا أنني لمست لديها حكمة مجربة. عذرا امرأة ذكية ومقاومة لكل صنوف الضعف هكذا تبدو. لا أدري من أين تأتي بكل قوتها تلك، والطاقة التي تفيض منها حتى توصل

لنا عدواها، فأراني ونسيمة وباية، كلما حضرت مع بداية المساء، إلا وتفجر في دواخلنا ينبوع فرح صاف رقراق، يروي صدورنا ونشعر أن العالم ليس سيئا كله، وأن هامشا من الأمل يختبئ في مكان ما ينتظر أن نكتشفه ثم نلتقطه.

نعم لقد افتكت الحاجة عذرا هذه الطارقية الآتية من مسكن الشمس إعجابنا ثلاثتنا، فلم نعد مجرد مستأجرات مؤقتات غريبات لشقتها، بل أصبحت بالنسبة لنا مثل الدليل الثمين البارع، مثل البوصلة التي لا تخطئ.

تأسرني قدرة الحاجة عذرا على إشاعة الفرح حولها، وتمكنها من أن تكون دوما ايجابية، أن تكون عملية، قابضة على لجام المصير، لا وقت للتأوه ولا مكان للشكوى.

في «قعدة آتاي» الماضية حدث أن تكلمت، وشرحت حلمي بشيء من التفصيل في الحصول على عمل والحياة الكريمة، كنت سعيدة وأنا ألون لوحة حلمي أمام الحاجة عذرا ونسيمة وباية، كلمتهن عن مبتغاي في سياق أحاديثنا التي صارت أكثر صراحة، تتعمق يوما بعد يوم وتصبح أكثر عفوية وصدقا وأريحية، نسيمة التي تحلم أن تصير فنانة معبودة جماهيرها وباية المنطوية المتوارية دائما خلف صمتها، لا تبحث عن عمل بقدر ما تحلم بالزواج تخاف من العنوسة، ولا شيء ينغص حياتها سوى أعوامها السبعة والثلاثين.

ودون أن أطلب من الحاجة عذرا شيئا، رق قلبها لحالي، سلمتني البارحة بطاقة أحد المسؤولين الإداريين الكبار الذين تعرفهم عن طريق وزير جار لها في نادي الصنوبر وصديق عبده زوجها السابق..

- قولي له، جئتك من طرف الحاجة عذرا وما تخافيش.. خيرنا

فيه سابق..

- أليس له اجتماع آخر قلت في نفسي؟

استقبلني بكل حرارة بعد أن علم أنني جئت «من يد» الحاجة عذرا، «من طرف» معالي الوزير «س».. كما أوصتني.

- مرحبا بك.. مرحبا بك.. كل شي ساهل كل شي ساهل.. إن شاء الله خير

طال حديثه واستطال، مدح كثيرا معالي الوزير «س» ولم يترك فضيلة إلا وألصقها به..

أدركت أن الوزير «س» شخصية مهمة جدا في الحل والربط وربما يريد أن يقايض خدمته لي بخدمة أخرى منه لم يفصح عنها.

استمرأ حديثه إلي بشهوة لا تقاوم.. لا شبيه لها سوى شهوته البائنة للسلطة. كان خلف مكتبه الكبير، بينما كنت أجلس قبالته في الجهة الأخرى من المكتب، أبدو نشازا بسروالي الجنز وحذائي الرياضي وقد لطفت الهندام بقميص أبيض ومعطف لأسود. أبدو ضئيلة وسط الأثاث الضخم الفخم. كان لا يراني، كان يرى من خلالي الوزير «س»، أحيانا ينظر في وجهي، ليتأكد أنني أتتبع ما يقول وأحيانا أخرى يغيب في منولوج طويل، عن موضوع دفاعه المستميت عن حرمة السلطة. وقصة انتقامه من ذلك الصحفي المتعنتر الذي كتب عنه مقالا في جريدة وطنية بالفرنسية، ينتقد قادحا الحفل الذي أقامه على شرف الوزير «س» في مدينة بالجنوب حيث كان واليا عليها آنذاك.

- أوقفته عند حده ابن الكلب. نحن نحكم.. نحن لا نلعب ولا نرقد.

قالها وهو يكز على أسنانه بكثير من الحقد وكأن الأمر يحدث

الآن.

- أتعرفين أنه كتب مقاله المسموم ونشره حقدا على نجاح حفل الاستقبال التاريخي الذي أقمته على شرف معالي الوزير «س».. تصوري.. على الرغم من أننا استقبلناه مع بقية الصحفيين الآخرين في الفندق الكبير هناك، بخمس نجوم، إلا أنه أكل الغلة وسب الملة.. لماذا لم يفعل مثل أسياده، مثل غيره من الصحفيين الذين كتبوا مطولا عن جمال الحفل، ونجاحه، وكثرة أكله ووفرة شرابه، لماذا لم يتطرق إلى الحدث الهام المتمثل في وضع معالي الوزير «س» لحجر الأساس لمشاريع جبارة مستقبلية كثيرة هنا وهناك.. الأمر الذي أذهل الجميع، إلى درجة أن إحدى الصحفيات كتبت قصيدة شعرية بالمناسبة ونشرتها في الجريدة الغراء، وبدوري أمرت بقصها وإرسالها إلى معالي الوزير «س» ليطلع على أصداء مدى نجاح زيارته والاحتفال بقدومه.

انفرجت أساريره فجأة على ذكر القصيدة، صمت قليلا، ثم ما لبثت أن أخذت ملامحه صورة صرامة قصوى:

- أولا اتصلت بمدير الجريدة، كلمته.. الحق يقال كان متفهما جدا، تأسف لهذا العمل الجبان واعتذر لي كثيرا ومطولا، وقال إنه من الآن فصاعدا لن ينشر مقالا عما يحدث في ولايتي، إلا بعد أن يرسله إلي لكي تطلع عليه مصالحي فتصححه، وتضيف إليه ما تشاء وتحذف منه ما تشاء.. وأقسم لي إنه لن يمر مقال فيه أي نقد سلبي لولايتي وسيهتم بالأمر شخصيا.. ثم اقترح أن تكتب مصالحي مقالات وتبعثها إليه فيتم نشرها باسم أحد مراسلي الجريدة.

- مكانش مشكل..

كانت مكالمتنا طويلة وأخوية وتعاونية.. قال ضاحكا.. لكن طلبي كان واضحا وحاسما.

قلت له:

- عليك أن تطرده من الجريدة، بعد المكالمة مباشرة كتب وثيقة فصلـه.. طـرده للتـو، لـم تعمر الجريـدة طويلا فقد تـم إغلاقها نهائيا، الأمـر طبيعـي.. كانـت عليها ديون كثيرة من مطابـع الدولة، آن الأوان أن يعيد للدولة مالها!!

لا.. لم أكتف بذلك.. لا.. أنا لحمي مرّ.. كيف يجرِؤ هذا الجرو أن يكتب عني وعن معالي الوزير «س» مقالا مثل ذلك: كلفتُ أحدا ليبحث في ملفه الشـخصي، فتوصل بتحرياته الشـيطانية إلى أنه ليس ابـن شـهيد، كمـا كان يدعـي ويفتخـر وينتفـخ، بل ابن حركـي، عندها اتصلت بزميلي والي المدينة التي يسـكنها، إنه رجل جيد في الحقيقة ووالي ممتاز وبيننا معرفة قديمة، وبيننا خبز وملح.. فتدبر أمره وطرده من المسـاكن الخاصة بأبناء الشـهداء فذهب هو وأبناؤه للسـكن عند أخيه.. لـم يبرد قلبي بعدُ من فِعْلته السوداء تلك.. التي أغضبت معالي الوزير «س» الله يحفظه. ولمعاقبته أكثر، تابعت أخاه الذي كان يعمل في جلب الأقمشـة والسـلع المهربة من سـوريا واسـطنبول، إنها قضية مشكّلة وعويصة تكفل بها أحد معارفي الشداد من مسؤولي الجمارك.. فاضطر إثرها إلى بيع بيته.. عندها، تأكدت أنه سـيُرْمى به إلى الشـارع مرة أخرى. ثم انتهى في السجن بعد أن وقع شيكا دون رصيد، بخلفية حكاية طويلة أخرى، تفطنت لها لجنة المتابعة التي شكّلتُها لتأديبه.

بين الفينة والأخرى كان يقطع حديثه بـ:

- سلمي لي على معالي الوزير «س» لا بد أنه يذكر هذه القصة أو جزء منها.

كان قلبي منقبضا، لا بد أن الحاجة عذرا لا تعرف هذا الشخص «المهـم» كمـا يجـب.. كنـت أنظـر إليه بقـرف.. كنت أشـعر أن عيني

فارغتين، أشعر بمعدتي تتقلص، خشيت أن أتقيأ في وجهه، ولكنني تمالكت نفسي وتريثت قليلا ثم ابتسمت بلؤم أنثوي.. قلت له:

- كل هذا من أجل مقال لا معنى له لا يقدم ولا يؤخر.

- شوفي.. (رافعا سبابته) هو درس له ولأشباهه.. عمر داوود ما يعاود.. لا بد من حماية حرمة السلطة.

قالها وهو يشير بسبابته إلى صورة «الحاكم الأوحد» الكبيرة المعلقة بعناية خلفه في واجهة مكتبه.

- شوفي الآن لا أحد يستطيع أن يكتب عني مقالا سيئا، كل صحفي يحاول أن يلعب بذيله أو يسيء لي أوللحاكم الأوحد ولمعالي الوزير «س» أو يتطاول على حرمة السلطة، فسيدير لسانه ألف مرة في حلقة قبل ان يجرؤ. نعم لا بد من درس كبير وعبرة لمن يعتبر وإلا ستفلت الأمور وتستشري. انظري، انظري.. كان يورق الجرائد أمامي التي كانت على طاولته..

لاحظت أن ليس هناك ملفات، بعض أوراق فقط فوق مكتبه.. بينما هو يتحدث إلي، كان يميل إلى الجانب الأيمن من المكتب فيضع الورقة تلو الأخرى في ماكنة فرم الورق.. يبدو أنه يستعجل إنهاء كل المعاملات، ثم يمررها في آلة تقطيع على يمين كرسيه، ينظر إلى الأوراق وهي تمر عبر مقصلتها بعيون نافرة من لذة مبهمة.. ما الذي حدث له يا ترى حتى أصبح يخاف من الورق؟ من أي شيء يختفي أو يحتاط؟

مد لي كومة جرائد اليوم التي كانت فوق مكتبه:

- خذي سأسلمك هذه الجرائد اقرئيها بهدوء في بيتك، مقالات كلها مدح وشكر وعرفان، وتعداد خصالي وميزاتي وفضلي وبركاتي على هذه المدينة وتبجيل لمعالي الوزير «س» ولفخامة الحاكم

الأوحد. لو أنني لم أكن صارما مع ذاك المتنطع لاستصغر البقيةُ من شأني وبأسي، ولواصلوا في قلة أدبهم. شوفي إنهم يتسابقون اليوم من أجل نشر مقالاتهم في مدحي ومدح غيري من الولاة والمسؤولين.. لا بد من عبرة لمن يعتبر. لا بد من وجود الصارمين مثلي.. أنا أؤدبهم وأعلمهم الصلاح.. كل هذه التضحية من أجل هذا (يشير إلى صورة الحاكم الأوحد)، عيب.. كيف؟.. ألسنا نحن الذين نتعب من أجل الشعب.. حفلة استقبال واحدة تكلف مئات الملايين، ومئات العمال، وعشرات الأيام من العمل والضغط النفسي، ثم يأتي جربوع لا قيمة له يكتب وينشر ما يريد وينتقد كما يحلو له.. لا.. أنا سأعلمهم جميعا أن يعيدوا التفكير ويترددوا سبع مرات قبل أن يكتبوا عن أسيادهم.. سأعلمهم أن الأسياد أسياد والعبيد عبيد..

لم أخبر الحاجة عذرا بكل ما جرى.. لم أرد تسميم أجواء «قعدة آتاي» المؤنسة.. لن ألوثها بحديث الكراهية..

قلت في نفسي سيلتقون ذات مساء قريب في ممرات نادي الصنوبر الخضراء، وسيخبرها ويخبر معالي الوزير «س» أن الآنسة التي جاءت إلي من طرفكم، قد وظفت وانتهت مشكلتها مع البطالة.. وكيف لا وطلباتكم أوامر..

كنا أنا وسمية وباية نصغي بكل ما أوتينا من آذان إلى حديث الحاجة عذرا عما يحدث في جنة الصنوبر، في جنة خلد تقع في الجهة الأخرى من المدينة.

باب سماء سمية الصماء

- جيبي الكاس زوخا..

أقـرب الـكأس الفارغـة فتصـب لي مـن جديد شـايها الذي يعبر الحلق والصدر مثل دواء سحري وتتغلغل رائحته حيث مكامن الروح. فكرت.. آه لوكان لعذرا ولد أو بنت كل هذه الأمومة ووفيض الحنان يهرقان سدى.

- ربي يعطي الفول للي ما عندو ضراس..

رن في رأسي صدى مثل شعبي كانت جدتي تردده كلما سنحت فرصة جيدة لأحد ما فلم يعرف كيف يستغلها.

محظوظات أنا وسـمية وباية قدرنا الجميل الرؤوف جعلنا نلتقي بالحاجة عذرا..

تسـتمع إلينـا بـكل جوارحها، وعلى الرغم من محياها البشـوش إلا أنني ألمح بريقا حزينا يرقد في عمق عينيها، يطل من حين لآخر. أسـتمع إلـى آهـة تفلـت من صدرهـا أحيانا نادرة أخـرى، لا تلبث أن تلحقها بضحكة أو ابتسامة، ربما لا تريد أن تزيد من ثقل كاهلنا وهي العارفة أننا نحتاج إليها، لقوتها.

لن أنسى ذلك المساء حين جاءت الحاجة عذرا وهي تحدد لنا موعدا جديدا نذهب فيه جميعا إلى نادي الصنوبر.. كانت الحاجة عذرا تحمل ملفا سلمته إلى سمية ثم قالت لها:

- ورينا حنة يديك..

فتحت سمية الملف بتردد ثم بلهفة، ثم فغرت فاها.

من أجل سمية فكرت الحاجة عذرا في كل شيء.. في بطاقة السفر إلى دولة عربية، في الإقامة عند صديقة لسعدة أخت عبده، في الموعد المنشود، مع منتج معروف وفرقة موسيقية لها حضور إعلامي متميز.

لم تتمالك سمية مشاعر سعادتها العارمة، بكت من فرحتها، وهي تحضن الحاجة عذرا..

يا الله كم يضفي الفرح جمالا على الإنسان.

- الفرح يزيّن والهمّ يشيّن.. هكذا كانت تقول أمي.

فقدت سمية السيطرة على نفسها في إحدى جلسات «آتاي» الأخيرة، فتحدثت بعصبية وهي تكاد تختنق.. لم أر سمية في هاته الحالة من قبل أبدا.. سمية الرقيقة، لا تسكت الأغاني والموسيقى في غرفتها أبدا، ولا تتوقف عن الدندنة حتى أنها أحيانا تغني لنا مقاطع جميلة من أغان كلاسيكية معروفة.. صراحة لسمية صوت عذب جدا. كل همها البحث عن قنوات الغناء والموسيقى وأخبار نجوم الطرب في الشرق والغرب، تريد أن تظهردوما بمظهر المتأنقة في حركاتها وسكناتها حتى أصبح التأنق في كل شيء طبيعة ثانية في شخصيته.. جملها الأنيقة تنطقها بنبرة عليها مسحة العذوبة والشفافية سمية تريد أن تصبح نجمة في عالم الغناء وتعتبر مرورها من هنا، ليس إلا عبورا إلى أحلام المجد التي تراودها. تبحث عن لقاء يفتح لها باب الحظ..

وتنتظر ذلك كل لحظة. سمية مسكونة بالغناء ولها ثقافة واطلاع على أخبار أهل الفن والطرب. تعرف كل صغيرة وكبيرة عن النجوم، حتى أنها ذات مساء قصت علينا حياة المغنية الأمريكية «ماريا كاري» كاملة بتفاصيلها ووقفت عند الصعوبات الجمة التي تعرضت لها، وعثراتها ومآسيها قبل أن تصبح نجمة شهيرة. وعلقت في النهاية قائلة وكأنها تعزي نفسها:

- ماكانش حاجة ساهلة في الدنيا.. حتى هي تعذبت بزاف..

تركت سمية بيت العائلة لأنها لم تجد تفهما وتشجيعا لحلمها بعد أن وقف جميع أفراد عائلتها ضد رغبتها العميقة أن تصبح مطربة.. التقاليد لا تسمح وشرف العائلة لا يجيز. المطربة في الأعراف رديفة العاهرة.. والشارع نفسه يكرس صورة المرأة الفتاة السهلة اللعوب.

ضربها أخوها وعيرها بأقبح النعوت، بعد أن رفضت زواجا مرتبا من العائلة من قريب توفيت زوجته تاركة أربعة أطفال.. يريد امرأة تأخذ مكانها..

تهديد أخيها كان واضحا.. أخوها أيضا بدون عمل، انتمى مؤخرا إلى حزب ديني متطرف، يتوهم أنه سيقلب العالم رأسا على عقب ويفتح أبواب الجنة لمنتسبيه:

- واش حبيتي اديري لنا هيفاء وهبي.. والله غي نذبح لك أمك..

معقول.. إنها حياتي أنا وليست حياتهم.. لكل منا حياته، فلماذا يمد يده إلى حياة إنسان آخر ويسرقها منه.. بأي حق؟

أنا سمية.. لن أذعن لهذا الواقع التافه.. أريد أن أكون مطربة تدوخ طلعتها وصوتها العالمين.. وهذا هو هدف حياتي الذي لن أتخلى عنه.. لن أتخلى عن حلمي أبدا.. أنا سمية وما أدراك ما

سمية.. سأغير إسمي السلس هذا إلى «سلسبيل».. جميل سلسبيل «الفنانة سلسبيل» أليس مدهشا..

منذ البدء كنت أحلم أن أكون مثل وردة.. في المدرسة لم أكن أعرف وأحسن شيئا آخر غير الغناء، ولكن هذا العالم لا يعرف قيمتي لا يعرف قيمة الأشياء الثمينة.. سيسمعون بي كثيرا.. والله سيسمعون بي وسيعضون على الأصابع..

- أنا سلسبيل مطربة العالم، مطربة العصر.. سيكون لي المجد والشهرة.. أملك ما لا يملكه غيري من الفتيات.. أملك جميع العناصر والشروط التي تجعل مني فنانة كبيرة... ثم من قال إنني أريد أن أبقى هنا.. تمرمدت كثيرا في تلك المدينة الغولة.. الأحمق من يفكر أنه سينال اعترافا هنا. شوفوا الفنانة «صباح الصغيرة».. مسكينة.. كانت جميلة وذات صوت رنان، وبعد مكابدة مع واقع يرفض التميز والخروج عن القطيع، وبعد مكابدة التجاهل والنبذ المقيت، أصابها القلق بأخطر أمراضه، فأهملت ولم تجد قانونا يحميها، أو يساعدها على مقاومة مرضها بكرامة، كيف لها أن تجد من يحفظ لها ماء وجهها في عالم لا ماء في وجه من يحكمه، رحلت المغنية «صباح الصغيرة» الجزائرية مهملة وهي في عز عطائها.. سيكذب عليك من يقنعك أنك ستصبح على ما تحلم به في هذا البلد.. كل الذين اشتهروا هاجروا وفرضوا الاعتراف بهم من الخارج. أريد أن أسافر أن ألتقي مع من يقدر صوتي وموهبتي ويدفع بي نحو المجد، نعم هربت وسأهرب من أي قيد يريد أن يثنيني عن الوصول إلى حلمي الكبير. وإن قدر لي فسأوريهم..

كنتُ وباية نستمع إليها مستغربات خروجها عن صمتها بهذه الشجاعة الفاصلة، هي التي منذ البدء لم تكن تبين عن تذمرها سوى اليسير.

كانت الحاجة عذرا تنظر إليها صامتة، لم تتوقف سمية عن الكلام لحظة، وكأنها تريد أن تفرغ ما في قلبها دفعة واحدة وترتاح، كأنها تريد أن تتطهر وتصفو وتتهيأ لشيء آخر ينتظرها، تريد أن تمتلئ بالأمل من جديد.

- أعرف أن لا أمل لي هنا، على كل حال أعتبر مروري من هنا ترانزيت.. أبحث عن أي عمل أستطيع جمع مال منه يكفي ثمن السفر.. لكن أخشى أن يضيع مني الوقت لستُ صغيرة، خمسة وعشرون عمري، المطربات يبدأن صغيرات عادة، والانتظار ليس في صالحي. لست أقل موهبة من هؤلاء المغنيات اللواتي يملأن بأصواتهن الضعيفة الشاشات ويتبجحن بصراخهن وأنينهن ونشيجهن. لست أقل فتنة وجمالا منهن، وجهي ليس أقل جاذبية ولا انسجاما من وجوههن الكالحة المملوءة بسم البوتوكس، سأكون سيدتهن جميعا بصوتي الجميل، وبمفاتني التي أعرف كيف أشهرها في الوقت المناسب.. على أية حال لا بد من الصبر.. سأنتظر الفرصة المواتية للانطلاق، أتعرفن يا بنات بأنني لا أثق في الإدارات الرسمية هنا.. مللت صغائر وكبائر وتفاهات وعقد مسؤوليها، ولا أثق أبدا في وعودها.. سأجرب حظي بعيدا عنها..

حين استلمت قبول مدير إذاعة المنطقة باستقبالي، فرحت جما وامتلأ قلبي بالتفاؤل.. انتظرت الموعد بفارغ الصبر وملئه، وارتديت ما كان لدي من جميل اللباس، وجلست في قاعة الانتظار.. وبعد ساعة أو أكثر، جاءتني سكرتيرته وهي تلوك علكتها بتقزز، وتنظر إليّ من التحت إلى الفوق ومن فوق إلى تحت لتقول:

- إرجعي غدوة.. المدير راهو مشغول بزاف اليوم!!

وبينما أنا أبلع مرارتي وأستعد للمغادرة إذا به يخرج على غفلة

من مكتبه فاصطدمت عيناه، عينا الثعلب بي.

- ادخلي.. قالها باردة.. وكأنني جئت أتسول عند باب داره.

مكتب واسع، صالونه الفخم لا تنسيق فيه ولا ذوق، هكذا خمنت لأول وهلة، كان يلبس ساعة ذهب كبيرة وواسعة الدائرة، يرفعها كل حين وهو يدير معصمه، عيناه صغيرتان حادتان جداً، تدوران في محجريهما مثل دودتين محصورتين، كنت أتساءل هل لمثل هذا أن يفهم في الفنون؟! كنت أعلم مسبقا كما يروج في مدينتي أن المدير العام هذا ظهره مسنود بقوة، لأن صهره شخصية قوية جبارة متمركز في هرم السلطة.

جلس خلف مكتبه واستوى، كنت مرتكبة كيف أبدأ الكلام ومن أين.. ثم تنقل وجلس على الأريكة القريبة، وبينما كان ينظر إلي بإمعان زاد ارتباكي، استجمعت قواي كلها وأخبرته بما جئت من أجل توضيحه، وطلب المساعدة في تحقيق حلمي في مجال الفن..

- كل شي ممكن يا..

قال رافعا حاجبيه في وجهي وكأنه يأمرني أن أذكره باسمي.

- سمية.. سمية.. السيد المدير.

هب نسيم فرح عابر خفيف في قرارة نفسي، وابتسمت قبل أن يضيف جملته التي صعقت لها:

- كل شي ممكن.. بصح كل شي يمر من هنا يا.. سمية..!!

كان يشير بسبابته إلى عضوه الجنسي.

لست أدري كيف نهضت مرة واحدة، مثل من اكتشف تحته أفعى.. كأنه كال لي السباب، أو ضربني أو طردني..

خرجت من مكتبه مجهشة ببكاء مخنوق، تتبعني ابتسامة ماكرة للسكرتيرة.. كانت تفقرع علكتها.

- إيبيوة سمية.. تهلاي لي في روحك.. بصح ورينا حنة يديك..!!

قالت الحاجة عذرا باسمة وبنبرة امتزج فيها الجد بالهزل، وهي تحضن سمية للمرة الأخيرة.

تتركتنا سمية لتلتحق في مشيتها الأنيقة وحركاتها المتناسقة ببقية ركاب المطار الدولي، كنا نتأملها عن بعد.

- فعلا.. إن لها أوصاف النجوم.

دمعات تنهمر من أعيننا ونحن نودعها في هذا المطار، كنا نتخيل النجمة «سلسبيل»، ستعود ذات انتصار لها سيكون لنا ثلاثتنا، الحاجة عذرا وباية وأنا، شرف أول من آمنوا بها.

رجعنا رفقة الحاجة عذرا ونحن صامتات، كانت لمسة شجن، شعور أوسط بين الفرح والحزن ملأ قلبي..

يا لها الحاجة.. عذرا ما أطيبها وما أغربها وما أصفى قلبها.. يصعب علي أن أفهم ما يجمعها ويربطها بمعارفها هؤلاء.. أي عامل مشترك بينها وبينهم، أشرار وأنانيون وسيئو السريرة.

باب الرحيل.. طريق السراب

عـادة قديمـة، لا أذكـر منذ بـدأت تلازمني، تجعلنـي أتلهف إلى تسـجيل كل مـا يحـدث حولي، فأكتب كل ذلك فـي دفتر مذكراتي... لذة لا تقاوم.

حين أخلو إلى نفسي ليلا وأسترجع اللحظات الأكثر قوة وعمقا وإحساسـا أعيـد تشـكيل اللحظات القويـة العميقة المكثفـة. يحلو لي أحيانـا أن أسـجل كل شـاردة وواردة بمـا امتلأ به اليـوم دون أن يعلم أحد بذلك..

كل شيء يثير فيّ شهوة الكتابة، كتابة ما يحدث، كل كلام يقال أصوغه كما يحلو لي.. أشعر بلذة ومتعة وأنا أكتب وكأنني في عراك مع الوقت، وكأنني أخاف على الزمن أن يهرِّب إلى جغرافية النسـيان وأقاليم العدم ما نعيشه، فتتبدد أجزاء مهمة فينا.

أحس بحرية مطلقة وأنا أخط وأضع الفكرة تلو الفكرة، وأنا أبدل الحدث كيفما أشاء، وأنا أخون الحقيقة الواقعة أحيانا حين ألقح زهرها بالمتخيل الذي أخلقه، فيبدو أجمل من سابقه وأكثر دهشة.. ربما!!

ألتجـئ إلـى الخيـال لأنـه أبعـد من أن تمتـد له الأيـدي اللئيمة،

فتعدل مساره وسرعته المجنونة.. أكتب مذكراتي وكأنني أمارس رياضة اليوقا، أختفي قليلا ولو للحظات عن الواقع الذي يجثم بكل كلكله على صدر الحياة فيحاول أن يخنقها..

الحمد لله إن الناس لا تعلم ما في القلوب، ولا تكشف ما في الصدور، فلا تقرأ ما يدور في عقلك، ولا تعرف سرّك ولا تدرك ما يجري ويتلاطم في علبة رأسك، ولا تفهم ولا تفك الهيروغليفيا العجيبة الملتوية على جبهتك، وإلا لكانت الحياة عويصة.. نعم عويصة جدا.

لن تعود علبة رأسك المغلقة مغلقة.. ستمشي في الشارع وقد فتحت العلبة السوداء لرأسك على مصراعيها، وكل ما فيها يترجرج ويخرج لسانه للناس في غفلة منك، تمر على رسلك قاصدا متاعب الدنيا، بينما الجميع خلفك يتغامزون أو يتأففون وهم يشاهدون ما يدور فيها، وعبثا تحاول أن تغطيها بكفيك.

من العسير جدا أن تمشي طوال طريق الحياة وأنت بيدين معلقتين على رأسك، تحاول أن تخفي ما في العلبة. تحاول جاهدا لمّ الخيوط والأوراق المتناثرة الخارجة منها، والشرائط المتدلية من أطراف رأسك. جميع من يمرون بجانبك يقفون على أصابع أقدامهم، لكي يشاهدوا بتطفل ما يدور ويحدث داخلها. يسقط شيء ملون من العلبة، يتدحرج على الرصيف ثم ينزلق نحو الطريق، وقبل أن تسحقه عجلات السيارات، تلتقطه امرأة مسنة طيبة القلب تمد يدها لتعيده إليك:

- هوّد.. تقول لك.

تثني ركبتيك حتى تصبح علبة رأسك في متناول يدها تبحث بيدها بدقة عن مكان ما سقط منك فتعيده لك وتنصحك لوجه الله

وهـي تلـوح في وجهك بالشـيء الملون الذي سـقط منـك، يلمع بين أصابعها:

- رد بالك يا وليدي.. لم يبق لك في مربع الشـتم شـيئا.. هذه الشتيمة الأخيرة الباقية سقطت منك.. الحمد لله أنني التقطتها سالمة.. أعيدها لك فحافظ عليها.

تطبطب بيديها على رأسـك، تشـكرها جزيلا، وتذكرها أن موسم التكاثر لفصيلة الشتائم قريب.

- آه.. نسـيت يـا وليـدي.. أصبحـت ذاكرتي ضعيفة.. الله يذكرنا بالشـهادة.. بالسـلامة يا وليدي.. ورد بالك على العلبة.. راها محلولة بزاف..

إيـه.. لله حكمتـه فـي ذلـك، حيـن أغلقها بإحـكام وحكمة، لعله الوحيد والأول الذي فكر في حرية الإنسان وحماه من الإنسان نفسه.. أنت الوحيد الذي تعرف ما فيها.. فرُدْ بالك!!

- أنا فعلا مطمئنة.. فلا الحاجة عذرا ولا باية ولا نسيمة قادرات علـى الدخـول إلى مغاليقي وأسـراري.. إنهـا نعمة والله نعمة.. أجلس معهن بكامل جسدي، وأحلامي وأوهامي، وعقدي ونقائصي وضعفي وقوتي وهواجسـي وأسـراري ونكساتي، كصندوق محكم الغلق بسبعة مفاتيح، كل مفتاح مسكوك ومحفور بطريقة معقدة أيما تعقيد.. أحيانا يصعب علي أنا نفسي التفريق بينها في شتلة المفاتيح هذه..

نعم.. كم تغيرتُ.. تغيرت كثيرا

كنـت أحـب محمـد عبد الوهاب، أصبحت أعشـق باري وايت.. هـذا الوسـيم الـذي يشـبه صوتـه برقا، يليه رعد ويليه هَـرٌّ مطر غزير.. كنت أحب أم كلثوم ثم هويت في هوى ويتني هوستن، تسري قشعريرة الموت والحياة في عروق من يسمعها حتى يدوخ، ولا يدري هل هو

على الأرض التي تدور، أم إنه يدور حول الأرض!!

- زوخا.. نقصي الصوت شوية.. الله يخليك.

هكذا تطلب مني كل مرة الحاجة عذرا كلما استوت جلستها أمام براد آتاي في الصالة، بينما صوت ماريا كاري يصدح خارجا من غرفتي، يشبه مزيجا من الرعد والزغرودة..

تعودت منذ صغري أن لا أستمع ولا أتمتع بالموسيقى إلا إذا كانت عالية في المذياع أو الفونوغراف.. وكأنني أريد أن أشرك في نشوتي بها جميع من هم حولي، ذاك أمر قرب بيني وبين سمية كثيرا سمية المسكونة بالإيقاع ومجنونة الغناء.

أقسم أن الحاجة عذرا لم تسمع هذه الأصوات من قبل، ولم تسمع عنها يوما.. وإن هي أصاخت السمع فستضحك ساخرة ربما، أو ربما العكس من يدري.. والله سأسألها ذات يوم عن رأيها فيها حين تكون مناسبة الحديث لائقة، أما الآن فليس منا من تستطيع أن تفعل شيئا آخر غير الاستماع إلى الأحاديث الأخاذة للحاجة عذرا..

لا أعرف كيف تأخذ بأنفاسنا منذ الجملة الأولى، كل واحدة منا تتصور نفسها بطلة الحكاية على لسانها، ربما السر في ذلك أن الحاجة عذرا تأخذ الوقت الكافي لرسم شخصياتها حتى لكأنها تتجلى أمامي، أو تتلبسني أو أتلبس الدور فيها.. فأغلب أبطال ما يقع في المدن هم رجال وأغلب أبطال ما يحدث في البوادي هن نساء.

تذهلني طريقتها الصريحة الذكية حين تتطرق إلى الحديث عن الرجال.. «الذكورا».. كما تنعتهم دوما، ليتني عرفتها من قبل، ربما كنت استطعت أن أجيب على أسئلة مزمنة مثل الأمراض العصية، على الأدوية الكيماوية والشعبية والنفسية.. كنت استرحت من القلق الذي طالما انتابني كلما اقترب مني شاب بعينين ذابلتين تقطر رغبة

ودهشة وضعفا، يحاول أن يسكب العسل في صوته وهو يخطب ودي، فينتابني شعور متناقض.. هل فعلا كلامه وهيأته تترجمان ما بداخله، أم أن ما بداخله أخطبوطا جائعا وما به أبشع مما أسمعه وأراه من قصص حيوات وأحداث تتراكم حولي من ظلم الرجال للنساء.

أقترب من طالب ودي ثم أبتعد، أصدق تصنّعه للضعف والرقة، ثم لا ألبث أن أكذّب كلامه وهيأته، أتركه يحوم حولي، ويحاول بشتى السبل الاقتراب مني دون أن يفلح من افتكاك انتباهي، وغالبا ما ينقلب عـدوا لـدودا يرمينـي بكل الصفات القميئة ثم ينسـاني أويكاد أو هكذا أعتقد..

- اللي ما يلحق العنقود يقول حامض.. كذا كانت تقول جدتي الله يرحمها.

فقدت ثقتي في الرجال.. تبخرت تلك الرومانسية وهذا يؤلمني، لماذا أغلبهم نرجسيون وأنانيون ولا أمان فيهم..؟ الحق كل الحق أن تتحدث الحاجة عذرا عنهم هكذا، وأن تفعل فيهم فعلتها، وأن تسخر منهم.. كأنها تنتقم لشـعوب النسـاء قاطبة، لماذا يفعل الرجال بالنسـاء ما يفعلونه..

أسـئلة لم تبرح عقلي الفتي منذ نزلت عندنا عمتي بدرة، جاءت من قريتها إلى المدينة الكبيرة، التجأت إلينا بعد أن جربت كل الأدوية الشعبية التقليدية، وبعد أن وجهها طبيب القرية نحو عنوان طبيب معين.

نزلت في بيتنا، كي تتمكن من زيارة طبيب كبير مشهور متخصص في العظام.

بدرة امرأة جميلة جدا، هيأتها البدوية البسـيطة تجعلها قريبة من القلـب، هادئـة قليلـة الحديث ومبتسـمة دائما، رغـم أن ألم ركبتها قد حفر بصماته على ملامحها السمحة، تحاول أن تخفي خلف ابتساماتها

تحمّل أوجاع ركبتها التي تأذت إثر سقوطها أثناء عملها في الحقل، تورمت كثيرا عكس ما كانت تعتقده وتنويه من شفاء قريب.

في غمرة الانشغالات اليومية بطفلها وببيتها وزوجها وحيواناتها وواجباتها الكثيرة ككل نساء البادية، كانت تنتظر أن تشفى وأن يختفي الورم، ظنا منها أن جسدها الشاب القوي متين البنية، ليست هذه الكدمة الصغيرة ما سيثنيه عن العمل، فاكتفت بتجريب الوصفات التقليدية.

لم يبرأ الجرح كما كانت تنتظر بدرة وتأمل، بل استشرى الورم الخبيث حتى كاد أن يشل ركبتها، كانت بدرة تشعر أن في الأمر خطرا ما، لم تعد تستطيع النوم، الألم الغريب يقض مضجعها، ومأكلها، ومشربها. لكنها ظلت باسمة في وجه زوجها الذي لا يتوقف عن الشكوى والتبرم من قسوة عمله في الأرض.. الرجل الذي تحب، لا تريد ازعاجه بكثرة شكواها.. كتمت آلامها حتى لم تعد قابلة للكتمان.. ألم ورم الركبة الذي لم يعد يطاق لم يعد يسكت ليلا ولا نهارا.. شحبت بدرة كثيرا وفقدت من رونقها الكثير إلى درجة أن أمي حين رأتها صرخت..

- مالكي بدرة العزيزة.. واش راكي اديري الرجيم كيما ناس المدينة؟؟

ابتسمتْ بدرة ولمحتُ دمعتين في عينيها..

كان لا بد أن تنام بدرة في الركن الآخر من غرفتي.

تتوجع بدرة طوال الليل في صمت.. كنت ألمحها في الظلام تجلس في فراشها مثل شبح، كأن التمدد يزيدها ألما، تتكور مثل جنين تارة، أو تجلس واضعة يدها على ركبتها المسرحة أمامها تارة أخرى، كأنها تحاول أن تكتم أنينها، ومن حين إلى آخر ألمح ظل

رأسها يتلفت نحوي، وكأنها تخشى أن تزعج نومي، أنا المتصنعة النوم في الركن الآخر من الغرفة.

كأن ألمها الذي لا يطاق، يملأ الغرفة ويشحنها بضغط قوي، يصل حتى فراشي، مثل سم يسري في عروقي، مثل رعب لامثيل له. وأنا أتصنع النوم العميق كانت دمائي تتجمد وكأن بي حمى باردة، فتتسارع نبضات قلبي. أكاد أسمع نشيج بدرة المخنوق، كانت تبكي بصمت، لمحت حركة يدها من تحت غطائي، وهي تمسح دمعها بظهر كفها في الظلام، ثم اعتدلت في جلستها وقد وضعت يديها على ركبتها الموبوءة تنظر إلى الفراغ الأسود الرهيب عبر النافذة التي تركتها مفتوحة قليلا.

تعبت.. لست أدري كيف نمت وسط ثقل السواد والرعب وطاقة الألم الضاغطة التي سادت غرفتي.

لم أستيقظ إلا مع بداية بزوغ خيوط الفجر، فتحت عيني بالكاد، كانت بدرة تنظر خلف زجاج النافذة المنفرجة، كأنها تهرّب نفسها إلى الخارج وقد طوت ركبتها، منحنية الظهر كأنما تفر من ليل طويل سجنها في وحدة قاتلة، وهواجس وأفكار مشتتة موحشة.

- صباح الخير زوخا.. رقدتي مليح بنتي؟

- صباح الخير خالتي بدرة..

يا ترى.. هل كانت تدعو لنفسها بشفاء يكاد يكون ميؤوسا منه، أم ماذا؟؟

فيم كانت تفكر بدرة؟ أفي معجزة من السماء تقضي على محنتها في رمشة عين، يتقلص الورم فجأة، يتناقص حجمه، يختفي لونه المزرقّ المخضرّ القبيح، تتجلى الركبة ملساء أنيقة، تقف بدرة

مبهورة وترفع كفيها إلى السماء تشكر خالق المعجزة؟ أم تراها تفكر في طفلها، أم في زوجها، أم في نساء القرية وفتياتها، تمر وجوههن وأجسادهن، واحدة تلو أخرى في مخيلتها، بتفاصيل ملامحهن. من منهن ستأخذ مكانها وفراشها وأحضان زوجها، كيف ستتعامل مع طفلها، وخزانة ألبستها وأواني مطبخها، وذكراها.

هل سيضحك زوجها بعينيه اللامعتين وهو يتطلع إلى وجه زوجته الجديدة مثلما كان يفعل معها في أيام زواجهما الأولى؟

هل سيلاعبها مثلما كان يفعل؟

هل سيقوم باكرا لمشاهدتها بينماهي تهيء القهوة والفطور؟

هل سيفتح المذياع باحثا عن أغنية مرحة، ثم لا يلبث أن يمد يده يدسها في شعرها؟

هل سيساعدها، فيحمل السينية إلى مائدة الصالة، كل ذلك ووجهه لا يفتأ مبتسما..؟

ربما استأجر أحدا، يدفع له ثمن الاهتمام بالبقرة والدواجن في مزرعته الصغيرة، كي لا يصيب زوجته الجديدة ذلك المكروه مثلما حدث معها.. المؤمن لا يلدغ من الجحر مرتين..؟

ربما غير عاداته، فأصبح يرجع إلى البيت باكرا، كي يجلس إليها ويؤنسها، ويظل ينظر إليها، ولا يشيح بوجهه عنها أبدا.

سيقلع حتما عن عادة التذمر والشكوى والتأفف، بكلماته القلقة المتقطعة، وهو يلعن انشغالاته ومشاكله خارج البيت.

سوف لن يكسر خاطرها، سيسليها ويسعدها، ويدللها، ويشعرها أنها الوردة الوحيدة في القرية، بل على الأرض.. ربما أخذ يدها بين يديه ونظر في عمق عينيها وشكر الله في عمقه:

– ما حدث للمرحومة بدرة قضاء وقدر.. وعسى أن تكرهوا شيئا

وهو خير لكم..

سترتخي أساريره وتنطلق، وستعود ملاحة ملامحه، وسترجع ضحكته المجلجلة ببحتها الفاتنة.

بدرة لا تريد أن يُبتر ساقُها، لا تتخيل نفسها بساق واحدة، مهما كان، كيف ستبدو أمامه؟ لا تريد شفقة منه، وربما شفقة زوجته الجديدة، من يدري ربما فكر الزواج بثانية.. بما أنها ستصبح شبه مقعدة إذا ما حصل وبترت ساقها.. لا تتخيل نفسها تسير أمامه بساق واحدة تعرج، ترتكز على عصا أو اثنتين، أوعلى رجل اصطناعية، فتميل إلى اليمين ثم إلى اليسار.. أليس هذا مضحكا؟ ثم كيف ستطيق أن تشاهد ضرتها تتمايل أمامها ذهابا وإيابا تموج فساتينها، تهب الريح فيلتصق الثوب بها فتظهر الساقان منها، منتصبتين مثل عودي خيزران، تلتفت إليها وهي تبتسم بلؤم لتذكرها إن هي نسيت.. وكيف تنسى.. موحية لها أن السرير لا بد له من أربعة أرجل!!

أي امرأة ستضحى هي، حين ستصبح بساق واحدة.

- لا.. لا.. فإما الشفاء أو الموت.. إما أن تظل ساقي هذه معي في مكانها، بعد أن أشفى، أو أن أذهب معها.. والله لن تدفن ساقي قبلي..

هكذا كانت بدرة حاسمة، وهي تتحدث مع أمي..

أمي لا تفهم أو لا تريد أن تفهم ذلك، منطقها مختلف تماما.. كانت تحاول أن تقنعها بالتفكير في ابنها قبل كل شيء وأن تعيش له، يحتاج لها، ومن الأحسن أن تكون له أم بساق واحدة خير من أن يكون يتيم أم رحلت بساقين.

أطرقت بدرة قليلا:

- اطلبي لي الشفاء يا العزيزة.. إن شاء الله أشفى.. لن يكون

فخورا بأم مقعدة بساق واحدة.. سيتألم طول حياته وهو ينظر إلي أتألم.. أنا أعرف سينادونه ولد «بدرة العرجة». بدل «ولد بدرة بدور النسا».

ظلت بدرة عندنا أياما، لم تعد تقدر على الحركة، نتيجة الألم العظيم الذي سكن ركبتها، وازداد واستشرس فجأة حتى كاد أن يشلها. كانت تلم ساقها تحت ذراعها، وكأنها جناح مكسور كيفما حركته يوجعها، ويذكرها أن الطيران ليست فكرة جيدة دائما، وأن الموت ليست فكرة سيئة دائما.

لعله يوم صعب ذاك الذي قررت فيه بدرة أن تعود إلى القرية رافضة بتر ساقها كما اقترح عليها ذلك الجراحون.

قررت السفر مباشرة بعد عودتها صباح ذات اليوم من موعد الطبيب الجراح. كانت تحمل مغلفا كبيرا، فيه جميع التقارير ونتائج التحاليل والصور والمقررات الطبية.. جميعها كانت حاسمة وعازمة على أمر واحد وعاجل وهو بتر الساق في أقرب وقت وقبل فوات الأوان.

قد لا تنتظر درجة الخطورة طويلا، بحيث سيصبح الحل الوحيد نفسه - بتر الساق من منبتها عند الحوض- غير مضمون العواقب، إن لم يستعجل فعله..

لملمت بدرة الجميلة جسدها النحيل المكلوم في الحائك الأبيض المخطط بصفرة باهتة، لبست فردتي حذائها باهتمام بالغ وبهدوء وبطء، لم أر في حياتي امرأة تنظر إلى فردتي حذائها بكل ذلك الاهتمام وتلك المتعة.. المتعة المكلومة الموجعة..

وضعت بدرة تحت إبطها المغلف البني الكبيرالذي يحتوي على حكم نهائي لقدرها، ودعتنا واحدا واحدا، ثم عانقت أمي بحرارة

شاكرة لها ضيافتها واهتمامها بها. كان وجهها الشاحب، تتألم أساريره كلما حاولت أن تبتسم، يبدو وكأن رغبة الحياة كلها اشتدت وتجمعت شرارتها في بريق عجيب يلتمع يطل من عمق عينيها، كأنه عصفور يختبئ هروبا من عاصفة.

خرجت بدرة لتركب سيارة أجرة عند مدخل العمارة كي تنطلق بها لتوصلها إلى القرية، دسّت ساقيها معا في المقعد الخلفي، كانت تضع يدا فوقهما بحنان وتلوح لنا بالأخرى.. حتى غابت.

لم أر بدرة مرة أخرى في حياتي، سمعت أشياء كثيرة عنها من أمي وما تناقلته من أخبار عنها من معارفها من النساء.

علمت أن بدرة الوديعة المليئة بالحياة، المبتسمة دائما، الصبورة، الهادئة، قضت بعد فترة قصيرة من رجوعها إلى القرية، تناقلت ألسنة النساء التي لا تنام، أنه قبل رحيلها كانت المترشحات لأخذ مكانها يتنافسن في السر، على من تحل محلها، وأن زوجها كان قد وقع اختياره على عروسه الجديدة في صمت حتى قبل دفن بدرة، وأنه لم يكن حزينا في مأتمها بل كان يجهد ملامحه كي يبدو كذلك، وأنه لم يكن تعيسا تماما في قرانه، بل كان يجهد ملامحه كي يبدو كذلك..

روايات كثيرة عن زوج بدرة تناقلتها النساء المثرثرات مع أمي..

في غرفتي، ما زالت طاقة بدرة تملأ المكان، ما زلت ألمح ظل شبحها أحيانا، وهي تتوجع في صمت تحت جنح الظلام، ما زلت أراها تتشبث بأسفل إطار نافذة غرفتي، تتعلق بأشعة الصباح الأولى، كي تغسل وجهها الشاحب بالضوء، وهي تلم ساقها المؤلمة مثل حمامة جريحة تجرجر جناحها المكسور، أو كأنها كانت تشعر بالنصر حين تستقبل يوما جديدا بدأ في حياتها، ولم يخذلها الوقت كي تراه، تصر أن تحتفل به وأن تكون أول المستقبلين لأشعته والناس نيام..

كأنها تقدم له آيات الشكر والعرفان لمجيئه، ليذكرها أنها لاتزال على قيد الحياة وعلى قدرة للانتظار.

مـرت أيـام.. قـلّ الحديـث عن بدرة، ثم لـم يعد أحد يذكر بدرة إلاّي.

- يا الله يا بنات تصبحوا على خير..

بهدوء، جمعت الحاجة عذرا الكؤوس ولوازم قعدة آتاي وضعتها فوق السـينية النحاسـية الكبيرة.. حملت الإمزاد إيذانا بسـاعة الذهاب إلى شقتها.

كأنني لاحظت شيئا غريبا.. كانت تحاول الوقوف بصعوبة بالغة.. كـأنها تريد أن تخفي ألما فظيعا بسـاقها. رأيت ملامحها تتشـنج قليلا وهـي تضـع يدهـا علـى ركبتها. ثم ما تفتأ أن تنصب صدرها ورأسـها عاليا كي تخادع أبصارنا.

اختلطت الأصوات في رأسي.. هل حدث فعلا أن نطقت الحاجة عذرا تقول:

- غدا سأرحل إلى الصحراء يا بنات.

هـل حـدث فعـلا أن سـلمتني مغلفا كبيرا وهـي توصيني إيصاله لمسعود حارس فيللتها بنادي الصنوبر:

- زوخا.. روحي عند مسـعود في الفيللا بنادي الصنوبر سـلمي له هذه الأمانة.. الله يخليك..

هل حدث فعلا وأخبرتنا أنها كتبت الشقتين باسمي وباسم باية؟

هل أفضى لنا صوتها الجهوري، ترتجف حبات الرمل في ممراته، وهي تقول مغمضة العينين:

- أشتهي أن أدس جسدي في الرمل.. أن أعود إليه..!

أم أن الطارقيـة الجميلـة الطيبـة خرجـت كعادتهـا، يناغـي رنيـن أسـاورها الفضية رنين الكؤوس الفارغة المترنحة فوق السـينية، يلوح لنـا الإمـزاد مودعا يبتسـم تحت إبطها من أنـس، بينما أثوابها العريضة الهفهافة تتطاير، تداعب الهواء، ماسـحة على رؤوس كل الأشـياء في ممرها.. أغلقت بابنا بهدوء.. ليظل العطر المدهش يصرخ خلف أذنَي الحكاية:

" دمعة دمعة من القلب للعين
سالت عالخدين
نقشت عالوجه خطين
غيرت سواد العين
صبح للحبيب قلبين
وجهو رجع وجهين
غير الحال صفين
مدة الحال حولين
ينقسم قلبي نصين
نار و جمر لاهبين
سامع و شافت العين
لكن لا و لائين ".

نادي الصنوبر

رواية



ربيعة جلطي

• روائية من الجزائر

وما كادت الحاجة عذرا تعبر من الباب الكبير، حتى شعرتُ بتلاكم الكلمات على طرف لساني، ولمحت كوكو ينثني من الضحك وهو ينظر إليّ شامتاً يومئ بلا صوت:

- عذرة العذارى ومسعود ياخسارة.

كلما مرت بي داخلة أو خارجة من باب فيلّتها، أنحني لها وأبتسم بقلق، لا أترك كلاماً طيباً إلا وسبقت نفسي به إليها.. أسمعها الكلام المنتقى باحترام، المنمق الذي أرتبه مسبقاً في سري جملة جملة، ووقعاً وقعاً.

حالما تختفي الحاجة عذرا عن عيني، أعض على يدي ندماً. وقد تنبهت إلى أنني أسبقت جملة على أخرى، وأنني نسيت واحدة ربما كانت أهمها جميعاً. لكنها تمر بسرعة دون التفاتة وكأنني فزاعة جميلة من تبن.

مرات أخلو إلى نفسي وأنا مستلق على فراشي، وقد طردت كوكو وأغلقت الباب، أكاد أرجع إلى رشدي وأوبخ نفسي بكلام قاس حزين:

- أنت عساس يا مسعود ولازم تبقى عساس.

كيف لها أن تنظر أو تنتبه إليك، وتشعر بحالك، وتفكر فيك وأنت الحارس المسكين لفيلتها بنادي الصنوبر، وما أدراك ما نادي الصنوبر.

لوحة الغلاف:
بول غوغان، طبيعة صامتة 1889

تصميم الغلاف: سامح خلف

ISBN 978-614-01-0553-9



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com